فهرس الجزء الأول من النظرات

صفحة		صفحة	
٣	المقدمة	٢١٦	الصخرة البيضاء
٦٥	الغد	٢٢٣	الحياء
٧٠	الكأس الاولى	٢٣٣	الانتحار
٧٨	الدفين الصغير	٢٣٨	الجمال
٨٥	مناجاة القمر	٢٤٢	الكذب
٨٨	أين الفضيلة	٢٤٥	غرفة الاحزان
٩٦	الغنى والفقير	٢٥٦	الشرف
١٠١	مدينة السعادة	٢٦٢	الحب والزواج
١١٤	أيها المحزون	٢٧٠	الاسلام والمسيحية
١١٦	الى الدير	٢٨٦	أماء أم عراء
١٢٤	الرحمة	٢٨٩	الزوجتان
١٣٣	رسالة الغفران	٢٩٩	في سبيل الاحسان
١٥٠	عبرة الدهر	٣١١	أدب المناظرة
١٦٢	أفسدك قومك	٣١٧	الاحسان في الزواج
١٦٦	الصدق والكذب	٣٢٤	لاهمجية في الاسلام
١٨٠	الطاعون	٣٣٠	البخيل
١٨٣	الحرية	٣٣٩	العوض والانسان
١٨٩	عبرة الهجرة	٣٤٧	الخزاع
١٩٤	الانصاف	٣٥٢	السوء
١٩٦	المدنية الغربية	٣٦١	البائسات
٢٠٤	يوم الحساب		

تم الفهرس

ومنظومِه ما شاء الله أن أقرأ ثم لا ألبث أن أنساه فلا يبق منه فى ذاكرتى إلاّ جمالُ آثاره وروْعة حسنه ورنّة الطرب به . وما أذكر أنى نظرت فى شيء من ذلك لِأحشوَ به حافظتى ، أو أستعين به على تهذيب بيانى ، أو تقويم لسانى ، أو تكثير مادة علمى باللغة والأدب ، بل كل ما كان من أمرى أنى كنت امرَأً أحب الجمال وأفتتن به كلما رأيته فى صورة الانسان ، أو مطلع البدر ، أو مغرب الشمس ، أو هجعة الليل ، أو يقظة الفجر ، أو قمم الجبال ، أو سفوح التلال ، أو شواطئ الأنهار ، أو أمواج البحار ، أو نغمة الغناء ، أو رنّة الحداء ، أو مجتمع الأطيار ، أو منتَثَر الأزهار ، أو رقة الحس ، أو عذوبة النفس ، أو بيت الشعر ، أو قطعة النثر ، فكنت أمر بروض البيان مَرًّا فاذا لاحتْ لى زهرةٌ جميلة بين أزهاره ، تتألق فى غصن زاهر بين أغصانه ، وقفت أمامها وقفة المعجَب بها الحانى عليها المستهتر بحسن تكوينها واشراق منظرها من

حيثُ لا أريد اقتطافها ، أو إزعاجها من مكانها ، ثم أتركها حيث هى وقد علِقتْ بنفسى صورتُها إلى أخرى غيرِها ، وهكذا حتى أخرج من ذلك الروض بنفس تطير سروراً به ، وتسيل وجداً عليه ، وما هو إلا أن درتُ ببعض تلك الرياض بعض دورات ، ووقفت ببعض أزهارها بضع وقفات ، حتى شعرت أنى قد بُدلتُ من نفسى نفساً غيرها ، وأن بين جنبيّ حالا غريبة لا عهد لى بمثلها من قبل ، فأصبحتُ أرى الأشياء بعين غير التى كنت أراها بها ، وأرى فيها من المعانى الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسناً ، والنفس بهجة ، فقد كنت أرى الناس فرأيت نفوسَهم ، وأرى الجمال فرأيت لبه وجوهره ، وأرى الخير فرأيت حسنَه ، وأرى الشر فرأيت قبحه ، وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها ، وأرى البأساء فرأيت مدامعها ، وأرى العيون فرأيت السحر الكامن فى محاجرها ، وأرى الثغور فرأيت الخمر المترقرقة بين ثناياها ، وكنت أرى الشمس فرأيت

خيوطها الفضية الراقصة فى جو السماء ، وأرى القمر فرأيت شعاعه يهم أن يسيل على جوانبه سيلا ، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب فى تجاليد(١) الظلام دبيب المشيب فى تجاليد الشباب ، وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية تطل على الكون من فروج قميص الليل ، وأرى الليل فرأيته وهو يهوى بأجنحته السوداء إلى الأرض هُوِىّ الكرى إلى الأجفان ، وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها ، وحفيفَ الأوراق ففهمت نغماتها ، وتغريد الأطيار فعرفت لغاتِها ، فأحببت الأدب حباً جماً ملأ ما بين جانحتىّ فلم تكن ساعةٌ من الساعات أحب الىّ ولا آثر عندى من ساعةٍ أخلو فيها بنفسى وأُمسك علىّ بابى ثم أُسلِم نفسى الى كتابى فيخيل الىّ أنى قد انتقلت من هذا العالم الذى أنا فيه الى عالمٍ آخر من عوالم التاريخ الغابر ، فأشاهد بعينى تلك العصور الجميلة عصورَ العربية الأولى ، وأرى

(١) التجاليد : الجسم

العرب فى جاهليتها - بين خيامها وأخبيتها ، - وأطنابها وأعوادها ، وإبلها وشائها ، وشيحها وقيصومها ، وأرى مساجلاتها ومنافراتها ، وحبها وغرامها ، وعفتها ووفاءها ، وصبرها وبلاءها ، وحداءها وغناءها ، وأسواق شعرائها ، ومواقف خطبائها ، وفقرها وإقلالها ، وشحوب وجوهها ، وسمرة ألوانها ، وضوى أجسامها ، وترددها فى بيدائها بين حمارة[١] القيظ وصبارة[٢] البرد ، وتنقلها من صحراء إلى ريف ، ومن مشتى إلى مصيف ، ومن نجد إلى وهد ، ومن شرف إلى غور ، وانتجاعها مواقع الغيث ، ومنابت العشب ، وقناعتها من الطعام بأحفان التمر وقعاب اللبن وأضوع الشعير ، فاذا جد الجد أكلت القد[٣] واشتوت الجلد ، وتبلغت بالضب واليربوع ، وعرافيب الآبال ، وأظلاف الأبقار ، واكتفت من اللباس بأكسية الكرابيس وأردية الأشعار ، وقمص الأوبار ، فاذا اعوزها ذلك لبست

(١) شدة الحر (٢) شدة البرد (٣) السير يقد من جلد

الظل ، وافترشت الرمل ، غير ناقمة ولا ساخطة ، ولا متبرمة بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده ، ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه ، ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الاسلامية فأرى رغدَ عيشها ، ولين طعامها ، واعشوشابَ جانبها ، وعذوبة مواردها ومصادرها ، وسرورَها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس وأعلاق الروم ، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان ، واللؤلؤ المنثور من الولدان ، وأرى مجالسَ غنائها ، ومجامع أنسها ، ومسارح لهوها ، ومجالات سبقها ، وملاعبَ جيادها ، ومذاهب طرائدها ، ومواقف حجها ، وازدحامَ شعرائها على أبواب أمرائها ، وجوائز أمرائها في أيدي شعرائها ، وانطلاقَ ألسنتهم بوصف ما تشاء من الأعواد والبرابط والمعازف والمزاهر والأقداح والدنان والموائد والصحف ، وألوان الطعام حلوِه وحامضه ، وأصناف الشراب حلالِه وحرامه . والطيورِ المحلِّقة في الأجواء ، والسفن الذاهبة

فى الدأماء[١] ، والرياض الخضراء ، والغابات الشجراء ، والقصور وتماثيلها ، والبحيرات وأسماكها ، والأنهار وشواطئها ، والأزهار ونفحاتها ، والغيوث وقطراتها ، ودبيب الحب فى القلب ، والغناء فى السمع ، والصهباء فى الأعضاء ، وخلجة الشك ، ولمحة الفكر ، وبارقة المنى ، ثم لا أشاء أن أرى بين هذا وذاك خلقاً عذباً ، أو أدباً غضاً ، أو حباً وفياً ، أو مجوناً مستظرفاً ، أو حواراً مستملحاً ، إلا وجدته ، ولا أن أسمع ما تهتف به العاتق فى خدرها ، وما يحدو به الحادى فى أعقاب إبله ، وما يتغنى به العاشق ، وما يهذى به الشارب ، وما يترنم به الشادى ، وما يساجل به الماتح[٢] إلا سمعته ، ولا أن أعي ما يهجس فى نفس الصب إذا اشتمل عليه ليله ، والحائر إذا ضل به سبيله ، والثاكل إذا فجعت بواحدها ، والموتور إذا حيل بينه وبين وتره ، والكريم إذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء .

(١) الدأماء البحر (٢) الماتح المستقى على البئر

دراستي بين لهو الحياة ولعبها ، فكنت لا أستطيع أن ألم بكتابي إلا في الساعة التي آمن فيها على نفسي أن يلموا بأمري . وقليلا ما كنت أجدها ، وكثيراً ما كانوا يهجمون مني على ما لا يحبون . فاذا عثروا في خزانتي أو تحت وسادتي أو بين لفائف ثوبي على ديوان شعر أو كتاب أدب خيّل اليهم أنهم قد ظفروا بالدينار في حقيبة السارق ، أو الزجاجة في جيب الغلام ، أو العشيق في خدر الفتاة ، فأجد من البلاء بهم ، والغصص بمكانهم ، ما لا يحتمل مثلَه مثلي ، وهم لا يعلمون أحسن الله اليهم أنهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنةٌ من حسنات الأدب الذي ينقمون منه ما ينقمون ، ويدٌ من أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري ، فلولا الأدبُ ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهم آيات الكتاب ولا استنباط تلك الأحكام التي دوّنوها لهم وتركوها بين أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعتَه ، ويعيشون في ظلها عيش السعداء مترفين ، ولولاه لما استطاع علماؤهم

اللغويون أن يورّثوهم هذه العلومَ اللغوية التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم ويُدِلّون بتكانهم منها على الناس جميعاً، كما لا يعلمون أن الأدب هو خير ما يستعين به متعلمٌ على علم، وأن الذوق الأدبي الذي يستفيده المتأدب من دراسة الأدب ومزاولته هو الميزان الذي يزن به ما يحاول فهمه من عبارات العلوم وأساليبها، والدليل الذي يتسمّتُه ويترسم مواقع أقدامه في فهم أصول الدين ليكون مجتهداً إن استطاع أو واقفاً على منازع المجتهدين، واللسانُ الذي يستعين به على الإفضاء بأدق أغراضه وأعمقها وأقصاها مكاناً من قلبه ليكون إنساناً ناطقاً ومسلماً نافعاً، ولو أن هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه وهم اليوم والحمد لله قليل بل هم في طريق الفناء والانقراض قد تعلقوا منه بما كان يتعلق به أسلافُهم وأئمتهم من قبل لنالوا به في دينهم خيراً كثيراً، ولاستدفعوا به عن أنفسهم في أمره شراً عظيماً، فما زال الدينُ واضحَ المنهج قائم الخطة وما زالت

آياتُ الكتاب ومتون الأحاديث سائغةً هنيئة لا يلحقها الريب ولا يحيط بها الشك ولا تطير بجنباتها الأوهام والظنون حتى جهل علماء الدين الأدبَ ففسدت أذواقُهم ، وضلت أفهامهم ، فكثر بينهم التأويل والتخريج ، ووهت تلك العقدةُ الوثيقة بين الألفاظ والمعانى ، واسترخت عراها من أيديهم ، فأصبح كل لفظ فى نظرهم محتملا لكل معنى حتى ما يأبى أحدهما على الآخر شيئاً ، وتهافتَ ذلك الحاجزُ الحصين الذى كان قائماً بين الحقيقة والمجاز ، والحقيقة والخيال ، فبغى بعضُ الكلم على بعض وعاث كلٌّ منهما فى تربة صاحبه إقبالا وإدباراً ، وجيئةً وذهوبا ، وصعوداً ونزولا ، فاستطاع الواغلون فى الدين والناصبون له أن يدخلوا عليه من الأحاديث المنحولة الغريبة فى أساليبها ومناهجها عن مناهج العرب وأساليبهم ما لا يضبطه الحساب كثرة فهلكت الأمة بين هذا وذاك هُلكا لا تزال تتجرع كأسَه المريرةَ حتى اليوم

فالحمد لله أولا وللأدب ثانياً على نجاتى منهم فيما كانوا يَرُومون بى ، ويحاولون منى ؛ بل أحمد الله اليهم كذلك فقد كُفيت بسوء رأيهم فى الأدب ونقمتهم عليه شر من يدخل بينى وبين نفسى فى المفاضلة بين شاعر وشاعر ، وكاتب وكاتب ، أوالموازنة بين أسلوب وأسلوب ، وديباجة وأخرى ، فلم يكن لى عونٌ على ذلك كلّه غير شعور نفسى وخفوق قلبى خفقة السرور أو الألم إن مرَّ بى ما أحب أو ما أكره من حسنات القول أو سيئاته من حيث لا أعرف سبيل ذلك ولا مأتاه ، فكان شأنى فى ذلك شأن السامع الطروب الذى تُطربه نغمة وتزعجه أخرى فيطير بالأولى فرحاً ، وبالثانية جزعا ، وقد يكون ضعيف الإلمام بضروب الايقاع وقواعد النغم ، فكنت لا أقرأ إلا ما أفهم ، ولا أفهم إلاّ ما أشعر أنه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس فاذا هو فى كبد الرمية ولبها ، فان رأيتُ أن المعنى قد قام دونه ستارٌ من التراكيب المتماظلة والأساليب

الملتوية، علمتَ أن القائل إما ضعيفُ المادة اللغوية فهو يعجز عن الافضاء بما فى نفسه لأنه لا يعرف كيف يُفضى به، وإما جاهلٌ لم يستوِ له المعنى الذى يريده كل الاستواء ولم يَدُرْ فى جوانب نفسه حتى يستقرَّ فى قراره منها، فهو يتوهمه توهماً ويجمجمه جمجمة ويهذى به هذياناً، فلا سبيل له إلى الافصاح عنه، وإما داهيةٌ محتال قد علم أن المعنى الذى يجول فى نفسه ويتردد فى خاطره تافهٌ مرذول وكان لا بد له أن ينفقه[1] على الناس ويزخرفه لهم ويزوّره[2] فى أعينهم فهو يكسوه أسلوباً غامضاً ليُكدّهم ويجهدهم فى سبيله حتى إذ ظفروا به بعد ذلك خيل اليهم أنهم قد ظفروا بمعنى غريب، أو خاطر بديع، ووجدوا فيه عند الوصول اليه من اللذة والمتعة ما يجد الظامئ فى ضَحضاح[3] الماء الكدِر إذ بعد لُجْعة فى طلبه ووصل اليه بعد الجهد والإشفاء، وإما عاجزٌ ضعيف القوة النفسية قد علم أن ضعفاء الأفهام

(١) ينفقه بالتشديد يروجه ونفق أى راج (٢) زور الشىء حسنه وزخرفه
(٣) ضحضاح : الماء القليل فى قعر نهر

من الناس وهم سواد الأمة ودهماؤها لا يرضَون عن معنى من المعانى ولا يستسنون[١] قيمته ولا يقيمون له وزناً إلا إذا جاءهم فى جلدة من الألفاظ المتكرّسة المتقبِّضة، وأنهم إذا ورد عليهم أثمن المعانى وأغلاها، وأكرمها جوهراً، وأطيبها عنصراً، فى ثوب من الأساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم إلى أنه ما جاءهم على هذه الصورة إلا لأنه ساقط مبتذَل، أو سُوقى مطروق، فاحتقروه وازدروه، وكان يرى لضعف حيلته وسقوط همته أن لابد له من موافاة رغبتهم وبلوغ رضاهم، والنزول على حكمهم، فتجملَ لهم باللُّكنة والعِى، وتملقهم بالغموض والابهام، وإما أعجمىٌّ يظن أن اللغة العربية حروفٌ وكلمات وهو لا يعرف منها غيرها فينطق بشىء هو أشبه الأشياء بما يترجمه بعض المترجمين من اللغات الأعجمية ترجمة حرفية، فإن نعيتَ عليه غرابةَ أسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم

(١) استسنى قيمته رآها سنية رفيعة

كان مبلغ ما يَنضحُ به عن نفسه أن المعانى العصرية والخيالات الحديثة لا يستطاع إلباسها الاكسيةَ البدوية ، ولاردية العربية ، كأنما هو يظن أن المعانى والخواطر خضع وقسام ، وأنصبة وسهام ، هذا للشرق وهذا للغرب ، وهذا للدرب وهذا للعجم . أما الحقيقة التى لا ريب فيها فهى أن الرجل لا ينتزع تلك المعانى من قَرارة نفسه ولا يصورُ فيها صورة عقله وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعانى فى اللغة الأعجمية التى يعرفها لاصقةً بأثوابها الأصلية فلما أراد أن يفضىَ بها الى العرب وكان غير مضطلع بلغتهم ولا متمكن من أساليبهم عجز عن أن ينزع عنها أثوابها اللاصقة بها فنقلها اليهم كما هى إلا ما كان من تبديل حرف بحرف أو لفظ بآخر من حيث يظن أنه يهتف بشىء قام فى نفسه أو يفضى بخاطر من خواطر قلبه ، وإما شحيحٌ يأبى له لؤم نفسه وخبث فطرته أن يمنح الناس مِنْحَتَه سائغة هنيئة دون أن يكدرها عليهم بالمطل والتسويف والمدافعة والمحاولة ،

والشحُّ خُلُق إذا نزل منزله من نفس صاحبه أقام من نفسه حارساً يقظاً على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجدٌ مصطنَعا ، ولا يظفر منه مُعتصِرٌ ببلة ، فيضن بعلمه ، كما يضن بماله ، ويقبض لسانَه عن النطق ، كما يقبض يده عن الإنفاق ، ويصرّد[١] عطاءه تصريدا ليستديمَ حاجة الناس إليه ، كما يجيع كلبَه ليتبعَه ، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، على العجزة والجاهلين ، والمحتالين والكاذبين ، والأشحاء والباخلين

وكان أشعرُ الشعراء عندى وأكتب الكتاب سواءً في ذلك المتقدمُ والمتأخر والنابه والخامل أوصفهم لحالات نفسه أو أثر مشاهد الكون فيه وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويرا صحيحا كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضا ، أو يضعه في أيديهم وضعا ، فإن ظننتُ أن القائل كاذبٌ فيما يقول أو أنه يرسم صورة غير الصورة التي تتلجلج في نفسه ، وأنه لغوىٌّ يفر من ضعف شعوره وفساد

(١) [illegible]

نظمه إلى أكمة من الألفاظ الغريبة والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها ، أو ناقل يتخذ الكتابة حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية والوقائع التاريخية حشواً ، أو مترجم ينقل من اللغة الأعجمية التي يعرفها آراء علمائها وخيالات شعرائها وكأنما هو صاحبها ، أو شعرت أنه قد قدر في نفسه وهو يكتب كلمته أن يكون بليغاً فيها أو مبدعاً ليعجب الناس منها ، كان كل حظه عندي أن أعرف له قدره في العلم ومنزلته من الذكاء والفهم ، إن أحسن فيما يقول ، ولكنني لا أعده كاتباً ولا شاعراً ، لذلك كان أغزل الغزل عندي غزل العاشقين ، وأفضل الرثاء رثاء الثاكلين ، وأنبل المدح مدح الشاكرين وأشرف العظات عظات المخلصين ، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين ، وأحسن الهجاء هجاء الصادقين ، وأبرع الوصف وصف الرائين المشاهدين

ولا أدرى ما الذى كان يعجبنى فى مطالعاتى من شعر الهموم والأحزان ومواقف البؤس والشقاء وقصص

المحزونين والمنكوبين خاصة ، فقد كان يعجبني كثيراً ويُبكيني أحرّ بكاء وأشجاه شقاء المهلهل في الطلب بثأر أخيه ، وشقاء امرىء القيس في الطلب بثأر أبيه ، وبكاء جليلة أخت جساس على زوجها وأخيها ، وبكاء عدى بن زيد على نفسه في سجن النعمان ، وبكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك حتى دمعت عينُه العوراء ، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد ، وهيامُ أم حكيم زوج عبيد الله ابن العباس في المواقف والمواسم تنشد طفليها الذبيحين ، وبكاء الشريف على المناذرة في خرائب الحيرة ، وبكاء أبي عبادةَ على الأكاسرة في خرائب المدائن ، وبكاء الرضىّ على بني هاشم ، وبكاء العبلى على بني أمية ، وبكاء الرقاشى على بني برمك . وذلّ أبي فراس في أسره ، والمعتمد بن عباد في سجنه ، وبكاء الوزير بن زيدون على نفسه مرة . وعلى ولّادة أخرى ، وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد . والبحترى على المتوكل ، وابنِ اللبانة على ابن عباد ، والتيمى على يزيد

ابن مَزْيد ، ومروانَ بن حفصةَ على معن بن زائدة، وجنونُ المجنون بليلاه ، وجلوسُه فى جنبات الحى منفرداً عارياً مذهوبَ اللب مشترك العقل يهذى ويخطط فى الأرض ويعبث بالتراب . ثم هيمُه بعد ذلك مع الوحش فى البرية لا يأكل إلا ماينبت فيها من بقل، ولا يشرب إلا مع الظباء إذ وردتْ مناهلها ، وراحتُه إلى الطريق يصعد مع مُصعديه، وينحدر مع مُنحدريه ، حتى هلك فى أرض مقشعرّة مغبرة بين الصخور والأحجار ، وشقاء قيس بلُبناه بعد أن طلقها برّا بوالده ، ونزولا على حكمه ، وذَهابُ الحب به بعد ذلك كل مذهب ، حتى هلك بين الوفاء للفضيلة والوفاء للحب ، وموقفُ جميل بن معمر بين يدى أبيه وهو يعتب عليه أشد العتب وأمرّه فى استهتاره بحب بُثَينة ومخاطرته بنفسه فى الإلمام بحيها فيقول : يا أبتِ هل رأيت قبلى أحداً قدر أن يدفعَ عن قلبه هواه أو ملك أن يسلى نفسه أو استطاع أن يتقى ما قُضى به عليه ، والله لو

قدرتُ أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيلَ شخصها من عيني لَفعلتُ ، ولكن لاسبيل إلى ذلك وإنما هو بلاء بليتُ به لحيْنٍ قد أتيح لي وأنا أمتنع عن طروق هذا الحي والالمام به ولو مت كمداً ، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه ، وبكاء النبي صلى الله عليه وسلم عند ما سمع قيسَ بن عاصم يحدث عن نفسه أنه كان يئد بناته في الجاهلية وأن واحدةً منهن ولدتها أمها وهو في سفر فدفعتها إلى أخوالها ضناً بها على الموت وإشفاقاً عليها فلما عاد وسألها عن الحمل قالت له إنها ولدت مولوداً ميتاً ثم مضت على ذلك سنون عدة حتى كبرت البنت ويفعت فزارت أمها ذات يوم فرآها عندها فأعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسألها عنها فحدثته حديثها على وجهه ولم تكتمه شيئاً طمعاً في أن يضمها إليه ويمنحها رحمته وعطفه فأمسك عنها أياماً ثم تغفل أمها عنها ذات يوم وخرج بها إلى الصحراء حتى أبعدَ فاحتفر لها حفرةً وجعلها فيها فأخذت تقول : يا أبت ما تريد

تصنع بي ؟ وما هذا الذى تفعل ؛ وهو يَهيل عليها التراب ولا يلتفتُ اليها وهي تئن وتقول: أتاركي أنت يا أبت وحدى فى هذا المكان ومنصرفٌ عنى ؟ حتى واراها وانقطع أنينُها ، وبكاء الأعرابية التى مات منها ولدها فى دار غربة فدفنته ثم وقفتْ على قبره تودعه وتقول : والله يا بُنيّ لقد غذوتُك رضيعا ، وفقدتك سريعاً ، وكأن لم يكن بين الحالين مدةٌ ألتذ بعيشتك فيها فأصبحتَ بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامدا ورُفاتًا سحيقا وصعيداً جُرُزاً ، اللهم إنك قد وهبتَه لى قرة عين فلم تمتعني به كثيراً ، بل سلبتَنيه وشيكا ، ثم أمرتَني بالصبر ، ووعدتني عليه الأجر ، فصدقتُ وعدك ، ورضيت قضاءك فارحم اللهم غربته . وآنس وحشته ، واستر عورته . يوم تنكشف الهنات والسوآت . واثكلَ الوالدات ! ما أمضّ حرارةَ قلوبهنّ . وأقلقَ مضاجعهن ، وأطولَ ليلهنّ . وأقلَّ أنسهن . وأشد وحشتهن . وأبعدَهن

من السرور ، وأقربهن من الأحزان ، وشقاء ذينك البائسَين المنكوبين عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ومناصبة الدهر لهما وانقطاع سبيله بهما حتى أصبحت زوجا لغيره وأصبح من بعدها هائمًا مختبلا يرمى بنفسه المرامىَ ويقذفُ بها فى فجاج الأرض ومخارمها حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكّر حتى زارها وهو يظن أن زوجها لا يعلم من أمره إلا أنه أحد الأضياف الغرباء ، فلما علم أنه يعرف حقيقتَه وأنه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكّر له عزم على الانصراف حياء منه ، وقال لها يا عفراء أنتِ حظى من الدنيا وقد ذهبْتِ فذهبتْ دنياى بذَهابك فما قيمة العيش من بعدك . وقد أجمل هذا الرجلُ عشرتى واحتمل لى ما لا يحتمله أحد لأحد حتى استحييتُ منه ، وإنى راحل من هذا المكان ، وإنى عالم أنى أرحل إلى مَنيّتى . وما زال يبكى وتبكى حتى انصرف ، فلما رحل نُكس بعد صلاحه

وتماسكه وأصابه غشيٌ وخفقان فكان كلما أُغمى عليه أُلقى على وجهه خمارا لعفراء كانت زودته إياه فيفيق حتى بلغ حيه وأمسك عاما كاملا لا يسمع منه سامعٌ كلمة ولا أنَّةً حتى بلغ منه اليأسُ فسقط مريضا ، فمر به بعض الناس فرآه مطّرحا بجانب خبائه فسأله عما به فوضع يده على صدره وقال:

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدى من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كانت نفسُه فيها ، فلما بلغ عفراءَ خبرُه قامت إلى زوجها وقالت له . لقد كان من خبر ابن عمى ما كان. وقد مات فىّ وبسببي، ولا بد أن أندُبَه وأقيم مأتماً عليه . فقال افعلى . فما زالت تندبه ثلاثًا حتى ماتت فى اليوم الرابع ، وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصرانى حينما علم أن أهله قد بنوا له ديرا بنواحى الروة ليترهَّب فيه ويحتجب عن الناس فضاقت عليه الدنيا بما رحُبت وأحرق بيته وفارق أهله وإخوانه ولزم صحراء الدير علّه يجد السبيل الى الوصول إليه ، فمتنع عليه ذلك بعد ما ذلّ للرهبان وتخضّع وتأتّى

لهم بكل سبيل فلم يُجْده ذلك شيئاً ، فصار إلى الجنون وخرّق ثيابه وأصبح عُريان هائماً لا شأن له إلا أن يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله أن يبلغ رسالته إلى عيسى حتى رآه بعضُ الناس فى بعض الأيام ميت إلى جانب الدير ، وأمثالُ ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء .

كأنما كنتُ أرى أن الدموع مظهرُ الرحمة فى نفوس الباكين فلما أحببتُ الرحمة أحببت الدموعَ لحبها ، أو كأنما كنت أرى أن الحياة موطن البؤس والشقاء ومستقرُّ الآلام والأحزان ، وأن الباكين هم أصدق الناس حديثاً عنها وتصويراً لها ، فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لأجله . أو كأنما كنت أرى أن بينى وبينه وبين البائسين المنكوبين سبباً قريباً ونسباً متصلاً . فأنستُ بهم وضربت بنواحهم ضرب نحيب بنوح حمائمه . وبكاء الغمائم . أو كأنما كنت فى حاجة إلى بعض قطرات من الدمع تخرج بها همّاً أنا فيه . فما بكى الباكون وبكيت ببكائهم وحدتُ

فى مدامعهم شفاء نفسى ، وسكونَ لوعتى ، أوكأنما كنت أرى أن جمال العالم كله فى الشعر وأن الشعر هو ما تفجّر من صدوع الأفئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم ، وصعد من صدورهم مع زفراتهم

تلك أيامى التى سعدتُ بها برهة من الدهر ومرّ لى فيها أحسنُ ما مر لأحدٍ والتى لا أزال أذكرها بعد مرور تلك الأعوام الطوال فأكاد أشرق بدمعى لذكراها ، ثم انثنيت فوجدت يدى صِفراً منها وإذا أنا بين يدى هذا العالم المظلم المقشعر عالمِ الحقيقة والألم ، فنظرت اليه نظر الغريب الحائر إلى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت مخازيَه وشروره وظلمة أجوائه ، واغبرار سمائه ، وقتال الناس بعضهم بعضاً على الذَرّة والحبة ، والنسمة والهبوة(١) وتساعَ مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه وسلطانَ القوة على الحق ، وغلبةَ الجهل على العلم ، وإقفارَ

(١) هبوة غبرة

القلوب من الرحمة ، وجمودَ العيون عن البكاء ، وعجز الفقراء عن فُتات موائد الأغنياء ، وتمضغ الأغنياء بلحوم الفقراء ، ورأيتُ التراثىَ بالرذيلة حتى ادعاها لنفسه وأنحلَها إياها من لا يتخلقُ بها طلبا لرضا الناس عنه برضاه عنها . ورأيت البراءة من الفضيلة حتى فرّ بها صاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فِرار العارى بسوأته ، والموسوم بخزيته . ورأيت الرجل والمرأة وقد سرا(١) كلٌ منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه . ثم تقايضنا فلبست قباءه ولبس غلالتَها ، فأصبح امرأة لها من النساء التكسرُ والتمرد . وأصبحتْ رجلا له من الرجال التوقحْ والتسطر(٢) ورأيت الدِّين وهو دوحة السلام الخضراء التي يستظل بها الضاحون(٣) من لفحات الحياة وزفراتها قد ستحال فى أيدى الناس الى سهام مسمومة يحاول كلٌ منهم أن يصيب بها كبد أخيه

(١) سرا الثوب عن جسمه ألقاه عنه (٢) تشعر ص شعر و شعر هد من أعد هله حث (٣) ضحى سكشف شمس

فلا يخطئها . ورأيتُ ضلال الأسماء عن مسمياتها وحيرة مسمياتها بينها . واضطرابَ الحدود والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها مالم يكن داخلا ، وخرج منها مالم يكن خارجاً . فسُمّى الشحُّ اقتصاداً ، والكرم سرفا ، والخبْ جبنا . والسماجة جرأةً ، والسفاهة براعة ، والفجور فتوة ، والتبذل حرية . واشتبهت طرقُ الفضيلة ومسالكها على من يريد ركوبها ، لأنه يجد على رأس كل واحدة منها زعيما من زعماء الخديعة والكذب يصرفه عنها الى غيرها ، وكنت أرى أن الأدب حال قائمةٌ بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر أو يحدث نفسه به أو يكون عونا لفاعليه عليه . فان ساقته اليه شهوةٌ من شهوات النفس أو نزوة من نزواتها وجد فى نفسه عند غشيانه ومخالطته من المنغص والارتماض ماينغص عليه عيشه ، ويقلق مضجعه ، ويطيل سهده وألمه . فاذا هو صورة من صور الجوارح وعرض من أعراض الجسم لا دخل له فى جوهر النفس ،

ولا علاقة بينه وبين الحس والوجدان. فأكثر الناس عند الناس أدبا، وأقومهم خُلُقًا، وأطهرهم نفسا، من لا يفي على شرط أن يعد، ومن يكذب على أن يكون كذبه سائغا مهذبا، ومن يملأ صدره مَوْجدة وحقدا على أن يكون بساما ضحوك السن، ومن يسرق على أن يستطيع العبث بمواد القانون وخداع القضاة عنها ومن يبغض الناس جميعا بقلبه، على أن يحبهم جميعا بلسانه، ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات الجسمية التي تواضع عليها المتكلفون في الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة ونحو ذلك مما يرجع العلم به غالبا إلى صغر النفس واسفافها، أكثر مما يرجع إلى علوها وكمالها. فدخلني من ذلك خطر عظيم لم أستطع أن أملك نفسي معه كأنما خيل إلي أنني أقرب عهدي بما أرى أنني أرى شيئا عجيبا، أو منظرا غريبا، وكأنما كنت أحسب أن عالم الخيال الذي كنت فيه إنما هو صورة صحيحة

لعالم الحقيقة الذى انتقلتُ اليه ، فأزعجنى ما رأيت من هذا الاختلاف العظيم بينهما فأرسلت الكلمةَ إثر الكلمة كما يتنفس المتنفس ويئن الحزين ، فقرأ ذلك بعضُ الناس فسموه شعراً وسموه كلاماً . ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرونني بأمثاله وما زلت أضع فيهم وأرجو أن أصيبَ ما فى نفوسهم حتى سمونى كاتباً

وكان لذلك الأدبِ الذى توليت به نفسى فيما مضى أثرٌ باق عندى حتى اليوم فانى لا أحسن أن أكتب كلمة يفضى بها إلىّ غيرى أو أعبر عن معنى لا يقوم بنفسى ، أو أبكيَ على من لا يحزنى فراقه . أو أندب من لا يفجعنى موته ، أو أستنكرَ ما أستحسن ، أو أستحسن ما أستنكر ، كما لا أستطيع أن أمر بمشهد من تلك المشاهد التى تهيج فى نفسى حزناً شديداً . أو طربا كثيرا ، فأملك نفسى عن محاولة الافضاء بما تركه عندى من خير أو شر ، وما أعلم أنى كتبت كلمة فى شأن من الشؤون إلا وكان بعضُ تلك

المشاهد منشأها في قلبي، فقد كنت رجلاً لا أحب الكذب ولا آخذ نفسي به ما وجدت منه بداً. فأبغضت الكاذبين بغض الأرض للدم. فكان من همي أن أقاتلهم على الصدق قتالاً مستحراً، حتى أصل بهم إلى إحدى الحسنيين، إما أن يكونوا صادقين، وإما أن يعلم الناس أنهم كاذبون، وكنت إنساناً بائساً لم يترك الدهر سهماً من سهامه المريشة لم يرمني به، ولا جرعة من كأس مصائبه ورزاياه لم يجرعني إياها، فقد ذقت الذل أحياناً، والجوع أياماً، والفقر أعواماً، ولقيت من بأساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشر، فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين. ورأيت مواقع سهام الدهر في أكباد البائسين والمنكوبين. فكان من همي أن أبكي كل بائس. وأندب كل منكوب، وأطلب رحمة القوي للضعيف، والغني للفقير، والعزيز للذليل، وقد قدر لي فيما مر بي من أيام حياتي أن رأيت بعيني من

وقفتْ بين يديه امرأة ذليلة تبكى وتضرع اليه أن يرضَخَ لها بقليل من المال تستعينُ به على ستر ما كشف ابنُه من سوءة ابنتها فأبى ذلك عليها وقال لها وهو يحسَب أنه يعقل ما يقول: أيتها المرأة لا حق لابنتك عندى ولا عند ولدى فلم يكن حظه منها فيما كان من أمرهما بأكبرَ من حظها منه، ورأيت من تزوج من فتاة كان يمسك فى نفسه لأهلها حقدا قديما فما دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخا: أيها الناس إن الفتاة مريبة، وكان كاذبا فيما يقول، ولكن صدّقه الناس،فانتقم لنفسه بذلك شر انتقام وأفظعه، ورأيت من دخلت اليه امرأةٌ من أولئك النساء المريبات تسأله بعض المعونة على أمرها فأمر بطردها ذَهابا بنفسه أن تسوء سمعته بدخولها بيته وكان هو الذى أفسدها على نفسها فتنزل بها فسادها الى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر. فلم يجد الجد حسبها على لقمة تتذوقها فى بيته، ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله فى بيتها أكلا، فكان بى منذ

ذلك العهد أن أنظر الى المرأة بعين غير العين التى ينظر بها الناس اليها ، وأن ألتمس لها من العذر وإن زلت بها قدم ما لا يلتمسه لها أحد ، وأن انتصف لها من الرجل ما وجدت سبيلا إلى ذلك حتى يُديل لها الله منه ، وكنت من شؤون عيشى فى حالة لا أستطيع معها أن أعتزل الناس الاعتزال كله ، ولا أن أختار لعشرتى من أشاء من خيارهم وذوى المروءة فيهم ، فلبستهم على علاتهم فما حفظ لى صديقٌ عهداً ، ولا صان لى صاحب سراً ، ولا استدنتُ مرة فنفس عنى دائن ، ولا دِنت فوفى لى مَدين ، ولا رد لى مستعير عارية ، ولا شكر لى شاكر صنيعه ، ولا فرج لى كربتى مفرج إلا إذا استقطر ماء وجهى فى القطرة لأخيره منه ، ليأخذَ أكثر مما أعطى ، ويسلب فوق ما وهب ، ووجدتُ فى طريق حياتى من خالطنى مخالطة الزائر للمرور حتى أمكنته الفرصة فسرق مالى بعد ما تحرم طعامى وشرابى ، ومن كان يبسط إلىّ يد الآمل الراجى فأكره أن أرده

خائباً فلما عجزتُ عن ذلك مرة أضمر لي في قلبه من الشر ما لا يُضمر مثله الرجل إلا لمن يغلبه على تُراث أبيه وأمه ، أو يخضب لحيته من دم مفرقه ، ومن نصب[1] له وغرى محادتي وممضتي[2] لأنه كان يحمل في رأسه فتكة لم يجد في طريقه من يحملها عنه ويستخذي له فيها سواي ، ومن أخذ نفسه بالنيل مني والغض من شأني لأنه كان يشكو الخمول والضعة وكان لا بد له أن يكون نابهاً مذكوراً فاتفق له أن رأى عاتقي بين يديه فظن أنه أعلى العواتق وأبعدها مذهباً في جو السماء ، فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه ، فوالله ما تحلحلتُ ولا نبوت به إبقاءً عليه وضناً به أن يسقط سقطة لا يقال منها ، ومن كان لا يكبر شأني إلا إذا اتقاني فإذا أضاء ما بيني وبينه كنتُ في عينه أصغرَ منه في عين نفسه ، ومن كان يقبل ويدبر بإقبال الدهر علي وإدباره عني لا يستحي أن

---

(١) نصب فلان لفلان عداوة (٢) ممحضة المخاصمة والمشارة

يكرر ذلك حتى أستحي له منه ، فعركتْ بجنبي[١] كل ما كرهت من ذلك ولكنني لم أرضَ لنفسي أنْ تنزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل اليها الغر الكريم ، فلم أثأر لنفسي ولكن أصبح رأيي في الناس غير رأيهم في أنفسهم ، ورأيِ بعضهم في بعض ، وخفتُ أن يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين[٢] أمثالي مثل ما أصابني ، فكان من همي أن أدل على شرور الأشرار الكامنة في نفوسهم ، وأن أكشف الستر عن دخائل قلوبهم ، حتى يتراءوا ويتكاشفوا ، فيتواقوا ويتحاجزوا ، فلا يهنأ خادع بخدعته ، ولا يبكي مخدوع على نكبته ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً جسوراً يركبونها في أغراضهم ومطامعهم ، وكانت منشئي في قوم بداة سذج لا يبتغون بدينهم ديناً ، ولا بوطنهم وطناً ، ثم ترامى بي الأمر بعد ذلك وتصرفتْ بي في الحياة شؤون جمة ، فخضعتُ لكثير من أحكام الدهر

(١) عرك [illegible] (٢) [illegible] حظ

وأقضيته إلا أن أكون ملحداً فى دينى، أو زارياً على وطنى، فاستطعتُ وقد غمرَ الناسَ ما غمرهم من هذه المدنية الغربية أن أجس ناحية منها، وأن أنظر اليها من مَرقب عال، وكنت أعدّ أن من عُجز العجز أن ينظر الرجل إلى الأمر لغيره منه أو حمقه، فإما أخَذَه كله أو تركه كله، فرأيت حسناتها وسيئاتها، وفضائلَها ورذائلها، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ، وما يترك التارك، فكان من همى أن أحمل الناس من أمرها على ما أحملُ عليه نفسى، وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء تهالكَهم لها، واستهتارَهم بها، وسقوطهم بين يدى رذائلها ومخازيها، وإلحادها وزندقتها، وشحها وقسوتها، وشرهها وحرصها، وتبذلها وتهتكها، حتى أصبح الرجل الذى لا بأس بعلمه وفهمه، ذا حريةٍ[1] لأمر فى مناظرة بينه وبين من يأخذه برذيلة من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضحُ به عن نفسه إلا أن

---

(1) [illegible]

يعتمد عليها فى الاحتجاج على فعل ما فعل ، أو ترك ما ترك . كأنما هى القانون الالهى الذى تثوب اليه العقول عند اختلاف الأنظار ، واضطراب الأفهام . أو القانونُ المنطق الذى توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيحها وفاسدها . وحتى أصبح السيد فى منزله يستحي الحياء كله من خادم غرفته الأوروبية أن تطلّع منه على جهلٍ ببعض عاداتها وعادات قومها حتى فى لبس الرداء ، وخلع الحذاء ، أكثر مما يستحي من الله ومن الناس أن يَهجُموا منه على أرذل الرذائل . وأكبر الكبائر . وحتى أصبح تاريخُ المشرق وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورةً من أقبح الصور وأسمجها فى نظر كثير من الشرقيين يفخرون بجهله إن جهلوه . ويراءون بجهله ان علموه . وحتى قدر الغلام الرومى خادمُ الخان منفرداً على ما لم تقدر عليه الأمّة جميعها مجتمعة ، فحملها على النزول اليه لتحدثه بلغته .

قبل أن تحمله على الصعود اليها ليحدثها بلغتها ، وهو إلى أن يترضاها ويستدنيها أحوجُ منها إلى أن تترضاه وتزدلف إليه

فذلك ما تراه فى رسائل النظرات منتثراً ههنا وههنا قد شعر به قلبي ففاض به قلمى من حيثُ لا أكذِب الناس عن نفسى ولا أكذِب نفسى عنها

وعندى أن الكاتب المسخَّر الذى لا شأن له إلا أن يكتب ما يفضى به الناسُ اليه صانعٌ غير كاتب . ومترجم غير قائل . لا فرق بينه وبين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ ، كلاهما ينظم ما لا يملك ، ويتصرفُ فيما لا شأن له فيه ، على أن خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن يترك يوم وَداعه هذه الدنيا صفحةً يقرأ فيها الناظرون فى تاريخه من بعده صورة نفسه . ومضطرَب آماله ، ومسرح أحلامه ، فان كان كل شأنه فى حياته أن يكون مِرآة تتقلب فيها مختلفاتُ الصور . أو وفيعة[1] تتمسح بها أعواد

(١) الوفيعة خرقة يمسح بها القلم

الأقلام كان خسرانه عظيما لا يقوم به كل ما يربح الرابحون من مال أو يؤثلون من جاه، والتاريخ أضن من أن يحفظ بين دفتيه من مجد الأدباء إلا مجدَ أولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم، وحياةُ الكاتب بحياة كتابته فى نفوس قرائها، ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل أنه يَكذِبهم عن نفسه وعن نفوسهم وأنه روّاغ متخليج[1] يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غداً، ويَرى فى ساعة ما لا يرى فى أخرى، وأنه يستبكى ولا يبكى، ويسترحمُ ولا يرحم، ويحرك النفوسَ وهو ساكن، ويثير الثائرة وهو سالم، فيستريبون به، ويحارون فى مصادره وموارده، ثم يحملون أمره على شر حاليه، ثم ينقطع ما بينهم وبينه، والبيانُ ليس سلعةً من السلع التى ينتقل بها تجارها من سوق الى سوق، ومن حانوت الى آخر، ولكنه

(١) المتخليج المضطرب فى مشيته

حركةٌ طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارُها عفواً بلا تكلف ولا تعملٍ صدورَ النور عن الشمس، والصدَى عن الصوت. والأريج عن الزهر، وشعاعٌ لامع يشرق فى نفس الأديب إشراق المصباح فى زجاجته. وينبوع ثرّارٌ يتفجر فى صدره ثم يفيض على أسلات قلمه. وهو أمرٌ وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود، ولو أن أمراً من ذلك كان لكان أبرعُ الكتاب وأشعر الشعراء أغزرَهم مادةً فى العلم أو أعلمَهم بقواعد اللغة أو أجمعهم لمتونها أو أحفظهم لفصيح القول ورائعه، أما العلمُ فأكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الأسفار التى نقرؤها فى الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع فى ذلك اثنان. وها قد مرت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرونُ والحقب وأكثرنا عاجز عن فهم أكثر ما كانوا يكتبون. وأما المحفوظاتُ فما نعلم أحداً أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء ولا أحفظ للحديث من الفقهاء ولا أقل

منهم إلماماً بالأدب ولا أبعد عنه مكاناً ، وأما اللغةُ فما عرفنا بين المتقدمين والمتأخرين من رواتها وحفاظها والمتوفرين على تدوينها وتحقيقها والمتقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عُرفت له البراعة والتفوق فى تحبير الرسائل أو قَرْض الشعر أو القوة القلمية فى التصنيف فى غير ما أخذوا أنفسَهم به ، وكان خليل بن أحمد إذا سئل عن نظم الشعر قال يأباني جيدُه وآبى رديئه ، وكان الأصمعى يحفظ ثلثَ اللغة ، وأبو زيد الأنصارى يحفظ نصفها ، وأبو مالك الأعرابى يحفظها كلها ، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبى عبيدة وابن دريد والأزهرى والصاغانى وابن فارس وابن الأثير صاحب النهاية والجوهرى والفيروزبادى وأمثالهم من علماء اللغة والنحو ، وما سمعنا لواحد منهم فى إحدى الصناعتين شيئاً مذكوراً ، وقال أبو العباس المبرد فى بعض أحاديثه : لا أحتاج إلى وصف نفسى ، لعلم الناس بى أنه ليس أحد من الخافقين تختلج فى نفسه مشكلةٌ إلا لقينى بها

وأعدنى لها . فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس لا يخفى علىّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل ، وربما احتجتُ إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة فأجعل المعنى الذى أقصده نُصب عينى ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه يد ولا لسان . ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بجميل فحاولت أن أكتب إليه رُقعة أشكره فيها وأعرض بعض أمورى ، فأتبعت نفسى يوماً فى ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها ، وكنت أحاول الإفصاح عما فى نفسى فينصرف لسانى إلى غيره : اه بل لو شئت لقلت إنه ما أفسد على المتنبى وأبى تمام كثيراً من شعرهما ولا على المعرى كثيراً من منظومه ومنثوره ولا على الحريرى مقاماته ولا على ابن دريد مقصورته إلا غلبةُ اللغة عليهم واستهتارُهم بها وشغفهم بتدوينها فى كل ما يكتبون ، فقد كانوا هم وأمثالهم من حبائس اللغة وأنضائها فى كثير من مواقفهم يؤلفون ويدونون ، من حيث يظنون أنهم

ينظمون أو يكتبون ، ولا تزال نفسى تشتمل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرتُ أن الأدب العربى كان يستطيع أن يكون خيراً مما كان لو أن الله تعالى كتب للزوميات المعرى النجاةَ من قبضة اللغة وأسر الالتزام ، وإنك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هـذا العصر وكتابه الذين يأخذون بزمام المجتمع العربى ويقيمون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية فى شؤونه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة من يعد من حفاظ اللغة العربية وثقاتها ، أو من يَسلم له مقالٌ من مأخذ نحوى أو مَغمز لغوى ، وهم على ذلك أدخلُ فى باب البيان وألصق به وأمسّ به رحما من أولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحفظون دقائقها ويحيطون بمترادفها ومتواردها ويتباصرون بشاذها وغريبها ويحملون فى صدورهم مادقّ وما جلّ من مسائل نحوها وتصريفها ، فاذا عَرَض لهم غرضٌ من الأغراض فى أى شأن من شؤون حياتهم وأرادوا أنفسَهم على الافضاء

به أرتجَ عليهم فأُغلقوا . أو تقعروا وتشدقوا ، فكأنهم لم ينطقوا . والفرق بين الأدباء واللغويين أن الأولين كاتبون ، والآخرين مصححون ، فمثلهما كمثل النساج وعامله ، هذا ينسج الثوب وهذا يلتقط زوائده ويمسح عنه رِئبره[1] أو كمثل الشاعر والعروضى ، هـذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه ، وليس البيان ذَهاب كلمة ومجىء أخرى ، ولا دخول حرف وخروج آخر ، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والماء والرونق واستقامة الغرض وتطبيق المفصل ، والأخذ بمجامع الألباب ، وامتلاك أزمّة الهواء ، فاذا صح ذلك لامرىء فهو الكاتب القدير ، أو الشاعر الجليل ، فان زلت به قدمٌ فى وضع حرف مكان حرف ، أو غلبه على لسانه دخيل ، أو خرج من يده أصيل ، أو كان ممن يفوته العلمُ ببعض قواعد اللغة أو بعض وجوه الاستعمال فيها ، كان ذلك عيباً لاحقاً بعلمه

---

(١) الرئبر ما يظهر من درز الثوب

أو بمحافظته ، لا ببيانه ، وفصاحته ، ومتى صدر القائل في قوله عن سجية وطبع أصبح شأنه شبيهاً بشأن العرب الأولين ، وكان من شأنهم أن يسبقهم في كلامهم الخطأ اللفظي في بعض الأحيان ، وكان السبب في ذلك كما يقول أبو علي الفارسي أنهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ، فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد من حيث لايشعرون ، وكما أن الجسم لايتغير من صورته ، ولا يتبدل من سحنته ، أن تطير منه ذرة وتحل أخرى محلها لتمثلها ، كذلك لايغير صورة الكلام ولا يذهب بنسقه خروج أصيل ، أو دخول دخيل ، ولقد قيل لأحد الكتاب الانكليز نراك كثير الاعجاب بالكاتب « كبلنغ » وهو رجل لحانة لايحفل بقواعد اللغة . فأجاب إن سطرا واحداً مما يكتبه « كبلنغ » أثمن عندي من قوانين اللغة جميعها . وليس من الرأي أن أحرم نفسي التمتع بأدبه إكرماً لسواد عيون

الترماطيق[١] الانكليزى ، وفضل الادباء على اللغة فى سيرورتها وذيوعها وتداولها وخلودها أكبرُ من فضل اللغويين عليها فى ذلك ، لأنهم هم الذين يمهدون سبلها ، ويعبدون[٢] طرقها ، ويستدنون نافرَها ويجمعون شاردها وينظمون لآلئها ، نظم الثاقب لآلئه فى السلك ، فيأخذها الناس عنهم من أخصر الطرق وأقربها ، وأشهاها إلى النفس . وأعلقها بالقلب ، وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة أو يكتسبُ ملكة الاعراب من كتب النحو والتصريف ، وما كانت اللغة عدوة للأدب ، ولا كان عدوا لها ، بل هى أساسه وقوامه الذى يقوم به ، وَلكن المشتغلين بها ، والمتوفرين على دراستها ، والمنقطعين لاستظهارها . والنظر فى دقائقها والتعمق فى أطوائها ، لايزال يغلب عليهم الولعُ بها والفناء فيها ، حتى تُصبح فى نظرهم مقصدا من المقاصد ، لاوسيلة من الوسائل ، وللبيان وسائلُ كثيرة غير وسيلة اللغة ، فمن لا يأخذ نفسه

(١) الترماطيق النحو (٢) يعبدون يذللون ويمهدون

بجميع وسائله لا يصل إليه والتربيةُ العلمية كالتربية الجسمية فكما أن الطفل لا ينمو جسمُه ، ولا ينشط ، ولا تتبسط أعضاؤه ، ولا تنتشر القوةُ فى أعصابه ، إلا إذا نشأ فى لهوه ولعبِه ، وقفزه ووثبِه ، كذلك الكاتبُ لا تنمو ملَكةُ الفصاحةِ فى لسانه ، ولا تأخذُ مكانَها من نفسه ، إلا إذا ملك الحريةَ فى التصرف والافتنان والذّهابِ فى مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيثُ يشاء ، دون أن يُسيطِر عليه فى ذلك مُسيطر إلا طبعُه وسجيته . واللغوىُّ لا يزال يحوط نفسَه بالحذرِ والخوف ، والوساوسِ ، والبلابل ، فان مشى خُيل اليه أنه يمشى على رملة مَيْثاء ، وإن تحرك خيّل إليه أن تحت قدميه حفرةً جوفاء ، حتى يقعدَ به خَوفُه وَوَسواسُه عن الغاية التى يريد الوصولَ إليها ، على أن الكاتب لا يبلغ مرتبةَ الكتابة إلا إذا نظر إلى الألفاظ بالعين التى يجب أن ينظر بها إليها فلم يتجاوزْ بها منزِلَتَها

الطبيعيةَ التى تَنزِلها من المعانى ، وهي أن تكون خدَما لها وخولا ، وأوعيةً وظروفا ، فاذا كَتب تركها وشأنَها وأغفل أمرَها حتى تأتىَ بها المعانى وتقتادَها طائعةً مرغمة ، والمعانى هى جوهرُ الكلامِ ولبُّه . ومِزاجُه وقِوامه ، فما شغل الكاتبُ من همته بغيرها أزرى بها ، حتى تُفلِتَ من يده فيُفلت من يده كلُّ شئ

وبعدُ فالعلمُ والمحفوظات والمقروآت والمادةُ اللغوية ، والقواعد النحوية . إنما هى أعوانُ الكاتبِ على الكتابة ووسائله إليها . فالجاهل لا يكتب شيئا لأنه لا يعرف شيئًا ، ومن لا يضطلعْ بأساليب العرب ومناحيها فى منظومها ومنثورها سرتْ العجمةُ إلى لسانه ، أو غلبته العاميةُ على أمره ، ومن قلّ محفوظُه من المادة اللغوية قصرتْ يدُه عن تناول ما يريد تناولَهُ من المعانى ، ومن جهل قانون اللغة أغمض الأغراضَ وأبهمها ، أو شوه الألفاظَ وهجّنها ، ولكنها ليستْ هى جوهرَ الفصاحةِ ، ولا حقيقةَ البيان ،

فأكثرُ القائمين عليها ، والمضطلعين بها ، لا يكتبون ولا ينظمون، فإن فعلوا كان غاية إحسان المحسن منهم أن يكون كصانع التماثيل الذى يصب فى قالبه تمثالا سويا مُتناسبَ الاعضاء ، مُستوى الخلق ، إلا أنه لا رُوحَ فيه ولا جمال له لأنه ينقصهم بعد ذلك كله أمرٌ هو سِرُ البيان ولُبُّهُ ،وهو الذوقُ النفسىُ والفطرةُ السليمة ، وأنَّى لهم ذلك وما دخلت الفلسفةُ أيا كانَ نوعها على عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدَتْهُ ، وما خالط التكلفُ عملا من أعمال الذوق إلا شوّه وجهَه ، وذهب بحسنهِ ورُوائه

ولقد قرأتُ ما شئت من منثور العرب ، ومنظومها ، فى حاضرها وماضيها ، قراءةَ المتثبت المستبصر ، فرأيت أن الأحاديث ثلاثةٌ ، حديثُ اللسانِ ، وحديث العقل ، وحديث القلب

فأما حديث اللسانِ فهو تلك العباراتُ المنمقةُ ، والجُملُ المزخرفةُ ، أو تلك الكلماتُ الجامدة الجافة التى لا يَعنِي

صاحبَها منها سوى صورتِها اللفظية ، فان كانَ لُغَويا تقعّرَ وتشدَّقَ وتكلَّفَ وأغرب، حتى يأتيك بشئ خيرُ مايصفُه به الواصف أنه مَتْنٌ مشوَّشٌ من متون اللغة لا فصولَ له ولا أبواب ، وإن كان بديعياً جنّسَ ورصّعَ وقابلَ ووشّعَ وزواجَ وافتنّ فى الاتيان بالكلمة مهملةً كلها أو معجمة كلها . أو زاوجَ بين الإهمال والإعجام ، فيَخيَل إليك وأنت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يَصنعُه بيديه صنعا ، أو يصنعه تصنيعا . ثم لا يبالى بعد ذلك باستقامة المعنى فى ذاته ولا بمقدار ماله من الأثر فى نفس السامع ، وهذا الحديثُ هو أسقطُ الأحاديث الثلاثة وأدناها وأجدرُها أن ينظمه الناظمُ فى سلك الصناعات اليدويةِ التى لا دخلَ للعقل ولا للفهم فى شىء منها ، وأن يَنظم صاحبَها فى سلك جماعة المحللين الذين لا شأن لهم إلا تحليل المواد وتركيبُها ، وجمعها وتفريقها ، والمزاوجةُ بين مقاديرها ، والموازنة بين أثقالها ، من حيثُ لا يكون لقوة

التصورِ ولا لذكاء القلب دخلٌ في هذا أو ذاك

وأما حديثُ العقل فهو تلك المعاني التي ينحتها الناحتون من أذهانهم نحتاً، ويقتطعونها منها اقتطاعاً، ويذهبون فيها مذهبَ المغالاةِ والتحدي والتعمق والإغراب ويسمونها تارة تخييلا، وأخرى غُلوّاً، وأخرى حُسْنَ تعليل. إلى كثير من أمثال هـذه الأسماء والألقاب، التي تتفرقُ ما تتفرق ثم يجمعُها شيء واحد، هو الكذب والاحالة، وآية ما بينك وبينها أنك إذا رأيتَها شعرتَ بأنك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك وعن نفس صاحبه وعن نفوس الناس جميعاً، وأن صاحبه لا يريد منه إلا أن يُطرِفَك أو يُضحكك أو يعجّبك من ذكائه وفطنتِه، واقتداره على تصوير ما لا يتصور، وإيجادِ ما لا يكون، وهو أمر لا علاقةَ له بجوهرِ الشعر، ولا حقيقةِ الكتابة، وربما انعكس عليه حتى غرضه هـذا فتفزّك وأكدّك، وملأ قلبَك غيظاً وقبحاً كأن يقول:

لو لم تكن نيةُ الجوزاء خدمتَه

لما رأيت عليها عقدَ منتطق

فان الجوزاء لا تنتطق ، ولو كان هـذا الذى نراه يستدير بها نطاقاً فهو شيء متصلٌ بها قبل أن يخلق الممدوح ويخلق آباؤه الأولون إلى آدمَ وحوَّاء ، والكواكبُ ليست أشخاصاً أحياء، يتخِذُ منه الناسُ خَدَماً وخولا لأنفسهم . ولو كانت كذلك لاستحال عليها وهى من سكان السماء أن تهبطَ إلى الأرض لِتخدمَ سكانَها . فقد كذِب وأحال أربع مرات فى بيت واحد ، ثم عجز بعد هذا كلِّه أن يترك فى نفس السامع صورةً تمثل جلالَ ممدوحِه ، وعِظَمَ شأنه ؛ فهو فى الحقيقة إنما يريد بيته هذا أن يمتدح نفسَه بالابداعِ وقوةِ التخيل ، لا أن يمتدح ممدوحَه برِفعة الشأن وعُلوِّ المقام

أو يقول : —

مابه قتل أعاديه ولـكنْ　　　يتقى إخلافَ ماترجُو الذئاب

فان الذى يحمل فى صدره قلباً رحيماً مشفقاً على الذئاب من الجوع مستعظماً أن يخلفها ما عودها إياه من طعام وشراب لايمكن أن يكون هو نفسُه ذئباً ضارياً يريقُ دماءَ الناس ويمزّق أحشاءهم ويقطع أوصالهم ، ليملأ بها بطونَ الوحش ، ولا يوجد بين الأسباب التى تحمل الناس على القتال سببٌ يشبه هذا السببَ الذى ذكره ؛ على أن المحسنُ لا يكونُ محسناً إلا إذا وهب ما يهبُ من ماله ومن خزائن بيته ، فأما أن يقتّل الناس تقتيلا ويمثلَ بهم ثم يُنعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الأرض وذئابها فذلك شىء هو بالجنون أشبهُ منه بالاحسان

أو يقول : —

لايذوقُ الأغفاء إلا رجاء
أن يرى طيفَ مستميح رواحا

فانّ النومَ قِوامُ الانسان وعمادُ حياته ، ولازمٌ من لوازمه اللاصقة به ، أراد ذلك أم لم يُرد ، فان كان لا بدّ من

دخوله فى باب الاختيار فان من أبعد الأشياء عن التصور والفهم أن يكون ما يحمل الانسانَ على طلب النوم رجاؤه أن يرى فيه الأحلام والرُؤَى ، فان فعل فلا يدخلُ فى باب أغراضهِ وأمانيـه أن ينام ليرى خيالَ جماعة المتسولين والمتأكلين وهم ملء الأرض وهباء الجو ؛ وأرصادالأعتاب وأعقابُ الأبواب ، لاتنفتحُ الأعين إلا عليهم ؛ ولا تمتلىء الانظارُ إلا بهم ، فهم لم يبلغوا فى الضن بأنفسهم والعزْفِ بها مبلغ من لايراه الرائى ولا يعثر به إلا إذا ألقى فى طريقه حبائلَ الاحلام ليصطاده بها

أو يقول : —

لم يتخذْ ولداً إلاّ مُبالـغةً

فى صدق توحيدمن لم يتخذولدا

فان الاولاد لا يتخذون اتخاذاً ، وإنما يُنعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعامًا ، وأكثرُ ماتقذِفُ به الأرحامُ من النسمات إنما هى ثمراتُ الحبِّ يأتى بهاعفوا ، لانبتةمن

نبات الأرض يبذرُ الزراعُ بذورَها ليستنبتهَا ، والله تعالى غنيٌّ بربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنُطْفة يَقذِفها قاذفُها فى بعض الأرحام ، فإن كان لا بدّ فى إثبات رُبوبيته من دليل يَدُلُّ على مخالفته للحوادث فى الصفات والأفعال فالأدلةُ على ذلك كثيرة لا يَضبطُها الحسابُ كثرة، وربما كان أهونها وأضعفها أنه لا يتخذ ولداً وأنهم يتخذون، على أن المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطنُ الأرض وظهرُها ، فالمسألةُ مفروغٌ منها قبل أن يَخلق هذا الممدوحَ ويخلقَ ولدَهُ فلا فضل له فى الإتيان بشىء جديد

أو يقول : —

وما ريحُ الرياض لها ولكن كساها دَفنُهُم فى التُّرب طيبا

فإن الأزهار التى تستمدُّ حياتَها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن أن تكون طيبةَ الريح ، على أن الأزهار مُريحةٌ قبل أن يُدفن هؤلاء الموتى فى قبورهم ، فلم يزد فى كلمته هذه على أن أتى بخيال ضعيف مُبتذَل هو أشبهُ

الأشياء بخيال العامة الذين يرون أن بعض الأزهار ما خُلق إلا إكراماً لبعض النبيين

أو يقول : —

تُتلف في اليوم بالهبات وفي الساعة ما تجتنيه في سنتك

فقد أراد أن يصف ممدوحه بالكرم وصفا فوق ما يصفُ الناس ويأتى فى ذلك بما لم يأت به غيرُه فأنزله منزلة مجانينِ المُسرفين الذين لا يُحسنون الموازنة بين أدخلهم ونفقاتهم ، ولو تقدمتْ هذه التهمةُ بهذه الصورة إلى قاض من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه ، والقضاة يرصون فى مثل هذه الأحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها فى ساعة واحدة أو يوم واحد

أو يقول : —

ولما ضاق بطنُ الأرض عن أن يضمّ عُلاك من بعد الممات

أصارّوا الجوّ قبرَك واستعاضُوا
عن الأكفان ثوبَ السافيات

فإن شيئاً من ذلك لم يكن. فالقبرُ لا يَضيق بأحد، والجو لا يكونُ قبراً، والريحُ ليست كَفَناً، والرجلُ لا يزال مصلوباً غيرَ مقبور، ولا يزال عارياً غير مُدرج في كفن

وأما حديثُ القلب فهو ذلك المنثورُ أو المنظوم الذي تسمعهُ فتشعر أن صاحبه قد جلس إلى جانبك ليتحدث إليك كما يتحدثُ الجليسُ إلى جليسه، أو ليُصوِّر لك مالا تعرف من مَشاهدِ الكَون، أو سَرائر القلوب، أو ليُفضيَ إليك بغرض من أغراض نفسه، أو لينفّسَ عنك كربةً من كرب نفسك، أو ليوافق رغبتك في الافصاح عن معنًى من المعاني الدقيقةِ التي تختلج في صدرك ثم يَتَكاءدكَ الإفصاحُ عنها، من حيثُ يكون للصناعة اللفظيةِ، ولا الفلسفةِ الذهنية، دخلٌ في هذا أو ذاك، حتى ترى حجابَ اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يخفى كما تخفى الكأسُ الصافيةُ دون ما تشتمل عليه من الخمر، فاذا الخمر قائمةٌ بغير إناء، أو كما تخفى صفحةُ المرآة الصقيلة بين يدى الناظر فيها، فلا يرى

إلا صورتَه ماثلةً بين يديه ، ولا لَوحَ هناك ولا زجاج ، وهو أرق الأحاديث الثلاثة وأشرفُها ، وهو الذى يريده المريدون مهما اختلفتْ عباراتُهم ، وتنوعت أساليبهم ، من كلمة البيان

ولقد كان من أكبر ما أعانني على أمرى فى كتابة تلك الكلمات أشياءُ أربعةٌ أنا ذاكرها لعل المتأدبَ يجدُ فى شىء منها ما ينتفعُ به فى أدبه

«أولها» أنى ما كنت أحفلُ من بين تلك الأحاديثِ الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل ، أى أنى ما كنت أتكلفُ لفظاً غير اللفظ الذى يقتادُه المعنى ويتطلبُهُ ، ولا أفتشُ عن معنى غيرِ المعنى الطبيعى القائِم فى نفسى ، بل كنتُ أُحدّث الناس بقلمى كما أُحدثُهم بلسانى ، فاذا جلستُ إلى منضدتى خيل إلى أن بين يدىّ رجلا من عامة الناس مُقبلا علىّ بوجهه ، وأن من ألذ الأشياء وأشهاها إلى نفسى ألاّ أتركَ صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطرى حتى أُفضىَ

به إليه ، فلا أزال ألتمسُ الحيلةَ إلى ذلك ولا أزال أتأتى إليه بجميع الوسائل وألح في ذلك إلحاحَ المشفق المجد حتى أظنَّ أني قد بلغتُ من ذلك ما أريد ، فلا أُقيِّدُ نفسي بوضع مقدمة الموضوع في أوله ، ولا سَرْدِ البراهينِ على الصورة المنطقيةِ المعروفة ، ولا التزامِ استعمال الكلمات الفنية التزاماً مُطَّرداً إبقاءً على نشاطه وإجماحه ، وإشفاقاً عليه أن يَمَلَّ ويسأم فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به

« وثانيها » أني ما كنتُ أحمل نفسي على الكتابة حملا ، ولا أجلس إلى منضدتي مُطرِقاً مفكراً . ماذا أكتبُ اليوم : وأي الموضوعات أعجبُ وأغرب، وألذ وأشوق، وأيها أعلقُ بالنفوس ، وألصقُ بالقلوب ، بل كنتُ أرى فأفكرُ فأكتبُ فأنشرُ ما أكتبُ فأرضي الناس مرة وأسخِطُهم أخرى من حيثُ لا أتعمدُ سُخْطَهم ولا أتطلب رضاهم

« وثالثها » أني ما كنتُ أكتبُ حقيقةً غيرَمَشُوبة بخيال ، ولا خيالا غير مُرتكز على حقيقة ، لأني كنت

أعلم أن الحقيقةَ المجردة عن الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذاً ، ولا تترك فى قلبه أثراً ، وأحسَب أن السببَ فى ذلك أن أكثر ما تشتمل عليه النفوسُ من العقائدِ والمذاهبِ ، والآراء والأخلاق ، والخواطر والتصورات ، إنما هو أثرٌ من آثار الخيالات الذهنية التى تتراءى فى سماء الفكر ، ثم لا تزال بها الأيامُ تكسوها طبقةً بعد طبقة من غُبار القِدم حتى تُصبحَ حقيقة من حقائق ثابتة فى الأذهان ، وكما أن الحديد لا يفلّ إلا الحديد ، واللونَ لا يذهب به إلا لونٌ غيرُه ، كذلك الخيالُ لا يذهب ولا يزعجه من مكانه إلا الخيال ، وللخيالِ الأثرُ الأعظم فى تكوين هذا المجتمع الانسانى وتكييفه على الصورة التى يريدها ، فلولا خيال الشعر ما هاج الوجْدُ فى قلب العاشقِ ، ولولا خيالُ الشرفِ ما هلك الجندىُّ فى ساحة الحرب . ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات ، ولا ابتدعت المبتدعات . ولولا خيالُ الرحمة ما عطف غنىٌّ على فقير ، ولا حنا كبيرٌ على صغيرٌ ، كما كنت

أعلم أن الخيالَ غيرَ المرتكز على الحقيقة إنما هو هبوةٌ طائرةٌ من هبوات الجوّ لا تهبطُ أرضاً، ولا تصعد إلى سماء

«ورابعها» أنى كنتُ أكتب للناس لا لِأُعجبَهُم، بل لِأَنفعَهم، ولا لأسمع منهم أنتَ أحسنت، بل لأجد فى نفوسهم أثراً مما كتبت، والناسُ كما قلتُ فى بعض رسائلى خاصةٌ وعامةٌ: أما خاصتُهم فلا شأنَ لى معهم، ولا علاقةَ لى بهم، ولادخل لكلمةٍ من كلماتى فى شأن من شؤونهم، فلا أفرح برضاهم، ولا أجزَع لسخطهم، لأنى لم أكتبْ لهم، ولم أتحدث معهم، ولم أشهدهم أمرى، ولم أحضرهم عملى، بل أنا أتجنب جهد المستطاع أن أستمع منهم شيئاً مما يتعلق بى من خير أو شر، لأنى راضٍ عن فطرتى وسَجيتى فى اللغة التى أكتبُ بها فلا أحب أن يكدّرها علىّ مُكدّرٌ، وعن آرائى ومذاهبي التى أُودعها رسائلى فلا أحب أن يُشككنى فيها مشكك، ولا يَهبنى الله من قوة الفراسة ما أستطيع به أن أميز بين مخلصهم ومَشوبهم، فأُصغىَ إلى الاول لأستفيدَ علمَه، وأُعرض عن الثانى لأتقى غشَّه،

فأنا أسير بينهم مسيرَ رجلٍ بدأ يقطعُ مَرْحلةً لا بدّ له أن يفرغَ منها فى ساعة مُعينة ، ثم علم أن على يمين الطريق التى يسلكُها روضةً تعتنق أغصانُهَا ، وتشتجر أفنانها ، وأن على يَسارِه غابا تزأرُ أسودُه ، وتعوِى ذئابه ، وتفِحّ أفاعيه وصلالُه ، فمضى قُدُماً لا يلتفت يَمْنَةً مخافة أن يلهو عن غايته بشهواتِ سمعِه وبصره ، ولاَ يسرةً مخافةَ أن يهيج بنظراته فضولَ تلك السباعِ المقعِية والصِلال الناشرة ، فتعترض طريقه ، وأمّا عامتُهم فهم بين ذكى قد وهبه اللهُ من سلامة الفِطرة ، وصفاء القلب ، وسلاسة الوجدان ، ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه ، فأنا أحمَدُ الله فى أمره ، وضعيفٍ قد حيل بينه وبين نفسه ، فهو لا يرضى إلا عما يُعجبُه ، ولا يسمع إلا ما يُطربه ، فأكِلُ أمرَه إلى الله تعالى ، وأستلهمُه صواب الرأى فيه ، حتى يجعلَ الله له من بعد عُسرٍ يسْراً ؟

مصطفى لطفى

المنفلوطى

الغد

عرفتُ أنى فكرتُ ليلة أمس فيما أكتبُ اليوم ، وعرفتُ أنى آخذُ الساعةَ بقلمى بين أناملى ، وأن بين يدىّ صحيفة بيضاء تسودُّ قليلا قليلا كلما أجريتُ القلم فيها ، ولكنى لا أعلم هل يبلغ القلمُ مداه أو يكبو[١] دون غايته ، وهل أستطيع أن أتمم رسالتى هذه ، أو يعترضَ عارضٌ من عوارض الدهر فى سبيلها ، لأنى لا أعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولأن المستقبلَ بيد الله

عرفتُ أنى لبستُ أثوابى فى الصباح ، وأنى لا أزال ألبَسُها حتى الآن ، ولكنى لا أعلم هل أخلَعها بيدى أو تخلعها يد الغاسل

الغد شبَحٌ مبهمٌ يتراءى للناظر من مكان بعيد ، فربما

---

(١) كما سقط على وجهه.

كان مَلَكا رحيما ، وربما كان شيطانًا رجيما ، بل ربما كان سحابةً سوداء إذا هبّتْ عليها ريحٌ باردة حَللتْ أجزاءها ، وبعثرِت ذَرّاتها ، فأصبحتْ كأنما هي عدمٌ من الأعدام التي لم يَسبقْها وجود

الغد بحرٍ خِضمٌّ زاخر يَعُبُّ عُبابه[1] ، وتصطخب أمواجه ، فما يُدريك إن كان يحمل فى جوفه الدّر والجوهر ، أو الموتَ الأحمر

لقد غمض الغدُ عن العقول ، ودق شخصُه عن الانظار حتى لو أن إنسانًا رفع قدمهُ ليضعَها فى خروجه من باب قصره لايدرى أيضعُها على عتبة القصر ، أم على حافة القبر

الغد صدرٌ مملوء بالأسرار الغِزار ، تحوم حوله البصائر ، وتَتسقّطه[2] العقول ، وتستدرجُه الأنظار ، فلا يبوح بسرّ من أسراره إلا إذا جادت الصخرةُ بالماء الزُّلال

كأنى بالغد وهو كامنٌ فى مكمنِه ، رابض فى مَجثمه[3] .

---

(١) يعب عبابه يرتفع موجه (٢) تسقط الخبر اخذه شيئا فشيئا (٣) مجثم الطائر موضع جثومه أى لبده بالارض

متلفعٌ بفضل إزاره ، ينظرُ إلى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسُّخرية ، ويبتسمُ ابتسامات الاستخفاف والازدراء ، يقول فى نفسه لو علم هذا الجامعُ أنه يجمعُ للوارثِ ، وهذا البانى أنه يبنى للخراب ، وهذا الوالد أنه يلد للموت ، ما جمع الجامعُ ، ولا بنى البانى ، ولا ولد الوالد))

ذلل الانسانُ كلَّ عقبة فى هذا العالم ، فاتخذ نفقاً فى الأرض ، وصعد بسلّم إلى السماء ، وعقَد مابين المشرِق والمغرب بأسباب(١) من حديد ، وخيوط من نُحاس ، وانتقل بعقله إلى العالم العُلوى فعاش فى كواكبه ، وعرف أغوارَها وأنجادَها وسهولَها وبِطاحِها ، وعامرها وغامرها ورَطْبها ويابسَها ، ووضع المقاييسَ لمعرفة أبعاد النجوم ، ومسافات الأشعة ، والموازينَ لوزن كرة الأرض إجمالا وتفصيلا ، وغاص فى البحار فعرف أعماقها ، وفحص تربْتَها وأزعج سكانها ، ونبش دفائنها ، وسلبها كنوزَها ، وغلبها على لآلئها

(١) الاسباب الحبال وكل ما يوصل بين الشيئين

وجواهرها ، ونفذ من بين الاحجار والآكام إلى القرون الخالية ، فرأى أصحابها وعرف كيف يعيشون ، وأين يسكنون . وماذا يأكلون ويشربون ، وتسرّب من منافذ الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة ، فعرف النفوس وطبائعها ، والعقول ومذاهبها ، والمدارك ومراكزها ، حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى ، واخترق بذكائه كل حجاب ، وفتح كل باب . لكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهورا لا يجرُؤُ على فتحه ، بل لا يجسر على قرْعه ، لأنه بابُ الله ، والله لا يُطّلع على غيبه أحدا

أيها الشبحُ الملثّمُ بلثام الغيب ، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلا لنرى صَفْحة[١] واحدة من صفحات وجهك المقنّع ، أوْلا ، فاقتربْ منا قليلا علّنا نستطيع أن نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا ، فقد طارت قلوبنا شوقا إليك ، وذابتْ أكبادُنا وجداً عليك

(١) صفحة الشيء جانبه

أيها الغدُ ، إن لنا آمالا كِبارا وصغارا ، وأمانيَ حِسانا وغيرَ حسان ، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبّرنا عن أمانينا ماذا صنعتَ بها ، أأذلتها واحتقرتها ، أم كنتَ لها من المكرمين ؟ ؟

لا لا . صن سرّك في صدرك ، وأبقِ لثامَك على وجهك ، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وأمانينا ، حتى لا تفجعنا فيها فتفجعنا في أرواحنا ونفوسنا ، فانما نحن أحياء بالآمال وإن كانت باطلةً ، وسعداء بالأماني وإن كانت كاذبة :

وليستْ حياةُ المرء إلا أمانيا

إذا هي ضاعتْ فالحياةُ على الأثر

الكأس الأولى

كان لي صديقٌ أُحبه وأحب منه سلامةَ قلبِه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه في حالي بُعدِه وقربِه، وغضبه وحلمه، وسخطِه ورضاه، ففرّق الدهرُ بيني وبينه فراقَ حياةٍ لا فراق ممات، فأنا اليومَ أبكيه حياً أكثر مما كنتُ أبكيه لو كان ميتاً، بل أنا لا أبكي إلا حياته، ولا أتمنى إلا مماته، فهل سمعتَ بأعجب من هذه الخَلةِ الغريبة في طبائع النفوس

علقتْ حبالي بحباله حِقبةً من الزمان عرَفتُه فيها وعرفني. ثم سلك سبيلا غيرَ سبيلِه فأنكرتُه وأنكرَني حتى ما أمرُّ بباله. لأن الكأس التي عَلِقَ بها لم تدعْ في قلبه فراغا يسعُ غيرَها وغيرَ العالقين بها. وربما كان يدفعني عن مُخيلته دفعاً إذا تراءيتُ فيها. لأنه إذا ذكرني ذكر معي

تلك الكلمات المرة التي كنت ألقاه بها في فاتحة حياته الجديدة، وما كان له وهو يهيم في فضاء سعادته التي يتخيلها أن يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئاً، لأن حياة المدمنين حياة متشابهة متماثلة، لا فرق بين صبحها ومسائها وأمسها وغدها، ذهاب إلى الحانات فشراب، فخمار[1] فنوم فذهاب، كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن، حتى أن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها، وكان أحرى أن يوقظه دورانها

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلا من قلبي إلا بعد أن سكنت دورته، وهدأت حركته فلم أعد أراه مربدا في الحانات، ولا مطرحا في مدارج الطرق، ولا معتقلا في أيدي الشرط[2] هنالك أسألت عنه فقيل لي إنه مريض،

(١) الخمار صداع الشراب (٢) الشرط أعوان الامير ومفرده شرطى بضم الشين وسكون الراء

فلم أعجبْ لشيء كنتُ أعدّ له الأيام والأعوام ، كما يَعد الفلكي الساعات والدقائقَ لكسوف الشمس واصطدام الكواكب

دخلتُ عليه أعودُه فلم أجد عنده طبيبا ولا عائداً ، لأنه فقير ، والأطباء يظهرونَ الرحمةَ بالفقراء ، ويبطنون حُبّ الصفراء والبيضاء ، والاصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر ، فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير

دخلتْ منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبَه ، لأني لم أجد فيه ذلك الرُّوحَ العالىَ الذى كان يُرفرف بأجنحته فى غُرَفه وقاعاته ، ولم أر دُخَانَ المطبخ ، ولم أسمع ضوضاء الخدم ، ولا بكاء الأطفالِ ، ولا رنينَ الأجراس ، فكأنى دخلت القبر أزور الميت ، لا المنزلَ أعودُ الحيّ

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كِلّتَه الباليةَ عن خيال لم يبق منه إلا إهابٌ[1] لاصقٌ بعظمٍ ناحل ،

(١) لاهب جلد

فقلتُ أيها الخيالُ الشاخصُ ببصره إلى السماء ، قد كان لى فى إهابك هذا صديقٌ محبوب فهل لك أن تدلّنى عليه ؟ فبعدَ لأيٍ مّا[١] حرّك شفتيه وقال : هل أسمعُ صوتَ فلان ؟ قلتْ نعم مِمّ تشكو ؟ فزفر زَفرة كادتْ تتساقط لها أضلاعُهُ وأجاب : أشكو الكأسَ الأولى ، قلتُ أىَّ كأسٍ تريد ؟ قال أريدُ الكاس التى أودعتُها مالى وعقلى وصحتى وشرفى وهأنذا اليوم أُودعها حياتى ، قلتُ قد كنتُ نصحتُكَ ووعظتُكَ ، وأنذرتك بهذا المصير لذى صرتَ إليه فما أجديتُ عليك شيئًا ، قال ما كنتَ تعلم حين نصحتَنى من غوائلِ هذا العيش النّكد أكثرَ مما أعلمُ ، ولكننى كنتُ شربتُ الكأسَ الأولى فخرج الأمر من يدى

كلّ كأس شربتُها جنتْها علىّ الكأسُ الأولى ، أماهى

---

(١) يقال فعله بعد لأى أى بعد ابطاء وما رآه

فلم يجنها عليّ غيرُ ضعفٍ وقصورِ عقلي عن إدراك خداع الأصدقاء والخلطاء

لم تكن شهوةُ الشرابِ مركبةً في الإنسان كبقية الشهوات فيعذر في الانقياد إليها كما يعذر في الانقياد إلى غيرها من الشهوات الغريزية ، فلا سلطان لها عليه إلا بعد أن يتناولَ الكأسَ الأولى ، فلِمَ يتناولها ؟ يتناولها لأن الخونةَ الكاذبين من خُلّانِهِ وعُشَرائه خدعوه عن نفسه في أمرها ليستكملوا بانضمامه إليهم لذتَهم التي لا تتمُّ إلا بقِراع الكؤوس وصوضاء الاجتماع ، ولو علمتَ كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه ، وأيّةَ ذريعة يتذرّعوا بها إلى ذلك لتحققت أنه أبلهٌ إلى النهاية من البلاهة، وضعيفٌ إلى الغاية التي ليس وراءها غاية

أنا ذلك الأبلهُ وذلك الضعيف ، فاسمع كيف خدعني الأصدقاء، وزينوا لي ما يُزَيّنه الشيطان للانسان

قالوا إن حياتك حياةُ هموم وأكدار ، ولا دواء لهذه

الأدواء إلا الشراب، وقالوا إن الشراب يزيد فى رونق الجسم ويبعث نشاطه، وإنه يفتق اللسان، ويعلم الانسان البيان، وإنه يشجع الجبان، ويبعث فى القلب الجرأة والاقدام، هذا ما سمعته فصدقته وخدعت به.

صدقت أن فى الشراب أربع مزايا، السعادة والصحة والفصاحة والاقدام، فوجدت فيه أربع رزايا، الفقر والمرض والسقوط والجنون

غرّهم من الصحة ذلك اللون الأحمر الذى يتركه الشراب، وراءه فى الأعضاء، وهو يتغلغل فى الأحشاء، ومن الفصاحة الهذر والهذيان، وهُجر[1] القول وبذاءة اللسان، ومن الاقدام العربدة التى لا تسكن إلا فى غرفة السجن، ومن السعادة اللحظات القليلة التى يغشّى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هى فتنعكس فى نظره الحقائق حتى يتخيل الشّم طرفه[2]

(١) الهجر الفحش (٢) الطرفة الملحة المستحسنة

والصفع تحية ، فيُضحِكه من ذلك ما يضحك الأطفال والممرورين(١)

أىّ سرور لمن يعيش فى منزل لا يزور الابتسامُ ثغراً من ثغور ساكنيه ، أىّ سرور لمن يودعه أهلُه كل يوم فى صباحه بالحسرات ، ويستقبلونه فى مسائه بالزفرات ، أىّ سعادة لمن يمشى دائماً فى طريقه متلويا متخلّجاً(٢) يتسرب فى المنعطفات والأزقة ، ويلوذ بأذيال(٣) الجدُر والأسوار ، فراراً من نظرات الجزّار ، وتهكمات العطار ، وصرخات الخمار

ولقد كنت أرى هؤلاء الاشقياء فى فاتحة حياتى التعسة فكان يمرّ بخاطرى ما يمرّ بخاطر أمثالى من أنهم قتلى الإدمان لا قتلى الشراب ، وكنت أقدّر لنفسى القصدَ فيه إن قدّرت لى فى أمره شىء حتى لا أبلغ مبلغهم ، ولا أنزلَ منزلتهم ، فاما شربت أخطأ العدّ وضاع الحساب ، وفسد

---

(١) [illegible] الذى ذهب [illegible] وطلق على المخمور (٢) متثنيا (٣) لود الجدار [illegible] جمع جدار

التدبير ، واختلفَ التقدير وغُلِبتُ على أمرى كما يُغلب على أمره كلُّ مخدوعٍ بمثل ما خدعت به ، ولولا الكأسُ الأولى ما هلكتُ ، ولا شكوتُ الذى شكوت ، ولولاها ما عافني الأصدقاء ، ولا زهد فيّ الأقرباء ، فكن أنت وحدك صديق السراء والضراء ،

فعاهدتُه على ذلك ثم تركتُه في حالةٍ

تصِمُّ السميعَ وتُعمِى البصير ويُسألُ من مثلها العافية

الدفين الصغير

الآن نفضتُ يدىَ من تراب قبرك يا بُنىّ وعُدت إلى منزلى كما يعود القائد المنكسرُ من ساحةِ الحرب لا أملك إلا دمعةً لا أستطيعُ إرسالها ، وزفرةً لا أستطيع تصعيدَها

ذلك لأن الله الذى كتب لى فى لَوح مقاديره هذا الشقاء فى أمرك فرزقنى بك قبل أن أسأله إياك ، ثم استلبَنيك قبل أن أستعفيَه منك ، قد أراد أن يُتمم قضاءه فىّ ، وأن يجرّعنى الكأسَ حتى ثمالتها ، فحرمنى حتى دمعةً أُرسلها ، أو زَفرةً أصعدها ، حتى لا أجِدَ فى هذه ولا تلك ما أتفرّجُ به مما أنا فيه، فله الحمدُ راضياً وغاضباً ، وله الثناء مُنعِماً وسالباً ، وله منى ما يشاء من الرضا بقضائه والصبر على بلائه

رأيتك يا بنيّ في فراشك عليلا فجزعت ، ثم خفت عليك الموتَ ففزعت ، وكأنما كان يخيَّل إليّ أن الموت والحياة شأن من شؤون الناس وعملٌ من الأعمال التي تملكها أيديهم ، فاستشرتُ الطبيبَ في أمرك فكتب لي الدواء ، ووعدني بالشفاء ، فجلستُ بجانبك أصبُّ في فمك ذلك السائلَ الأصفر قطرةً قطرة ، والقدر ينتزعُ من بين جنبيك الحياة قطعةً قطعة ، حتى نظرتُ فإذا أنت بين يديّ جثةٌ باردةٌ لا حَراك بها ، وإذا قارورةُ الدواء لا تزال في يدي ، فعلمتُ أني قد ثكلتك وأن الأمرَ أمرُ القضاء ، لا أمر الدواء

سأنام يا بُنيّ بعد قليل على فراش مثل فراشك ، وسيعالج مني المقدارُ ما عالج منك ، وأحسَب أن آخرَ ما سيبقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شؤون الحياة وأطوارِها ، وخطوبها وأحداثها ، هو الندمُ العظيم الذي لا أزال أكابد ألمه على تلك الجُرَع المريرةِ التي كنت

أجرّعك إياها بيدى وأنت تجود بنفسك فيربدُّ وجهك، وتختلج أعضاؤك، وتدمع عيناك، ومالك يدٌ فتستطيع أن تمدّها إلىّ لتدفعنى عنك، ولا لسانٌ فتستطيع أن تشكوَ إلىّ مرارةَ ما تذوق

لقد كان خيراً لى ولك يا بنىّ أن أكِلَ إلى الله أمرَك فى شفائك ومرضك، وحياتك وموتك، وألاّ يكون آخرُ عهدك بى يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلامَ التى كنت أجشمك إياها، فقد أصبحتُ أعتقد أنى كنت عوناً للقضاء عليك، وأن كأس المنية التى كان يحملها لك القدرُ فى يده لم تكن أمرّ مذاقاً فى فمك من قارورة الدواء التى كنت أحملها لك فى يدى

ما أسمجَ وجهَ الحياةِ من بعدك يا بنىّ، وما أقبحَ صورةَ هذه الكائنات فى نظرى، وما أشدّ ظلمةَ البيت الذى أسكنه بعد فراقك إياه، فلقد كنتَ تطلع فى أرجائه شمساً مشرقةً تضىء لى كلّ شىء فيه، أما اليوم فلا ترى

عيني مما حولى أكثر مما ترى عينُك الآن فى ظلمات قبرك

بكى الباكون والباكياتُ عليك ماشاءوا ، وتفجعوا ما تفجعوا ، حتى إذا استنفدوا ماء شؤونهم ، وضَعُفَتْ قواهم عن احتمال أكثر مما احتملوا ، لجئوا إلى مضاجعهم فسكنوا إليها ، ولم يبق ساهراً فى ظلمة هذا الليلِ وسكونه غيرُ عينين قريحتين ، عين أبيك الثاكل المِسكين ، وعين أخرى أنت تعلمُها

لقد طال علىّ الليلُ حتى مللتُه ، ولكنى لا أسأل الله أن ينفرجَ لى سوادُه عن بياض النهار ، لأن الفجيعةَ التى فجعتُها بفقدك لم تُبقِ بين جنبىّ بقيةً أقوى بها على رؤية أثرٍ من آثار حياتك ، فليت الليل باقٍ حتى لا أرى وجهَ النهار ، بل ليت النهار يأتى ، فقد مللت هذا الظلام .

دفنتُك اليوم يا بنىّ ودفنتُ أخاك من قبلك ، ودفنت

من قبلكما أخويكما ، فأنا فى كل يوم أستقبلُ زائراً جديداً ، وأُوَدّع ضيفاً راحلا ، فيالله لقلب قد لاقى فوق ما تُلاقى القلوب ، واحتملَ فوق ما تحتملُ من فوادح الخطوب

لقد افتلذ كلٌّ منكم يا بَنىّ من كبدى فلذةً فأصبحتْ هذه الكبدُ الحرقاء مِزقاً مبعثرةً فى زوايا القبور ، ولم يبقَ لى منها إلا ذِماء قليل لا أحسبَه باقياً على الدهر ، ولا أحسبُ الدهرَ تاركه دون أن يذهبَ به كما ذهب بأخوانه من قبل

لماذا ذهبتم يا بَنىّ بعد ما جئتم ؟ ولماذا جئتم إن كنتم تعلمون أنكم لاتقيمون ؟

لولا مجيئكم ما أسِفتُ على خلوّ يدى منكم ، لأننى ما تعودتْ أن تمتد عينى إلى ما ليس فى يدى ، ولو أنكم بقيتم بعد ما جئتم ما تجرعتْ هذه الكأسَ المريرةَ فى سبيلكم

لقد كنتْ أرضى من الدهر فى أمركم أن يتزحزح لى

عن طريق التى أسيرُ فيها ، وأن يزوىَ وجهَه عنى فلا أراه ولا يرانى ، ولا يُحسن إلىّ ولا يُسىء ، ولا يتقدم إلىَّ بخير ولا شر ، ولا يتراءى لى مبتسما ولا مقطباً ، ولا ضاحكا ولا باكياً ، لو أنه رضى منى بذلك ، ولكنه كان أذكى قلباً ، وأنفذَ بصراً من أن يفوتَهُ العلم بأننى ما كنتُ أبكى على النعمة لو لم تكن فى يدى ، وما كنتْ أجدُ مرارة فقدانها ، لو لم أذقْ حلاوة وجدانها ، وكان لابدّ له أن يُجرِى فىّ سنةَ الشقاء التى أخذ على نفسه أن يجريها فى الناس جميعاً فلما عجزَ عن أن يدخل إلىّ من باب الطمع دخل إلىّ من باب الأمل ، فهو يمنحنى المنحة فأغتبِطُ بها حِقبةً من الدهر حتى إذا علم أن بذرة الأمل التى غرسها فى نفسى قد نمتْ وأزهرتْ ، وأننى قد استعذبْتُ طعمها واستطبتُ مذاقها ، كرّ علىّ فانتزعها من يدى أنعمَ ماأكون بها ، كما تُنتزَعُ الكأس الباردةُ من يد الظامىء الهيمان ، ليعظُمَ وقعُ السهم فى كبدى ، ويفدحُ سلبُ النعمة من يدى ،

ولولا ذلك ما نال مني منالا ، ولا وجد إليّ سبيلا

يا بنيّ إن قدّر الله لكم أن تتلاقوا في روضة من رياض الجنة ، أو على شاطئ غديرٍ من غُدرانها ، أو تحت ظِلال قصرٍ من قصورها ، فاذكروني مثل ما أذكركم ، وقِفوا بين يدي ربكم صفاً واحداً كما يقفُ بين يديه المصلون ، ومُدوا إليه أكفَّكمُ الصغيرةَ كما يمدّها السائلون ، وقولوا له : اللهم إنك تعلم أن هذا الرجلَ المسكينَ كان يُحبنا وكنا نحبه ، وقد فرّقت الأيام بيننا وبينه ، فهو لا يزال يُلاقي بعدنا من شقاء الحياة وبأسائها ما لا طاقةَ له باحتماله ، ولا نزالُ نجد بين جوانحنا من الوَجد به ، والحنين إليه ، ما يُنغص علينا هناء هذه النعمة التي ننعم بها في جوارك بين سمعك وبصرك . وأنت أرحمُ بنا وبه من أن تعذبنا عذاباً كثيراً ، فإما أن تأخذنا إليه أو تأتيَ به إلينا ، بل لا تطلبوا منه إلا أن يأتيَ بي إليكم ؛ فإن الحياة التي كرِهتُها لنفسي لا أرضاها لكم ، فعسى أن يستجيبَ الله من دعائكم ما لم يستجبْ من دعائي فيرفع هذا الستار المُسْبَل بيني وبينكم فنلتقي كما كنا

مناجاة القمر

أيها الكوكبُ المُطِلُّ من علياء سمائه ، أأنت عروس حسناء تُشرِف من نافذةِ قصرها ، وهذه النجومُ المبعثرة حواليك قلائدُ من جمان ، أم ملك عظيمٌ جالسٌ فوق عرشه ، وهذه النيرات حور وولدان ، أم فصٌّ من ماس يتلألأ ، وهذا الأفقُ المحيط بك خاتمٌ من الأنوار ، أم مرآة صافية ، وهذه الهالةُ الدائرةُ بك إطار ، أم عين ثرّة ثجاجة ، وهذه الأشعة جداولُ تتدفق ، أو تنُّور مسجور ، وهذه الكواكب شررٌ يتألق ؟؟؟

أيها القمر المنير :

إنك أنرتَ الأرضَ وِهادها ونِجادها ، وسهلها ووعرَها ، وعامرها وغامرها ، فهل لك أن تشرق فى نفسى

فتنير ظُلمتها ، وتبددَ ما أظلّها من سُحُبِ الهموم والأحزان

أيها القمر المنير :

إن بيني وبينك شبهاً واتصالا ، أنتَ وحيدٌ في سمائك وأنا وحيدٌ في أرضي ، كلانا يقطعُ شوطه صامتاً هادئاً منكسرا حزيناً ، لايلوى على أحد ، ولا يلوى عليه أحدٌ ، وكلانا يبرزُ للآخر في ظلمة الليل فيُسايرُه ويناجيه ، يراني الرائي ، فيحسبني سعيداً لأنه يغتر بابتسامة في ثغري ، وطلاقةٍ في وجهي ، ولو كُشف له عن نفسي ورأى ما تنطوى عليه من الهموم والأحزان ، لبكى له بكاء الحزين ، إثر الحزين ، ويراك الرائي فيحسبُك مُغتبطاً مسروراً ، لأنه يغترُّ بجمال وجهك ، ولمعان جبينك ، وصفاء أديمك ، ولو كشف له عن عالمكَ لرآه عالَماً خراباً ، وكوناً يباباً ، لاتهُبُّ فيه ريح ولا يتحركُ شجر ، ولا ينطقُ إنسان ، ولا يبغَم حيوان

أيها القمر المنير :

كان لى حبيبٌ يملأ نفسي نوراً ، وقلبي لذةً وسروراً ، وطالما كنتُ أناجيه ويناجيني بين سمعك وبصرك ، وقد

فرق الدهرُ بيني وبينه ، فهل لك أن تُحدثني عنه وتكشف لي عن مكان وجودِه ، فربما كان ينظرُ إليك نظري ، ويُناجيك مُناجاتي ، ويرجوك رجائي

وهأنذا يُخيل إليّ أني أرى صورته في مِرآتك ، وكأني أراه يبكي من أجلي كما أبكي من أجله ، فأزدادُ شوقاً إليه ، وحزناً عليه ، فابقَ في مكانك طويلا نطُلْ وقفتُنا ، ويدُم اجتماعُنا

أيها القمر المنير :

مالي أراك تنحدرُ قليلا قليلا إلى مغربك كأنك تريد أن تُفارقني ؛ ومالي أرى نورَك الساطعَ قد أخذ في الانقباض شيئاً فشيئاً ، وما هذا السيفُ المسلول الذي يلمعُ من جانب الأُفق على رأسك ؟

قف قليلا لا تغب عني ، لا تفارقني ، لا تتركني وحيداً ، فاني لا أعرفُ غيرك ، ولا آنسُ بمخلوق سواك

آه لقد طلع الفجرُ ففارقني مؤنسي ، وارتحل عني صديقي ، فتى تنقضي وحشةُ النهار ، ويُقبل إليّ أنس الظلام ،

أين الفضيلة

قرأتُ فى بعض الروايات أن فتًى قضى حقبةً من دهره مَوَلَعاً بحب فتاة خياليةٍ لم يرها مرة واحدة فى حياته، وإنما تَخيل فى ذهنه صورة ألَّفها من شتّى المحاسنِ ومتفرقاتها فى صوَر البشر، فلما استقرتْ فى مُخيَّلته تجسمت فى عينيه فرآها فأحبها حبًا ملك عليه قلبَه وحال بينه وبين نفسه، وذهب به كلّ مذهب، فأنشأ يُفتش عنها بين سمع الأرض وبصرِها أعواماً طوالا حتى وجدها

لا أستطيعُ أن أُكذّبَ هذه القصةَ لأَنى أنا ذلك الفتى بعينه، لافرق بينى وبينه إلا أنه يُسمى ضالتَه الفتاةَ وأُسميها الفضيلةَ، وأنه فتش عنها فوجدها، وفتشتُ عنها حتى عَيِيتُ بأمرها فما وجدتُ إليها سبيلا

فتشتُ عن الفضيلة فى حوانيت التجار فرأيت التاجر

لصاً فى أثواب بائع ، وجدته يبيعُنى بدينارين ما ثمنه دينارٌ واحد ، فعلمتُ أنه سارق للدينار الثانى ، ولو وُكلَ إلىَّ أمرُ القضاء ما هان علىَّ أن أُعاقب لصوصَ الدراهم ، وأُغفل لصوص الدنانير ، مادام كلٌّ منهما يسلبنى مالى ويتنقّلنى عنه!

أنا لا أُنكرُ على التاجر ربحَه ، ولكنى أنكر عليه أن يتناول منه أكثر من الجزاء الذى يستحقه على ما بذل من جهده فى جلب السِّلعة وما أنفق من راحته فى سبيل صَونها وإحرازها وكلُّ ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه أن الأول بذلُ الجدِّ والعمل ، والثانى بذلُ الغش والكذب

فتشتُ عن الفضيلة فى مجالس القضاء فرأيتُ أن أعدلَ القُضاة من يحرص الحرصَ كلَّه على أن لا يهفوَ فى تطبيق القانون الذى بين يديه هفوةً يُحاسبه عليها من منحه هذا الكرسىَّ الذى يجلس عليه مخافةَ أن يسلُبه إياه ، أما إنصافُ المظلوم والضربُ على يد الظالم وإراحة (1)

(1) أراح الحق على أهله أعاده إليه

الحقوق على أهلها وإنزالُ العقوبات منازلها من الذنوب فهى عنده ذيولٌ وأذناب لا يأبهُ[١] لها ، ولا يحتفل بشأنها ، إلا إذا أشرق عليها الكوكبُ بسعده فمشت مع القانون فى طريق واحد مصادفةً واتفاقا ، فاذ اختلف طريقاهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ، ونطق بغير ما يعلم ، ودان البرىء وبرأ المجرم ، فإذا عتب عليه فى ذلك عاتب كانت معذرته إليه حكم القانون عليه ، كأنما يريد أن يجعلَ العقل أسيرَ القانون . وما القانونُ إلا حسنةٌ من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه

فتشتُ عن الفضيلة فى قصور الأغنياء فرأيتُ الغنىّ إما شحيحاً أو مِتلافاً ، أما الأولُ فلو كان جاراً لبيت فاطمة رضى الله عنها وسمع فى جوف الليل أنينها وأنين ولدَيها من الجوع ما مد أصبعيه إلى أذنيه ثقةً منه أن قلبه المتحجرَ لا تنفذُه أشعة الرحمة ، ولا تمرّ بين طياته نسمات الاحسان ،

---

(١) أبه للشىء فطن له واحتفل

وأما الثاني فماله بين الثغرين ، ثغر الحسناء ، وثغر الصهباء ، فعلى يد أيّ رجل من الرجلين تدخلُ الفضيلةُ قصورَ الأغنياء ؟

فتشتُ عنها في مجالس السياسة فرأيتُ أن المعاهدةَ والاتفاق والقاعدةَ والشرطَ ألفاظٌ مترادفةٌ معناها الكذب ورأيت أن الملِك في كرسيّ مملكته ، كالحوذيّ في كرسيِّ عربته ، لافرق بينهما إلا أن هـذا ينقضُ « تعريفته » ، وذاك ينقضُ مُعاهدته ، ورأيت أنّ أعدى عدوّ للانسان الانسانُ وأن كلّ أُمة قد أعدّت في مخازنها ومستودعاتها وفي بطون قلاعها وعلى ظهور سُفنها وفوق متون طياراتها ماشاء الله أن تُعِده لأُختها من عُـدد الموت وأفانين العذاب ، حتى إذا وقع الخُلفُ بينهما على حد من الحدود أو جِدارِ من الجدرانِ لبس الانسان فروةَ السبُع واتخذ له من تلك العُدد الوحشيةِ أظفاراً كأظفاره ، وأنياباً كأنيابه ، فشحذ الأولى ، وكشر عن الأخرى ، ثم هجم على ولد أبيه

وأمه هجمة لايعودُ منها إلا بنفسه التى بين جنبيه ، وإنك لو سألتَ الجنديّينِ المتقاتلين ما خطبُكما وما شأنكما ، وعلامَ تقتتلان ، وما هذه الموْجدة التى تحملانها بين جنبيكما ، ومتى ابتدأت الخصومة بينكما ، وعهدى بكما أنكما ما تعارفتما إلا فى الساعة التى اقتتلتما فيها ؟ لعرفتَ أنهما مخدوعان عن نفسيَهما وأنهما ما خرجا من ديارهما إلا ليضعا دُرّةً فى تاج الملك ، أو نيشاناً على صدر القائد

فتشتُ عنها بين رجال الدين فرأيتُهم إلا من رحم الله يتّجرون بالعقول فى أسواق الجهل ، رأيت كلاً منهم قد ثغرَ له فى كل رأس من رءوس البشر ثغرةً ينحدرُ منها إلى الأخلاق فيُفسِدها ، والمشاعر فيقتلُها ، ليتوسلَ بذلك إلى الذخائر فيسرقها ، والخزائن فيسلبها

فتشتُ عنها فى كل مكان أعلم أنه تُربتها وموطنها فلم أعثُر بها . فليت شعرى هل أجدُها فى الحانات والمواخير ، أو فى مغارات اللصوص ، أو بين جدران السجون ؟

سيقول كثير من الناس قد غلا الكاتب في حكمه، وجاوز الحدّ في تقديره، فالفضيلة لاتزال تجدُ في صدور الكثير من الناس صدراً رحباً، وموروداً عذباً، وإنى قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم إنى لا أنكر وجود الفضيلة، ولكنى أجهل مكانها، فقد عقد رياء الناس أمام عينىّ سحابة سوداء أظلم لها بصرى حتى ما أجد فى صفحة السماء نجماً لامعاً ولا كوكباً طالعاً

كل الناس يدّعى الفضيلة وينتحلها، وكلهم يلبس لباسها ويرتدى رداءها ويعدّها عدتها من منظر يستهوى الأذكياء والأغبياء، ومظهر يخدعُ أسوأ الناس بالناس ظناً، فمن لى بالوصول إليها فى هذا الظلام الحالك، والليل الأليل!

إن كان صحيحا ما يتحدثُ به الناس من سعادة الحياة وطيبها، وغبطتها ونعيمها. فسعادتى فيها أن أعثر فى طريق فى يوم من أيام حياتى بصديق يَصدُقنى الودّ وأصدُقه، فيقنعه منى ودى وإخلاصى دون أن يتجاوز ذلك إلى ماوراء

من مآرب وأغراض ، وأن يكون شريفَ النفس فلا يطمع في غير مطمع . شريفَ القلب فلا يحملُ حِقداً ولا يحفظ وِترا . ولا يحدّثُ نفسه في خلوته بغير ما يُحدث به الناسَ في محضره ، شريفَ اللسان فلا يكذبُ ولا يَنمّ ولا يُلم بعِرض ولا ينطق بهُجْر[1] شريفَ الحبّ فلا يُحب غير الفضيلة ، ولا يبغضُ غير الرذيلة

هذه هي السعادةُ التي أتمناها ولكني لا أراها

إني لأرى الرياضَ الغنّاء تهفو أشجارُها ، وترن أطيارُها ، وأرى جداولَ الماء تنسابُ بين أنوارها وأزهارها ، انسيابَ الأفاعي الرقطاء ، في الرمال البيضاء ، وأرى أناملَ النسائم تعبثُ بمنثورات الأوراق ، عبثَ الهواء بألباب العشاق ، وأسمعُ ما بين صفير البلابل ، وخرير الجداول ، نغماتٍ شجية تبلغُ من نفس الانسان ، مالا تبلغ أوتار العيدان . فلا يسرُّني منها منظر ، ولا يُطْرِبُني مسمع ،

(١) الهجر الفحش

لأنى لا أرى بين هذه المشاهد التى أراها ضالتى التى أنشدُها

لقد سَمُجَ وجه الرذيلة فى عينى ، وثَقُلَ حديثها فى مسمعى حتى أصبحتُ أتمنى أن أعيشَ بلا قلب . فلا أشعرُ بخيرِ الحياة وشرّها ، وسُرورها وحزنها

ولولا بُنيّاتٌ صغار يَفقِدن بفقدى طيبَ العيش ونعيمَه لفررت من هذا العالَمِ الناطق إلى ذلك العالم الصامت . فأجدُ من الأنس به والسكون إليه ما وجدَه الذى يقول :

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عوى
وصوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

الغنى والفقير

مررت ليلةَ أمس برجل بائسٍ فرأيتُهُ واضعًا يدَه على بطنه كأنما يشكو ألمًا، فرثيتُ لحاله وسألتُه ما بالُه، فشكا إلىّ الجوعَ ففثأتُه(1) عنه ببعض ما قدرتُ عليه ثم تركته وذهبت إلى زيارة صديقٍ لى من أرباب الثّراء والنّعمة فأدهشنى أنى رأيته واضعا يدَه على بطنه وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائسُ الفقير. فسألته عما به فشكا إلى البِطنةَ فقلت يا للعجب!! لو أعطى ذلك الغنىُّ ذلك الفقيرَ ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحدٌ منهما سُقمًا ولا ألمًا

لقد كان جديرا به أن يتناول من الطعام ما يُشْبعُ جَوْعته، ويطفئ غُلّته، ولكنه كان محبًّا لنفسه، مغاليا بها

(1) يقال فثأت فلانا عن فلان إذا سكنت غضبه عليه

خضمٌ إلى مائدته ما اختلسه من صَحْفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة حتى لايَهنِئ الظالمَ ظلمُه، ولا يطيبَ له عيشُه، وهكذا يصدُق المثلُ القائل: بطنةُ الغنيّ انتقامٌ لجوع الفقير:

ما ضنّت السماء بمائها، ولا شحّت الأرضُ بنباتها، ولكن حسد القويُّ الضعيفَ عليهما فزواهما(١) عنه، واحتجنهما(٢) دونه، فأصبح فقيرا مُعْدماً، شاكياً متظلماً، غرماؤه المياسيرُ الأغنياء، لا الأرضُ والسماء

ليتني أملك ذلك العقلَ الذي يملكه هؤلاء الناس فأستطيعَ أن أتصوّر كما يتصورون حجةَ الأقوياء في أنهم أحقُّ بإحراز المال وأولى بامتلاكه من الضعفاء، إن كانت القوةُ حجتَهم عليه فلِمَ لا يملكون بهذه الحجةِ سَلْبَ أرواحهم كما مَلكوا سلب أموالهم، ولِمَ الحياةُ في نظر

(١) زوى عنه حقه منعه إياه (٢) احتجن الشيء إذا جذبه بالمحجن لى نفسه والمحجن الصولجان والمراد أنه استأثر به

الحيّ بأغنَ قيمةً من اللقمة فى يد الجائع، وإن كانت حجتهم أنهم ورثوا ذلك المالَ عن آبائهم قلنا لهم إن كانت الأبوّةُ علة الميراث فلِمَ ورثتم آباءكم فى أموالهم ولم ترثوهم فى مظالمهم، فلقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المالَ من الضعفاء، وكان حقاً عليهم أن يردوا إليهم ما اغتصبوا منهم، فان كنتم لابد ورثاءهم فاخلفوهم فى ردّ المال إلى أربابه، لا فى الاستمرار على اغتصابه

ما أظلَمَ الأقوياء من بنى الانسان وما أقسى قلوبَهم، يَنامُ أحدُهم ملء جفنيه على فراشه الوثير، ولا يُقلقه فى مضجعه أنه يسمع أنينَ جاره وهو يُرْعَد برداً وقُراً، ويجلسُ أمام مائدة حافلةٍ بصنوف الطعام قديده وشِوائه، حُلوِه وحامضه، ولا يُنغص عليه شهوته علمُه أن بين أقربائه وذوى رحمه من تتواثبُ أحشاؤه شوقا إلى فُتات تلك المائدة ويسيل لعابُه تلهفا على فضلاتها، بل إن بينهم من لا تخالط الرحمةُ قلبَه ولا يعقِد الحياء لسانَه فيظَل يسرُد على مسمع

الفقيرِ أحاديثَ نعمتِه ، وربما استعان به على عد ما تشتمل عليه خزائنُه من الذهب وصناديقُه من الجوهر وغُرَفُه من الأثاث والرياش ليكسرَ قلبَه وينغص عليه عيشَه ويبغض إليه حياتَه ، وكأنه يقول له في كل كلمة من كلماته ، وحركةٍ من حركاته ، أنا سعيدٌ لأني غنيٌّ ، وأنت شقيٌّ لأنك فقير

أحسبُ لولا أن الأقوياء في حاجة إلى الضعفاء يستخدمونهم في مرافقهم وحاجاتهم كما يستخدمون أدوات منازلهم ، ويسخرونهم في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم ، ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم ، وسجودِهم بين أيديهم ، لامتصوا دماءهم ، كما اختلسوا أرزاقَهم ، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها

لا أستطيعُ أن أتصور أن الإنسانَ إنسانٌ حتى أراه محسناً ، لأني لا أعتمد فصلاً صحيحاً بين الانسان والحيوان إلا الإحسانَ ، وإني أرى الناسَ ثلاثةً ، رجلٌ

يُحسن إلى غيره ليتخذَ إحسانَه إليه سبيلا إلى الإحسان إلى نفسه ، وهو المستبدّ الجبارُ الذى لا يفهم من الاحسان إلا أنه يستعبدُ الإنسان ، ورجلٌ يُحسن إلى نفسهِ ولا يحسن إلى غيره ، وهو الشرِهُ المتكالبُ الذى لو علم أن الدم السائلَ يستحيل إلى ذهب جامدٍ لذَبح فى سبيله الناسَ جميعاً ، ورجلٌ لا يُحسن إلى نفسه ولا إلى غيره ، وهو البخيل الأحمقُ الذى يُجيعُ بطنَه ليُشبعَ صُندوقَه ، أما الرابع وهو الذى يُحسن إلى غيره ويُحسن إلى نفسه ، فلا أعلمُ له مكانًا ، ولا أجد إليه سبيلا ، وأحسَبُ أنه هو الذى كان يفتشُ عنه الفيلسوف اليونانىّ ديوچين الكلبي حينما سُئل ما يَصنع بمصباحه وكان يدور به فى بياض النهار فقال « أُفتش عن إنسان »

مدينة السعادة

رأيتُ فيما يرى النائمُ أنى أمشى فى قفرةٍ جرداء قد انبسطتْ رمالُها على سطحها متجعدةً تجعدَ الأمواج المتكسرةِ على سطح القاموس⁽¹⁾ المحيط، وكانت الشمس قد طفَلَت⁽²⁾ للإياب فلم أرفى بطحائها ظِلاً غير ظلى المستطيلِ الذى رسمتْه يدُ الشمس فأخطأتْ فى تصويره كأنما حسبتنى آدمَ أبا البشر⁽³⁾ فأوسعتنى طولا، ورسمتنى ميلا

أنشأتُ أمشى لا أعرِف لى مذهبا ولا مضطرَبا، وأنَّى يكون ذلك فى صحراء قد تشابهتْ مسالِكُها، وتشاكلت مذاهبها، وانفرج ما بين قاصيها ودانيها، حتى

(١) القاموس وسط البحر ومعظمه (٢) طفلت الشمس جنحت للغروب
(٣) ربما لم يكن آدم أطول من بنيه قامة ولكن التشبيه على الخيال لمعنى على حد قوله تعالى (كأنه رؤوس الشياطين)

انحدرت الشمسُ إلى مستقرّها ، وطار طائرُ الليل من مَكمنه ، وما نشر الظلامُ أجنحتَه السوداء في الأُفُق حتى وجدتُني أحيرَ من دمعة وَجْد ، في مُقلة عاشق ، يدفعها الحبُّ ويمنعُها الحياء ، لا أعلم هل أنا سرٌّ كامنٌ في باطن الظلماء ، أو حُوتٌ مضطرب في أعماق الماء ، وأحيانًا كان يخيل إليّ أني في مَنجم من مناجم الفحم فأمدُّ يدي أتلمّس جُدرانه مخافةَ أن أصطدم بواحد منها ، ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام قد بدأ ينفض صبغتَه ، وأن ذراتِه تتطايرُ ههنا وههنا . فإذا أنا بين يدي جبل عالٍ كأنما هو جدارٌ قائم يُمسك السماء أن تقع على الأرض ، أو ملك جبارٌ قد لبس من قُرص الشمس التاجَ الأحمر ، ومن شُعاعها الرداء الأصفر

ولا تسلْ هنالك عما ألمّ بقلبي من الهم وعقلي من الخبال حينما رأيتُ أن صعودَ السماء أقربُ إلى الأمل ، من صعود هذ الجبل . وحرتُ بين الإقدام والإحجام ، فلم أر بدا من الاستسلام ، لمقدور الحِمام ، ثم رميتُ بطرفي

فرأيتُ بين الصخور المبعثرةِ فى سفح الجبل صخرةً بيضاء ناعمةَ الملمس فاضطجعتُ عليها وأنا أتمثل بقول أبى العلاء :

ضِجعةُ الموتِ رقدةٌ يستريح الـ ـجسم فيها والعيشُ مثلُ السُّهاد

وما هى إلا غمضةُ الطَّرْف أن شعَرت بأنها تتحركُ قليلا قليلا ثم استقلتْ ثم طارتْ ، فكدتُ أحسَب أنه الموت قد نزل وأنها الرُّوحُ تصعَدُ إلى الملأ الأعلى لولا أن فتحتُ عينيَّ فرأيتُ ما كنت أحسبه صخرةً طائراً أشبهَ شيء بالنَّسر فى خَلْقه والقبةِ فى ضخامتها واستدارتها ، واستمرَّ ذاهباً بى فى أفق السماء ثم رنق لحظة فى الهواء ثم هبط إلى قِمة الجبل . فأسرعت بالانحدار عنه ، وهنالك أحسست بسلسبيلٍ بارد من الأمل يتسربُ إلى قلبى فينقعُ غُلتَه ، ويُطفئُ لَوعتَه ، لأنى رأيتُ السفحَ الثانىَ ورأيت بهجةَ الحياة وزهرةَ العُمران

رأيتُ على البعد خطوطَ الخُضرةِ حول سطور الماء ، ورأيت الأكواخ الصغيرةَ والقصورَ العظيمة كأنهما

العصافيرُ السوداء ، والحمائمُ البيضاء ، وكأن ما ألمّ بنفسي من السرور أنساني ما ألمّ بجسمي من النّصَب فانحدرت إليها فما بلغتُها حتى رأيتُني في مَزرعة في وسطها بِنْيةٌ قد وقف على بابها شيخٌ هو أشبهُ الاشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء الهيئة في صُوَر سكان المريخ فذُعِر مني كما يُذعَرُ الانسان لرؤية الجان ، وما كان الذى قام في نفسه مني بأكثرَ مما قام في نفسي منه لولا أني أَلِفتُ الغرائبَ ، وعَجَمت عودَ العجائب ، فتقدمتُ نحوه . وكأنما أُلهمت لغته فحيّيته بها فحياني وهو يقول : ما كنتُ أحسبُ أن الشمسَ تطلعُ على مدينةٍ غيرِ هذه المدينة ، أو أن في العالم إنساناً غير هذا الانسان ، فما زلت أحدثه وأستدنيه حتى أَنِس بي ودعاني إلى منزله وخلطني بنفسه وأهله وقدم لي طعاماً شهياً ومهد لي مَرقداً وثيراً (١) وكان الليل قد أقبل للمرة الثانية من هِجرتي هذه . فنمتُ نوما هادئاً مطمئناً لا تروعني

---

(١) وثير : وطيء

فيه خواطرُ الموتِ ولا وساوسُ الملالْ

استيقظتُ أنا والشمس من مرقدينا على صوت تلك الأسرةِ الطاهرة الكريمةِ تصلى إلى الله تعالى صلاةَ الخاشعين المتبتّلين وتدعو وهى مصطفةٌ صفا واحداً أنْ يُيسر لها الله عُسرَها ، ويسهل أمرَها ، ويُصلِح شأنها ، ويمنحُها مَعونتَه ونَصْره ، فأخذ منظرُها هذا من نفسى مأخذاً عظيما فلم أر بُداً من الانتظام فى صفها ، والدعاء بدعائها ، والبكاء لبُكائها ، وعجبت أن يكون مثلُ هذا الإيمانِ الخالص راسخاً فى نفوس أهل هذه المدينة ولم يُرسَل إليها رسول، ولم يَنزِلْ عليها كتاب، فلما فرغنا من الصلاة التفتُّ إلى صاحب البيت وقلت له أراكم تتعبدون فمن تعبدون ، وتصلون فمن الذين تدْعون ؟ قال نعبدُ اللهَ خالقَ هذه الكائنات ومدبرَها ، قلت هل رأيتموه حتى عرفتموه ؟ قال نعم رأيناه فى آثاره ومصنوعاتِه ، رأيناه فى السماء، والماء

والفَلَكِ الدائر ، والنجم السائر ، وفى أجنَّة الحيوان، وبُذورِ النبات ، ورأيناه فى أنفسنا وعقولنا وأرواحِنا قبل ذلك ، قلت ولِمَ تعبدونه ؟ قال شكراً له على نعمة الخلْقِ والرزق ، وإن أحدَنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمتَه إذا أحسن إليه بجوعةٍ أوأنعم عليه بمضغةٍ فأحْرِ به أن يشكرَ مانحَ المانحين، والمحسنَ إلى المحسنين ، فقلت فى نفسى لقد بلغ الرجلُ مرتبةَ المُوَحّدين الصادقين ، الذين يعبدون الله مخلصين له الدين ، لا يرجون ثوابًا ، ولا يخافون عقابًا ، ثم سألته أين تذهبون بعد الموت ؟ قال إلى النعيم المقيم ، أو العذاب الأليم ، قلت لعلك تريد الجنة والنار ، قال لا أفهم ما تقول، وإنما أعلم أن الإلهَ الحكيمَ لا يتركُ المحسنَ دون أن يُجازيه خيرا على إحسانه ، كما يأبى عدلُه أن يسوى بين المحسن والمسيء ، قلت متى يكونُ المحسنُ محسنًا والمسيء مسيئًا ؟ قال الإحسان عملُ الخير والإساءةُ عمل الشر، لذلك لا ترى بيننا من يحدثُ نفسه بالإضرار بأخيه أومن يُقصّر فى دفع

الاذى عنه ، فقلت فى نفسى ليت الفقهاء الذين ينفقون أعمارهم فى الحيض والاستحاضة والمذْى والودْى[1] والحدث الأكبر ، والحدث الأصغر ، وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالى ويقرحون المآق فى عينية الصفات وغيريتها والجوهر والعرض والحدوث والقِدَم والدور والتسلسل ، وليت المتصوفة الذين يحاولون أن ينازعوا الله فى مشيئته ويجاذبوه قدرته ويغالبوه على أمره ونهيه ويزاحموه فى لوحه وقلمه يعرفون من سرّ الدين وحكمتِه والغرض الذى قام له مايعرف هؤلاء البُلْهُ الأغرارُ الذين لا يفهمون معنى الجنةِ والنار . ولا يميزون بين الدين والتين

فرغنا من الحديث وعرضتُ على الشيخ أن يُزبرنى المدينة فانحدر بى إليها فرأيتُ شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها متفرقةً غيرَ متلاصقة ، وقد أحاطت بكل منزل منها حديقةٌ زاهرة ، ورأيت سكانها مُكِبِّين على أعمالهم ، مجدين

(١) المذى والودى نوعان من الماء الذى يخرج من العصب

في شؤونهم ، صغاراً وكباراً ، رجالا ونساء ، ما فيهم فقيرٌ يتسوّلُ ، ولا متبطِّل يتثاءب ويتململ ، وأغربُ ما استهوى نظري أنني لم أر في تلك المدينةِ ذلك التفاوتَ الذي أعرِفُه في مدائننا بين الناس في منازِلهم ومَراكبِهم ، ومطاعمهم ومشاربهم ، وهيآتهم وأزيائهم ، كأن جميعَ سكانها سواسية في حالة المعيشة ودرجةِ الثروة ، فسألتُ الشيخَ ألا يوجد فيكم غني وفقير ، وسيد ومسود ؟ قال لا يا سيدي ، حَسْبُ الرجل منا بيتٌ يُؤويه ومَزرعةٌ تكفيه ودابّة تحملُ أثقالَه ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوى ذلك ، لذلك لا يوجد فينا سيدٌ ومَسود ، لأنه لا يوجد فينا غنيٌّ وفقير ، قلتُ لابد أن يكون بينكم العاجزُ عن العمل والعاطلُ الكسلان ، قال أما الكسلانُ فلا وجود له بيننا لأنه يعلمُ أنا لا نرحمُه ولا نغفِرُ له زلته في احتقار نعمةِ العقل والقوةِ بتعطيلهما عن العمل . وأما العاجزُ فنحدبُ عليه ونُحسن إليه ، ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلا ، لأننا إنما نَمنَحُه جزءاً

من القوة التي مَنحنا اللهُ إياها لنعبدَه بها ، ولا نرى في وجوه العبادة أفضلَ من مُواساة العاجزين ، ورحمة البائسين

وإنه لَيحدّثُني بهذا الحديث إذ لاحت لنا بِنيةٌ فخمةٌ تمتازُ عن غيرها من البِنى بحسن نظامها ، وجمال هندامها ، فقلتُ للشيخ هل أرى قصرَ المَلِك؟ قال لا ، ولكنّه قصرُ رجلٍ شرّيرٍ طماع قد خالف إرادةَ الله وحكمتَه فاحتجن[1] دون عباده أرضَهم وما لهم ليعلُوَ عليهم ، ويستأثرَ بالنعمة من دونهم ، فغضبَ اللهُ عليه ، وقلبَ نعمتَهُ نِقمةً : ورخاءه شدةً . فانه ما أراح[2] رائحةَ العيش الرغد حتى أسلم نفسَه إلى شهواتها . وحمَّلها فوق ما تحملُ طبيعتها ، فها هو ذا اليوم يقاسي من آلام الأمراض وأنواعِ الأسقام ما بغّض إليه العيش ، وحبب إليه الموت ، لم يَحمِه قصرُه ، ولم يُغنِ عنه ماله ، فهو عِبرةُ المعتبرين ، وموعظةُ السابلين[3] فكبرالرجلُ

(١) احتجن المال ضمه واحتواه (٢) أراح فلان الشيء وجد ريحه (٣) السابلة المختلفون على الطرقات في حوائجهم

فى ذَرعى(١) وعظُم فى عينى وأ كبرتُ فيه وفى أمته هذه الخِلالَ الشريفةَ ، والأخلاقَ العاليةَ ، وقلت فى نفسى إنّ مدارسنا على ما تشتملُ عليه دروسُها من قواعدِ الحكمةِ وأصولِ التربية وفنونِ الآداب لَتعجزُ عن أن تُخرِجَ للناس رجالا يستطيعون أن يساجلوا هؤلاء القوم فى صفاتهم وفضائلهم ، وأردتُ على ذكر المدارس أن أعرِف مناهجَ التعليم عندهم فقلتُ للشيخ هل لك أن تُزيرنى مدرسةً من مدارسكم ، فعجب لسؤالى وقال ما المدرسة ؟ فكان عجبى لجوابه أكثر من عجبه لسؤالى وقلت: المدرسةُ مكانٌ محدود يجتمع فيه صِغارٌ يتعلمون ، وكبار يعلّمون ، قال ما الذى يتعلمه الصغار من الكبار ؛ قلت ما يصلح شأنَهم وينفعهم فى معاشهم ومعادهم ، قال وأيّةَ حاجة بنا إلى مثل هذا المَجمعِ الحاشدِ فى مثل هذا المكانِ المحدود ، إننا ياسيدى أرحمُ بأبنائنا من أن نَكِلَ أمرَهم إلى غيرنا ، فنحنُ الذين نتولى هذا

(١) كبر فى ذرعى عظم وقعه عندى

الشأنَ منهم ، فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع نعلمهم فيها كيف يرمون البذورَ وكيف يستنبتونها، وكيف يصنعون الآلاتِ وكيف يستعملونها ، وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلَهم، وينسِجُون ملابسَهم، ويُعدون عددهم، إنا لا نعرِف علماً غيرَ العمل، ولا نعرف من العمل غيرَ ما نحفظُ به قِوامَ حياتنا ، ونستعينُ به على عبادةِ ربنا ، قلتُ ألكم حاكم يتولى أموركم ؟ قال لنا حكم لا حاكم ، وهو رجلٌ قد وثِقنا به وبفهمِه واستقامته فاخترناه لفصل الخصومات إن عرض لنا من ذلك عارض ، قلت أليس له جُنْدٌ وأعوان يؤيدونه ويتولون تنفيذَ أحكامِه؛ قال نعم كلنا جنده وكلنا أعوانه على كلِّ من يختلفُ عليه أو يتمردُ على حكمه فقد وَفيْنا به وبعدله وحَسْبُنا ذلك وكفى، قلت أليس له سجن يسجن فيه المجرمين؛ قال لا، حَسْبُ المجرمِ عندنا عقوبةً أن يتفق أهلُ المدينة على احتقاره والزرايةِ به ، وإن أحدنا ليؤثِر أن تخطفه الطيرُ أو يسقط عليه كِسفٌ(١) من السماء على أن يرى نفسه بغيضاً في

(١) كسف: قطع

قومه ، صغيراً فى نفوسهم ، ذليلا فى أعينهم ، لا يرفعون اليه طَرْفاً ، ولا يقيمون له وَزناً

وما وصلنا من حديثنا إلى هذا الحدّ حتى كنا قد فرغنا من الطّواف بالمدينة ، ووصلنا إلى المنزل الذى خرجنا منه ، فستقبلَنا أهلُه بالبِشْر والترحاب ، واستقبلوا شيخَهم بالتقبيل والعناق . فلم أر فيما رأيتُ من البيوت فى مُدُن العالم وقُراه بيتاً أسعدَ حظا ولا أنعمَ عيشاً ولا أرْوحَ بالا من هذا البيت

تلك هى مدينةُ السعادةِ التى يعيش أهلُها سعداء لا يشكون هما ، لأنهم قانعون ، ولا يمسكون فى أنفسهم حِقداً ، لأنهم متساوون ، ولا يستشعرون خوفا لأنهم آمنون

تلك مدينةُ السعادةِ التى رأيتها فأحببتُها وأحببتُ العيشَ فيها لولا أن الله فى خلقه سُنّةً لا تتبدل ، وشأناً لا يتحول ، فقد جاء الليلُ وأخذتُ مكانى من مَرقَدى فى منزل الشيخ فلم أستيقظْ حتى رأيتنى فى فراشى فى منزلى ،

فلا السّهلُ ولا الجبلُ . ولا الشيخُ ولا المزرعة ، ولا المدينةُ ولا السعادة

ولما نزلنا منزِلا طلّهُ[١] النّدَى
أنيقا وبستانًا من النوّر حاليا
أجدّ لنا طيبُ المكانِ وحسنه
مُنًى فتمنينا فكنت الأمانيا

(١) طله أمطره الطل وهو المطر القليل

أيها المحزون

إن كنتَ تعلمُ أنك قد أخذت على الدهر عهداً أن يكونَ لك كما تريد في جميع شؤونك وأطوارك، وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحبُّ وتشتهي ، فجديرٌ بك أن تُطْلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأربٌ ، أو استعصى عليك مطلب ، وإن كنت تعلمْ أخلاقَ الأيام في أخذِها وردّها ، وعطائها ومنعِها ، وأنها لاتنامْ عن منحةٍ تمنحُها حتى تكرَّ عليها راجعةً فتستردّها ، وأن هذه سُنّتُها وتلك خلّتُها في جميع أبناء آدمَ . سواء في ذلك ساكنُ القصر وساكنْ الكوخ ، ومن يطأُ بنعله هام الجوزاء ، ومن ينامُ على بساط الغبراء . فخفّضْ من حزنك . وكفكفْ من دمعك . فما أنتَ بأول غرضٍ أصابه سهمُ الزمان . وما

مصائبك بأول بدعة طريفة فى جريدة المصائب والأحزان

انت حزينٌ لأن نجماً زاهرا من الأمل كان يتراءى لك فى سماء حياتك فيملأ عينيك نورا. وقلبك سروراً. وما هى إلا كَرّة الطرْف أن افتقدتَه. فما وجدتَه، ولو أنك أجملت فى أملك. لما غلوتَ فى حزنك، ولو أنك أنعمت نظرَك فيما تراءى لك. لرأيت برقا خاطفا، ما تظنُّه نجما زاهرا، وهنالك لا يَبهرك طلوعُه. فلا يفجعك أفولُه

أسعدُ الناسِ فى هذه الحياة من إذا وافتْه النعمةُ تنكرَ لها. ونظر إليها نظره المستريبِ بها، ورقب فى كلّ ساعة زوالَها وفَناءها، فإنْ بقيتْ فى يده فذاك، وإلا فقد أعدّ لفراقها عُدّتَه من قبل

لولا السرورُ فى ساعةِ الميلادِ ما كان البكاء فى ساعة الموت، ولولا الوثوقُ بدوام الغنى ما كان الجزعُ من الفقر، ولولا فَرحةُ التلاق، ما كانت تَرحةُ الفِراق

الى الدير

مسكينٌ ذلك الفتى الذى رأيتُه صباح أمسِ منزوياً فى ركن من الأركان فى أحد الأندية وقد ظلَّلت جبينَه الوضاحَ سحابةٌ سوداء من الحزن وانحنى على نفسه كأنما هو يشعرُ أن قلبه يتنزّى فى صدره وأنه يحاول الفرارَ منه فهو يعطفُ عليه ليُمسكه بين جوانحه . ولو أنه أراد بنفسه خيراً لَتركه وشأنه يمضى فى سبيله حيثُ شاء ، فبعدا لقلب لا يسكنُ عن الخفقان . ولا يَفيق من الهموم والأحزان

سألته ما بالك أيها الصديقُ ، قال لا شىء ، قلتُ أنت تكتمنى ما فى نفسك ولو عرفتنى ما كتمتنى ، قال ما جهلتُك مذ عرفتك ، ولكننى أعطيتُ الله تعالى عهدا مذ خُلقتُ ألا أشكو إلا إلى من أرجو عنده البرء ، وما أنا براجٍ

عندك ولا عند أحد من الناس بُرْءًا من دائى ، قلتُ هبنى طبيبا . والطبيبُ وإن كان لا يَشفى إلا نادرا فإنه يسكن غالبا ويُعزى دائما ، فأنا إن عجزتُ عن معالجتك ، فلا أعجزُ عن تعزيتك ، على أن الماء إذا اشتد غليانُه احتاج إلى التنفيس عنه ، وإلا طار بالقدر . طيرانَ الهمّ بالصدر

فأصغى إلى كلماتى واستخذى لها وأنشأ يُحدثنى حديثًا تمازجه العبرات ، وتقطعه الزفرات ، ويقول : زوجنى أبى منذ سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهمُ من معنى الزواج إلا أن فيه قضاء لُباناتها وترفيه عيشها ، وإرضاء نفسها ، وهو يحسب أنه قد أحسن إلىّ بسبيله لمجد . وربيبة النعمة ، ومالكة الدُّور . وساكنة القصور . أجلْ إنها ذاتُ مالٍ وفير ، وخير كثير ، ولكن ذهب عليه غفر الله له أنى ما كنتُ أريد أن أكون تاجرا أكسبُ مالا ، بل روحا أجدُ بجانبى نفسا تؤنسنى بحضرتها ، وتوحشنى مغيبها ، ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فتريني نفسى كما هى ، لا تكذبنى فى خير

ولا شرّ ، وإنى أريد أن أجدَ فى الزوجة التى أتزوجُها صديقاً
فى المرتبة العليا من مراتب الصداقة . ومن لى به فى امرأة
تجهَلُ حتى إرضاعَ طفلِها ، ولبسَ ثوبها ، على أن ثروتها
ما كانت تقومُ بحاجتها، فقد كانتْ لها خادمٌ لملابسها وأخرى
لشعرها وأخرى لسريرها وطابخةٌ وغاسلةٌ ومُرضِع وقهرمانة
وخياطة خاصة بها، وطبيبٌ لا يُغِبّ[1] زيارتَها، ومؤنساتٌ
لا يُفارقْن مجلسها ، ولم تكن ممن أنعم الله عليهن بنعمة
الجمال فكانت تُنفِق ما يزيدُ على نصف دَخْلها فى الحسن
المجلوب ، والجمال المكذوب ، وليتَها كانت تُغفِل أمرى
وتتركُنى وشأنى فأستطيع أن أتناساها وأعدّ نفسى من
العزّاب تخيلا وتقديراً ، بل كانت تقيمُ علىّ من نفسها ومن هذا
الخفاف الآجب[2] المحيط بها حُرّاساً كحراس الليل وجواسيسَ
كجواسيسِ الإنكليز يرقبن مواقعَ نظرى ، ومواطئَ قدمى ،

(١) [illegible] (٢) [illegible]

لتعلم أين مذهبُ قلبي، ووجهةُ نفسي، فتثار عليَّ من الكوكب إذا رأتني أنظرُ إليه. وتكاد تمزق الثوبَ الذى تعلمُ أنى أحبه وأوثره. وتحسبها آهةَ الوجدِ أو دمعةَ الحبّ إذا رأتنى أتأوهُ من آلام عشرتها، أو أبكى لعظم مصيبتى فيها. وما هى بغَيرة الحبِّ ولكنها الأَثَرَةُ(١) قبّحها الله وقبح كلَّ ما تأتى به. وأكثرُ ما كان يغيظنى منها أنها ما كانت تفتح علىّ بابَ الحساب على اللفتات والخطوات إلا فى الساعة التى أريدُ أن أخلوَ فيها بنفسى أو بكتابى. فما أكاد أنتعمُ بواحد منهما، فإن سكتُّ أغضبها سكوتى، وإن نطقتُ أغضبها حديثى. وإن قرأتُ فى كتابى ظنتْ أن المؤلفين ما ألفوا الكتب إلا نكاية بها لأستطيع أن أخذها متصاما أعتصمَ به من محادثتها ومسامرتها. فكان الكتابُ فى نظرها أعدى أعدائها، وأبغض الأشياء إليها. وجملة القول إنها ما كانت تستطيعُ أن تتصورَ إلاّ أن الله خلقها لتكونَ طفلة

(١) الأثرة : احتكار الشىء ، والاستئثار .

لاهيةً لاعبةً في جميع أطوار حياتها ، وأنه ما خلقني إلا لأكونَ زينة مجلسِها ، ودُمْيةَ[1] قصرها ، وأداةَ لهوِها ولَعِبِها ، فلا أقرأ ولا أكتب ولا أعطي نفسي حقاً من حقوقها، ولا أبكر لمزاولة أعمالي، ولا أسأمُ أحاديثها الطويلةَ المملّة التي لا تشتمل إلا على نقد الأزياء ، واغتيابِ النساء ، فان وافيتُ رغبتَها فذاك . وإلا استحالتْ في لحظة واحدة من إنسان ناطق إلى وحش مفترس . فلا تعرفُ كلمةً مؤلمة لا تُسمِعُنيها . ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تَهجُمُ بها عليّ . فكنتُ بين ألم رضاها وعذابِ غضبها في شقاء حبَّبَ إليّ الموتَ وبغّض إليّ وجه الحياة . وبعد فقد رأيت أن العيش معها مستحيل فلم أر بُدّاً من فراقها ففارقتها وما على وجه الأرض شيء أبغض إليّ من المجد . ولا أسمج في نظري من المال . قلت ولكنني لا أزال أراك حزيناً حتى الساعة. قال نعم لأني نفضت يدي من الزوجة الجاهلة.

(١) [illegible]

ورحتُ أفتشُ عن الزوجة المتسلمة. وقلت ليكونَنّ لى من الشأن فى الزواج الثانى ما لم يكن لى فى الزواج الأول. بعد ما صار إلىّ الخيار. وبعد تلك التجربة وذاك الاختبار. فهيأ لى الحظُّ جاراً ملاصقاً مازلتُ أسمع منذ حل فى جوارى أن فى بيته فتاةً جميلةً مازال يُعنى بأمرها حتى خرّجها[1] وأدبها. فأصبحت نابغةَ مدرستها. وسيدةَ أترابها، علماً وفضلا وتهذيباً وأدباً، فما قنعتُ بالخبر حتى خالطتُ أباها ثم خالطتُها فاذا المرأةُ الجديدةُ من جميع وجوهها، فوقعتْ من نفسى أحسن موقع، وحلّت مكاناً لم يكن خلاً من قبل

خطبتُ الفتاةَ إلى أبيها فما لبث أن أخطبنى[2] فامتلأ قلبى فرحاً وسروراً وخيّل إلىّ أننى أرى فى سماء الآمال نجماً لامعاً يُنير ظلمة حياتى. وسجلت أن الدهر أنشأ يُكفر بحسناته. ما أسلف من سيئاته، فإنى لكذلك وقد

(١) خرّج الأستاذ تلميذه هذبه وعلمه (٢) يقال خطب فلان إلى فلان فأخطبه أى أجابه

أعددتُ للبناء بها عُدّته ولم يبق بيني وبينه إلا يومٌ واحد إذا بالبريد قد هجم عليّ بهذا الكتاب، فها كَهُ فاقرأه، فإن فيه بقيةَ قصتي، وسرَّ نكبتي، ثم ألقى إليّ بكتاب معنون باسمه ففضضتُه فوجدتُ فيه بطاقةً تشتملُ على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصرُ فتاةً جميلة وقد ألقتْ برأسها على كتفِه ووجدتُ مع البطاقة كتاباً فقرأتُ فيه ما يأتي :

« علمتْ أنك خطبت فلانةً إلى أبيها وأنك عما قليل ستكونُ زوجها ولعمْري لقد كذَبَك نظرُك، وخدعك من قال لك إنك ستكونُ سعيداً بها . فإنها لن تكونَ لك بعد أن صارتْ لغيرك . ولا يخلص حبك إلى قلبها بعد أن امتلأ بحب عاشقها، فاعدلْ عن رأيك فيها، وانفضْ يدكَ منها . وإن أردت أن تعرف من هو ذلك العاشقُ وتتحقق صدقَ خبري وإخلاصي إليك في نصيحتي فانظرْ إلى الصورة المُرسلةِ مع هذا الكتاب

(التوقيع)

ثم نظرتُ الصورة وقرأتُ الكتاب حتى عرفتُ

كلّ شيء فأحسستُ برعدة تمشي في أعضائي وشعرت بسحابةٍ سوداء قد غَشَتْ على نظري لِهَوْل ما سمعت ، وسوء ما رأيت . إلا أنني تماسكتُ قليلا فأعدتُ إليه كتابَه وقلت له وهو كلٌّ ما استطعتُ أن أقول : ماذا يَعنيك من أمرِ فتاةٍ عاهر بعد ما انكشف لك سرُّها ، وظهرتْ لك حقيقتُها ، ولو كنتُ مكانك لَعدلتُ عن الحزن على موتها ، إلى الاستغفار من حبّها ، وحمدِ الله على ما ألهم من صواب الرأي فيها . أما إن سألتني عن رأيي في زواجك بعد الآن فإني لا أرى لك إلا أن تترهب وتتعزب[1] وأن تقول ما قاله « هملت » وقد زهد في الزواج بعد ما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيثة نفسها « إلى الدير ، إلى الدير » .

(١) تعزب أى عاش عزبا لا زوج

الرحمة

سأكون في هذه المرةِ شاعراً بلا قافية ولا بحر ، لأني أُريد أن أخاطبَ القلبَ وجهاً لوجه ، ولا سبيل الى ذلك إلاّ سبيلُ الشعر

إن البذورَ تُلقى فى الأرض فلا تنبتُ إلا إذا حرث الحارثُ تربتَها، وجعل عاليها سافلَها . كذلك القلبُ لا تبلغُ منه العظةُ إلا إذا داخلته . وتخللت أجزاءه و بلغت سُويداءه ، ولا محراثَ للقلب غيرُ الشعر

أيها الرجلُ السعيدُ كن رحيماً ، أشعِرْ قلبَك الرحمة . ليكن قلبُك الرحمةَ بعينها

ستقولُ إني غيرُ سعيد لأن بين جنبيّ قلباً يُلِمّ به من الهم ما يُلم بغيره من القلوب . أجلْ فليكن ذلك كذلك ، ولكنْ أطعِم الجائعَ واكسُ العاري وعزِّ المحزون وفرّج

كربة المكروب يكن لك من هذا المجموعِ البائس خيرُ عزاء يُعزيك عن همومك وأحزانك . ولا تعجبْ أن يأتيَك النورُ من سواد الحلك . فالبدرُ لا يطلع إلا إذا شق رداء الليل ، والفجرُ لا يدْرُج إلا من مهد الظلام

لقد بليتَ اللذاتُ كلُّها ورثت حبالها، وأصبحتْ أثقل على النفس من الحديث المعاد . ولم يبقَ ما يُعزى الانسان عنها إلا لذةٌ واحدةٌ هي لذةُ الإحسان

إن منظرَ الشاكر منظرٌ جميلٌ جذاب، ونغمةَ ثنائهِ وحمدِه أوقعُ في السمع من العُود في هَزَجه ورمَلِه[1] وأعذب من نغمات مَعبد في الثقيل الأول[2]

أحسنْ إلى الفقراء والبائسين . وأعدُك وعداً صادقاً أنك ستمرُ في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يُحدّث جارَه عنك من حيثُ لا يعلمُ مكانك . أنك أكرمُ مخلوق، وأشرفُ إنسان ، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء

(١) الهزج والرمل نوعان من الموسيقى (٢) معبد أحد مشاهير المغنين في العصر الأموي والثقيل الاول ضرب من ضروب الغناء

لك أن يَجزِيَك الله خيراً بما فعلت . فيدعو صاحبُه بدعائه ، ويرجُو برجائه ، وهنالك تجدُ من سرور النفسِ وحُبورها بهذا الذكر الجميل فى هذه البيئة الخاملةِ ما يجدُه الصالحون إذا ذُكروا فى الملأ الأعلى

ليتك تبكى كلما وقع نظرك على محزون أو مفؤود(١) فتبتسم سرورا ببكائك، واغتباطا بدموعك . لأن الدموع التى تتحدرُ على خديك فى مثل هذا الموقف إنما هى سطورٌ من نور تسجلُ لك فى تلك الصحيفةِ البيضاء أنك إنسان

إن السماء تبكى بدموع الغمام ، ويخفُق قلبُها بلمعان البرق، وتصرخُ بهدير الرعد، وإن الأرض تئنُّ بحفيف الريح وتضجُ بأمواج البحر، وما بكاء السماء ولا أنينُ الأرض إلا رحمة بالإنسان . ونحن أبناء الطبيعة فلنجارِها فى بكائها وأنينها

إن اليد التى تصونُ الدموعَ أفضلُ من اليد التى تُريق الدماء والتى تشرحُ الصدور أشرفُ من التى تبقَر البطون .

(١) مفؤود [illegible]

فالمحسنُ أفضلُ من القائد ، وأشرفُ من المجاهد ، وكم بين من يُحيي الميتَ ومن يميتُ الحيَّ

إن الرحمةَ كلمةٌ صغيرة ولكنّ بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في مَنظرها ، والشمس في حقيقتها

إذا وجد الحكيمُ بين جوانح الانسان صالتَه من القلب الرحيم وجد المجتمعُ صالتَه من السعادة والهناء

لو تراحم الناسُ لما كان بينهم جائعٌ ولا عارٍ ولا مغبونٌ ولا مهضوم . ولأقفرت الجفونُ من المدامع . ولاطمأنت الجنوبُ في المضاجع ولمحت الرحمةُ الشقاء من المجتمع كما يمحو لسانُ الصبح مدادَ الظلام

لم يخلق الله الانسان ليُقترَ عليه رزقَه . ولم يقذفْ به في هذا المجتمع ليموتَ فيه جوعاً ، بل أرادتْ حكمتُه أن يخلقَه ويخلقَ له فوق بساط الأرض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤونته ، ويسدُّ حاجته ، ولكنْ سلبَه الرحمةَ فبغَى بعضُه على بعض وغدر القويُّ بالضعف واحتجن

دونه رزقه فتغير نظامُ القسمةِ العادلة ، وتشوّهَ وجهُها الجميل ،
ولو كان للرحمة سبيلٌ إلى القلوب لما كان للشقاء إليها سبيل

الفردُ هو المجتمعُ وإنما يتعددُ بتعدُّد الصور ، أتدرى متى يكونُ الانسان إنساناً . متى عرَفَ هذه الحقيقةَ حق المعرفة وأشعرها نفسه فخفق قلبُه خفقان القلوب وسكن لسكونها ، فاذا انقطع ذلك السلكُ الكهربائىّ بينه وبينها انفرد عنها واستوحش من نفسه . وإذا كان الأُنسُ مأخذَ[١] الانسان لمجتمع فالوحشة مأخذُ الوحش المنقطع

وجماع القول أنه لا يمكن أن تجتمع رحمةُ الرحماء وشقوة الأشقياء فى مكانٍ واحد إلا إذا أمكن أن يجتمعَ فى بقعة واحدة الملَكُ الرحيمُ ، والشيطانُ الرجيم

إن من الناس من تكون عنده المعونةُ الصالحةُ للبر والاحسان فلا يفعل . فاذا مشى مشى متدفعاً متدلثاً[٢] لا يلوى على شىء مما حوله من المناظرِ المؤثرة المحزنة ، وإذا

(١) مشتق [illegible] (٢) [illegible]

وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلا الإغراب في الضحك سخرية به وببذاذة ثوبه ودمامة خلقه، وإن من الناس من إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درتهم[1] ويمتص دماءهم، ولا يعاملهم إلا كما يعامل شويهاته وبقراته، لا يطعمها ولا يسقيها إلا لما يترقب من الربح في الاتجار بألبانها وأصوافها، ولو استطاع أن يهدم بيتاً ليربح حجرا لفعل، وإن من الناس من لا حديث له إلا الدينار وأين مستقره وكيف الطريق إليه وما السبيل إلى حبسه والوقوف في وجهه والحيطة لفراره، يبيت ليله حزيناً كئيباً لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته أو يحلم في منامه أنه سيأتيه فلم يقيض له، وإن من الناس من يؤذي الناس لا يجلب لنفسه بذلك منفعة أو يدفع عنها مضرة بل لأنه شرير يدفعه طبعه إلى ما لا

(١) الدرة اللبن اذا كثر وسال

يَعرفُ وجهَه أو ليُضرِّى[1] نفسَه بالأذى مخافةَ أن ينساه عند الحاجة اليه ، حتى لولم يبق فى العالم شخصٌ غيرهُ لـكانت نفسهُ مدبَ عقارِبه وغرض سهامِه . وإن من الناس من إذا كَشف لك عن أنيابه رأيتَ الدمَ الأحمر يترقرقُ فيها ، أو عن أظافرِه رأيت تحتها مخالبَ حادةً لا تسترها إلا الصورةُ البشريةُ ، أو عن قلبه رأيتَ حجراً صَلداً من أحجارالغرانيت لا يَبِض[2] بقَطرة من الرحمة ، ولا تتخلّص إليه نسمةٌ من العظة

فيأيُّها الإنسانُ احذر الحذر كله أن تكون واحداً من هؤلاء فإنهم سباعٌ مفترِسة وذئابٌ ضارية ، بل أعظك ألا تدنوَ من واحد منهم أو تعترضَ طريقَه فربما بدا له أن يأكُلَك فأكلك غيرَ حافلٍ بك ، ولا آسفٍ عليك

أيها الانسان : إرحم الأرملةَ التى مات عنها زوجُها ولم يترك لها غيرَ صِبيةٍ صغار ، ودُموعٍ غِزار ، إرحمْها قبل

(١) يقال أضرى فلان كلبه بالصيد وضراه اذا أغراه به وعوده متابعته
(٢) بض : سال

أن ينال اليأسُ منها ويعبثَ الهمُّ بقلبها فتؤْثر الموتَ على الحياة

إرحم المرأة الساقطةَ لا تزينْ لها خلالَها ولا تشترِ منها عِرضَها علها تعجزُ أنْ تجد مساوما يساومُها فيه فتعود به سالما إلى كسر بيتها

إرحم الزوجةَ أمَّ ولدك وقعيدةَ بيتِك ومرآةَ نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفةٌ ولأن الله قد وكل أمرها إليك وما كان لك أن تُكذب ثقتَه بك

إرحمْ ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلا تفعلْ قتلتَه أو أشقيتَه فكنت أظلم الظالمين

إرحم الجاهلَ لا تحينْ فرصةَ عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم . ولا تتخذْ عقله مُتجَرا تربحُ فيه ليكونَ من الخاسرين

إرحم الحيوانَ لأنه يحسُّ كما تحس ويتألمُ كما تتألم ويبكي بغير دموع، ويتوجعُ ولا يكاد يُبين. إرحمه وكف من

يقول إن الانسانَ طُبع على ضرائب لؤم أقلها أنه يقبّلُ يدَ ضاربهِ ويضربُ من لا يمدُّ إليه يداً

إرحم الطيرَ لا تحبسها فى أقفاصها ودَعها تهيم فى فضائها حيثُ تشاء ، وتقعُ حيث يطيبُ لها التغريدُ والتنقير ، إن الله وهبها فضاء لا نهايةَ له فلا تغتصبها حقها فتضعها فى محبس لا يسعُ مدّ جناحِها ، أطلقْ سبيلَها وأطلق سمعَك وبصرَك وراءها لتسمع تغريدها فوق الأشجار وفى الغابات وعلى شواطئ الأنهر وترى منظرها وهى طائرة فى جو السماء فيُخيل إليك أنها أجملُ من منظر الفلك الدائر والكوكب السيار

أيها السعداء ، أحسِنوا إلى البائسين والفقراء ، وامسحوا دموعَ الأشقياء ، وارحمُوا من فى الأرض يرحمْكم من فى السماء

رسالة الغفران(١)

غفوتُ إغفاءةً طويلةً لا علم لي بمداها ولا بما وقع لي فيها ثم صحوتُ فرأيت نفسي في صحراء مدّ البصرِ مكتظةٍ(٢) بأنواعٍ من الخلق لا أحصيهم عددا، فعلمتُ أني بُعثت وأنه يومُ القيامة فساورني(٣) من الهم ما ساورني حين ذكرت أن مقداره ألف سنة من سني القيامة وقلتُ من لي بالصبر على موقف يهلكُ فيه صاحبُه ظمأً وجوعا، ويحترقُ تحت أشعة شمسٍ ليس بينه وبينها إلا قيدُ ظفر، فتماسكتُ بضعةَ أشهرٍ ثم لم أجدْ بعد ذلك إلى الصبر سبيلا فزينتْ لي نفسي الكاذبةُ أن أذهب إلى رضوان خازن الجنان، وكنت أحملُ شهادة التوبة في يدي لأسترحمه وألتمس منه الإذن

(١) للمعرى رسالة [illegible] (٢) مكتظة [illegible]
(٣) ساورني [illegible]

بالدخول قبل انفضاض المحشر ، فما زلتُ أرْقيه بقصائد المدح المُسَوَّمة[١] باسمه كما كنت أرقي بأمثالها أمثالَه من عظماء العاجلة وساداتها فما أَبه[٢] لي ولا فهم كلمةً مما أقول ، فانصرفتُ عنه إلى خازن آخر اسمه زُفَرُ فكان شأني معه شأني مع صاحبه إلا أنه كان أرقَّ منه وألينَ جانباً ، فأشار عليَّ بالذَّهاب إلى النبي الذي أتبعُه وأفهمني أن الأمرَ موكولٌ إليه ، فمدتُ وبين جنبيّ من الحسرة والألم ما اللهُ عالمٌ به ، فبينا أنا أتخللُ الصفوفَ ، وأزاحمُ الوقوف، إذ وقع نظري على حلْقة من الناس تحيطُ بشيخ هرِم أنعمتُ النظرَ فيه فاذا هو الشيخُ أبو على الفارسيُّ النحوي وإذا بالمحتفين به جماعةٌ من شعراء العرب كلُّهم يخاصمه وكلهم ينقِمُ عليه ، هذا يقول له رويت بيتي على غير وجهه ، وذاك يقول أعربتَه على غير ما أردتُ وذهبتُ ، فدفعني الفضولُ كما دفعهم إلى النزول في ميدانهم فما فرغنا من الرفع والنصب والزيادة

(١) مسومة معلمة (٢) أَبه حفل

والحذف حتى أدركتُ شؤمَ ما فعلت ، وعلمتُ أن شهادةَ التوبةِ قد سقطتْ مني في ذلك المعترك ، فقلت قبح الله الشعرَ والإعراب ، واللغة والآداب ، إنهما شؤمُ الآخرةِ والأولى

وقفت أحير من ضبّ في حمارّةِ[1] قيظٍ لا أدرى ما آخذُ ولا أدعْ حتى رميتُ بطرفي فاذا بأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب في لفيف من العترة الطاهرة النبوية فدَلفتُ[2] إليه وأبثثته[3] أمرى وأمرَ الشهادةِ المفقودة فقال : لا عليك ، ألك شاهدٌ بالتوبة ؟ قلتُ نعم ، فنودى بشهودى فشهدوا بتوبتى . فقال تربّثْ[4] قليلا حتى تمرّ فاطمة بنتُ محمدٍ فنسألها في أمرك . وهى تمتّ إلى أبيها بما لا تمتّ به[5] وكانت ممن قسم لهم دُخولُ الجنة قبل فصل القضاء إلا أنها كانت تخرجُ كلّ حين للتسليم على أبيها ثم تعودُ إلى مستقرها . فانا لكذلك وإذ تناد

(١) الحمّارة بالتشديد شدة الحر (٢) دلفت مشيت مشياً متقارباً (٣) أبثثته كاشفته به (٤) تربث أبطئ (٥) تمت بالشيء توسل به

ينادى أن غُضوا أبصارَكم يا أهل الموقف حتى تَعبُرَ فاطمةُ بنتُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم فهرعتُ اليها فرأيتها راكبةً مع إخوتها وجواريها على أفراسٍ من نورٍ وتقدّمَ من وعدنى بسؤالها فى أمرى فأنجز وعدَه ، فقالت لأخيها إبراهيمَ دونَك الرجل، فقال تعلقْ بركابى فتعلقتُ فطارت الأفراسُ فى الهواء تقطعُ الأجيالَ وتتخطى رءوسَ القرونِ حتى وافينا محمداً صلى الله عليه وسلم واقفاً لشهادة القضاء فقصت عليه فاطمةُ ما علمتْ من أمرى ، فراجع الديوانَ الأعظمَ فوجد اسمى فى التائبين فشفع لى فعدتُ فى ركبِ فاطمةَ فرِحاً مستبشراً وما كنتْ أُقدّرْ أن بين يديّ عقبةَ الصراط . فلما وافيته وجدتنى لا أستمسكُ عليه لرقّته ، فأمرتْ فاطمةُ جاريةً من جواريها أن تعبُرَ معى فأمسكتْ يدى . فشيتْ أترجّحُ ذاتَ اليمينِ وذات الشمال . وخفتُ السقوط فقلتْ لها احملنى زففونه ، فقالت وما زففونه ؟ فقلتْ أما سمعت قول الجحجلولِ من أهل كفر طاب :

صلَحت حالتى إلى الخلْف حتى
صرتُ أمشى إلى الورى زَقفونه

فقالتْ ما سمعتُ بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر طاب ، فقلتُ ألقى يدىّ فوق كتِفيك وأجعلْ بطنى إلى ظهرك . فحملتْنى وجازتْ بى الصراطَ كالبرقِ الخاطفِ حتى صرتُ إلى باب الجنة ، فرُمتُ الدخولَ فوقف رضوانْ فى وجهى وقال أين جوازك[١] فبَعلت[٢] بالأمر ثم رأيت فى دهليز الجنة شجرةَ صَفصاف فسألتُه على أن يعطينى منها ورقةً أعودُ بها إلى الموقف لأستكتب عليها الجوازَ فأبى ، فقلت وقد ملك الهمّ علىّ رشدى وصوابى أما والله لو أنك حارسٌ على أبواب الكرماء . أو خازنٌ لخزائنِ الملوك والأمراء ، ولما وصل شاعرٌ إلى درهم ولا سائلٌ إلى سُحنوت[٣] ولهلك الفقراء بؤسا وجوعا ، فسمع إبراهيمْ

(١) الجواز صك للمسافر (٢) بعل بأمره برم به فلم يدر ما يصنع فيه
(٣) السحنوت فى الأصل السويق القليل الدسم ثم أطلق على كل شيء قليل

عليه السلام حوارى[١] فجذبنى جذبة حصّلنى بها فى الجنة وصاحبى ينظرُ إلىّ شزَرا . فدخلتُ فرأيتُ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطرَ على قلب بشر

رأيت أنهارا من الماء العذْبِ أصفى من أديم السماء ، وأصقلَ من مرآة الحسناء . تنصبُّ فيها جداولُ من الكوثر إذا جرَعَ الشاربُ منها جَرعةً جرع ماء الحياة وأمِن أن يذوقَ كأسَ المنون مرةً أخرى ، ورأيتُ جداول تفيض بالراح فيضاً قد زُينتْ حوافيها بأباريق من العسجد . وكؤوس من الزَّبرْجَد ، فما نهلتُ منها نهلةً حتى قلتُ لو كُشف لأهل العاجلة عما فى هذه الخمرة من اللذة التى لا يشوبها كدرٌ . والنشوةِ التى لا يعقبها خمار[٢] ما باعوا قطرة منها بكل ما تشتملُ عليه بابل وقطربُل[٣] من البواطى[٤] والدنان . ولو نظر الأقيشرُ الأسدى بعين الغيب إلى عسجد هذه الأباريق وزبرجدِ

---

(١) حور : [illegible] (٢) خمار : صداع الخمر (٣) بلد معروف بالخمور الجيدة [illegible] (٤) [illegible]

تلك الكؤوس تخجل من نفسه أن يقول :

افنى تلادى وما جمعتُ من نشَب

قرعُ القوازيز[1] أفواهَ الأباريق

وفي تلك الأنهار آنيةٌ ترفرفُ فوق سطحها على صُورَ الطيور كالكراكي والطواويسِ والبط والعندليبِ ينحدرُ من مناقيرها شرابٌ ، أرقُّ من السراب ، وتسبحُ فيها أسماكٌ من الذهب والياقوت

يعُمْن فيها بأوساطِ مجنَّحةٍ[2]

كالطير تنفضُ في جوٍّ خوافيها

ورأيت أنهارا من لبن وأنهارا من عسل لا يدركُ الوهم كنهه إلا إذا أدرك ما يمتصُّ نحل الجنة من أزهارها وأنوارها

رأيت جميع تلك الأنهار مكبّرةً ثم تمثلت في صُوَرٍ مصغرةً . فإذا هي سطورٌ ، من النور ، وأحرف يبصرها ،

(١) القوازيز جمع قرورة وهي قدح الشرب (٢) مجنحة ذات أجنحة

فى صحيفة خضراء، قرأتُها فرأيتُها « مثَلُ الجنةِ التى وُعِد المتقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيرْ طعمُه، وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين، وأنهارٌ من عسلٍ مُصَفّى، ولهم فيها من كلّ الثمرات »

ظللتُ أمشى فما أكاد أخطو خطوةً حتى أرى منظراً عجبا يُنسى السابقَ ويشوقُ إلى اللاحق، فوددت لو طُويتْ لى الارضُ طيّاً فأتعجل النظرَ إلى ما غاب عنى من الجنة وبدائعها. فما أخذ هذا الخاطرُ مكانَه من نفسى حتى رأيتُ بين يدىَ فَرَسا من الجوهر المتخير مسرجًا ملجمًا فعلمت أنى قد سعِدتُ وأنها الأمنيةُ التى كنتُ أتمناها فعلوتُ ظهرَه وغمزتَه غمزةً خرج بها خروجَ الودْق[1] من السحاب. والسيف من القراب[2]. وعلى ما جهَدتُه لم يشك إلىّ ما شكاه جوادُ عنترةَ العَبْسىِّ إليه فى قوله:

فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا إلىّ بعبرة وتحمحم

---

(١) [illegible] (٢) [illegible]

أو ما شكاه جوادُ عمرَ بن أبي ربيعةَ إليه في قوله ·

تشكَّى الكُميتُ الجرىَ لما جهدتُه
وبيّن لو يستطيعُ أن يتكلما

ذكرتُ أني وأنا في الدار الفانيةِ كنتُ أسمعُ بذكر الذاهبين الأولين من الأدباء والشعراء والرُّواة فآسفُ على أن لم أكنْ في زمنهم أراهم وأحضر مجالسهم فقلت ليت شعري ما فعل اللهُ بهم في هذه الدار، وهل سعدوا أو شقَوا، وهل يُقَيِّض لي من رؤيتهم في دار البقاء، ما لم يُقيضْ في دار الفناء؟

ثم رميتُ بطرْفي فإذا فارسٌ يُحضر فرسه(١) في الهواء إحضاراً حتى تقاربنا فتماست الركب واختلفت الأعناق فقال أنتسبْ. فقلت فلان. ومن أنت يرحمُك الله وقد فعل، فقال عدى بنْ زيد العبادى. فدهشتُ وقلت عدى

(١) أحضر الفرس ارتفع في عدوه

ابنُ زيد فى الجنة بعد الزَّيغ والضلال ، فقال أنا عِيسوىٌّ وأنت محمدىّ وليس لصاحبك على أحد حُجةٌ إلا بعد ظهوره وبلوغِ دعوته ، فقلتُ لا نكران ولكن كيف لم يَقصد بك فسقُك وشرابُك ، وأينَ استهتارُك فى قولك :

بكرَ العاذلون فى وضَح الصبح
يقولون لى أما تستفيق
ودَعَوا بالصبُوح فجرا فجاءتْ
قينةٌ فى يمينها أبريق

قال غفر الله لنا ما غفر لكم ، قلتُ هل لك علمٌ بجماعة الشعراء والرُّواة فقد تمنيتُ على الله أن أراهم فكنت عُنْوانَ الكتاب وفاتحةَ الاجابة. فقال اصحبْنى ، فطارتْ بنا الخيلْ. فقلتُ له هل آمَن ألا يقذف بى هذا السابحُ على صَخْرة من زمرد أو هضبة من اليافوت فيكسرَ لى عَضُدا أو ساقا ؟ فتبسم وقال أين يُذهبُ بك نحن فى دار الخلود والبقاء

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير، تجرى على شاطئه جمع كثير على سُرُر متقابلين . أو على الأرائك متكئين، فهوى صاحبي بفرسه فهويت هَوِيَّة وقلنا سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدار، فرحبوا بنا وهشوا للقائنا وانتسبنا فتعارفنا ثم أخذوا فيما كانوا فيه فاذا الأصمعى يُنشِدُ مروياته وأبو عبيدة يسردُ وقائع الحروب ومقاتل الفُرسانِ وإذا سيبويه والكسائى متصافيان بعد أن وقع بينهما فى مجلس البرامكةِ ما وقع وأحمد بن يحيى لا يضمر لمحمد بن زيد من المَوجده ما كان يضمر ، وأخذت تهب من ناحية النهرِ نفحةٌ عطرية ذكرتنى بقول الأعشى ميمون «مثلُ ريح المسك ذاك ريحها» وعلى ذكر الاعشى ذكرت «مصرعه وشقاءه» وقلتُ فى نفسى لولا أن قريشا صدته عن الإسلام لكان اليوم بيننا فى مجلسنا هذا . فسمعتُ هاتفا من ورائى يقول أنا بينكم وفى مجلسكم ، فالتفتُ فاذ الأعشى ميمون ، فلم أدر من أى مدخليه[1] أعجب ! أمن

(١) المدخل مصدر ومحل كالمدخول

مَدْخَلِه إلى الجنة ، أم من مدْخَله إلى نفسى، وعلمِه بما هجس في صدرى ؟ فعلمتُ أن أهل الجنة مُلْهمون ، ثم سألته كيف غُفر لك فقال سحبتْنى الزبانيةُ إلى سقَر فرأيت فى عَرصات القيامةِ رجلا يتلألأُ وجهه تلألؤَ القمر والناسُ يهتفون به من كل جانب: الشفاعةَ يامحمد ، فأخذتُ إخذَهم،وهتفتُ هتافهم ، فأمر أن أدنوَ منه فدنوتُ فسألنى ما حُرْمَتُك ؟ فقلت أنا القائل :

ألا أيُّهذا السائلى أين يَممت
فان لها فى أهلِ يثربَ موعدا
فآليتُ لا أرثى لها من كلالة
ولا من وجىً حتى تلاقى محمدا
متى ما تُناخى عند بابِ ابن هاشم
تُراحى وتلقى من فواضله ندا
نبىّ يرى ما لا ترون وذكره
أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

فقال ما سمعتُها منك قبل اليوم ، قلتُ خدَعني عنك الناسُ بعد ما شددتُ راحلتي إليك وكنتُ رجلاً أُحب الشرابَ وخفتك عليه أن تفرق بيني وبينه ، فشفع لي . فدخلتُ الجنةَ على ألا أذوق فيها الخمر فقنعتُ بالرُّضاب ، عن الشراب . وبناءِ الثَّغر المنضود ، عن ماء العُنقود . ورأيت بجانبه شابا ريِّقَ الشباب فسألتُ عنه فقيل لي زهيرُ بنُ أبي سُلمى فما كدتُ أُصدّق أنه القائلُ :

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يعش
ثمانين حولاً لا أبا لكَ يسأمِ

فقلتُ له بمَ غفر اللهُ لك ، فقال كنتُ في جاهليتي أترقبُ مبعث محمد وأتمنى البقاء حتى أراه فحال بيني وبينه الموتُ فأوصيتُ به ابني كعبا وبُجيرا . وكنتُ أُومن بالحساب فما نفعني شيء مانفعني قولي :

فلا تكتُمُنَّ اللهَ ما في نفوسكم
ليَخفَى ومهما يُكتمِ اللهُ يعلمِ

يؤخرْ فيوضعْ فى كتاب ويُدخر

ليومِ الحسابِ أو يُقدّم فيُنقَم

وإلى جانب زُهير عَبيد الأبرص فسألتُه عن مَصير أمره فقال كُتبتْ لى النارُ فما زال الناسُ يهتفون بقولى :

من يسألِ الناسَ يَحْرِموهُ   وسائلُ اللهِ لا يَخيب

والعذاب يُخفّف عنى شيئًا فشيئًا حتى خرجتُ ببركة هذا البيتِ من الجحيم ، إلى النعيم

ذهبنا فى الحديثِ كلّ مَذهب وذهب بعضُنا إلى ارتشاف الخمر . من النهر . فى آنيةِ الدُر ، فانتشينا جميعا فما أفقْنا إلا على حفيفِ رَفٍّ[1] من إوَز الجنة نزل بنا ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف والهزَجَ فما أتيْن على الألحانِ الثمانيةِ حتى دارتْ بنا الأرضْ الفضاء ، وحتى مَلكْنا من الطرب ما يستخفُّ الحلوم . ويطير بالهموم . وقلنا لو علم جَبلةُ

(١) الرف القطيع من طير

ابنُ الأبهم بما نحن فيه لَقَرَعَ السنّ على أن باعَ دينَه بسرور محدود ، وأُنس ممدود ، ودُفّ وعُود

ذكرت جبلة فذكرتُ لذكره النار ، وقوله تعالى « فاطّلع فرآه فى سواء الجحيم » فتمنيت أن أطّلِعَ فأرى المعذَّبين كما رأيتُ المنعمين ، فأُلهمت الإذنَ فأشرتُ لصاحبي فقام وقمتُ وركبنا فرسَينا فطارتا بنا حتى انتهينا إلى سور الجنه فرأينا عنده من الداخل كوخا يسكنه شيخٌ رزىّ الهيئة فأشرفْنا عليه فقال لاتعجبوا الشأنى أنا الحُطيئةُ ووالله لولا أنى صدقتُ مرهً واحده فى حياتى فى قولى :

أرى لى وجها شوّه اللهُ خلقَه

فقبّح من وجه وقبّح حامله

لما دخلتُ الجنة . ولمّا أدركتُ كوخا ولا جُحْرا ، فتركناه واطّلعنا فإذا نحن بأهلِ النار حتى صجّوا بصوت واحد « أنْ أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » ورأينا ملوكا وأكاسرة يتضاغَون[1] فى السلاسل والأغلال

(١) [illegible]

ويقولون « ربنا أرجعنا نعملْ صالحاً غيرَ الذى كنا نعملُ »
فيهتف بهم هاتف « أولم نُعَمِّرْكم ما يتذكرُ فيه من تذكَّر
وجاءكم النذيرُ فذوقوا فما للظالمين من نَصير »

ورأيتْ بجانبي امرأةً تبينتُها فاذا هى الخنساء تطَّلع
مثلنا فترى رجلاً كالجبل الأشم على رأسه شعلةٌ من النار
فتمتعضُ وتقول ياصخرُ هذا تأويلُ قولى فيك من قبل :

وأنّ صَخرا لتأتمُّ الهداهُ به كأنه عَلَمٌ في رأسه نار

ورأيتْ هناك كثيرا من أمثال امرئ القيسِ وعنترةَ
وعَمرو بن كُلثوم وطَرَفه بن العبد ورأيت بشاراً بن بُرْد
تفقئ عيناه بكلاليب من نار وكلما اشتد به الألمُ رفس ابليسَ
برجله وقال له ما كنتُ لِأدخل النارَ لولا قولى فيك :

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدم فتبينوا يامعشرَ الأشرارِ
النارُ عنصرُه وآدم طينةٌ والطين لايسمو سُمُوّ النار

وجزعنا من المنظر فهممنا بالرجوع وإذا إبليسُ يهتفُ
بنا يا أهلَ الجنةِ بلغوا عنى آباكم آدمَ أنى لم أدخل النارَ بسببه

حتى أخذتُ مني أكثرَ ولده وأفلاذ كبده . فلا يهنأ كثيرا بمصيرى . فقلنا قبحه الله ما يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم فما كان لنا هم بعد رجوعنا إلا لقاء أبينا عليه السلام فلقيناه فبلغناه الرسالةَ فقال وارحمتاه له ، ما كان بينه وبين الإيمان إلا القليلُ ، فأرداه الحسدُ فكان من المهلكين . فقبلنا يده وانصرفنا إلى ما أعدّ الله لنا من مُلك كبير وجنةٍ وحرير . وحُور وولدان ، كأنهنّ الياقوت والمرجان ، فحمدنا الله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

عبرة الدهر

بنى فلانٌ فى روضةٍ من رياض بساتينه الزاهرةِ قصراً فخماً يتلألأ فى تلك البقعةِ الخضراء تلألؤ الكوكب المنيرِ فى البقعة الزرقاء ، ويطاول بشُرُفاته الشمّاء ، أفلاكَ السماء ، كأنه نَسر محلّقٌ فى الفضاء ، أو قُرط معلّق فى أذن الجوزاء ، وكأن شُرُفاته آذان تُفضى إليها النجومُ بالأسرار .

وطاقاتِه أبرجٌ تتنقلُ فيها الشموسُ والأقمار

شاده مرمراً وجلله كلساً(١) فللطير فى ذُراه وُكور

ولم يدعْ ربسةً لمصوّر ولا ليقةً(٢) لرسّام إلا أجراها فى سقوفه وجُدرانه . وطاقاته وأركانه ، حتى ليخيّل إلى السالك بين أبهائه(٣) وحُجراته ، ومَحاريبه وعَرَصاته(٤)

---

(١) الكلس المسروج ... (٢) ليقة الدواة صوفتها ويتخذها الرسام عند لجم أحلامه ... (٣) الأبهاء جمع بهو وهو البيت المقدم أمام البيوت (٤) المحاريب صدور البيوت والعرصات جمع عرصة وهى ساحة الدار

أنه ينتقلُ من روضةٍ تزهر بالورود الحمراء . والأنوارِ البيضاء ، إلى بادية تسنحُ فيها الذئابُ الغبراء . والنمورُ الرقطاء . ومن ملعبٍ تصيدُ فيه الظباءُ الاسود . إلى غاب تصيد فيه الأسودُ الظباء . وأنشأ فى كبرى ساحاته ، وأوسعِ باحاته ، صهريجا من المرمر مستديرا يضمُّ بين حاشيتيه فوارة تفرُّ منها الماء صُعُدًا كأنه سيفٌ مجرّدٌ ، أو سهمٌ مسدد . فيخيّل إلى الرائى أن الأرض تثأر لنفسها من السماء ، وتتقاصاها ما أراقتْ منها من الدماء ، تلك تقاتلها بالرجوم والشهب . وهذه تحاربها بالسهام والقضب ، وغرس حول دائرة الصهريج دوائر من شجرات ، مؤتلفات ومختلفات . وأغصان ، صنوان وغير صنوان . قد تحتها ستائر الأسحار ، رفعت فوق بساط الأزهار ، وتحت ظلال الأثمار . فغنّت على رقص الأطيار ، غناء لا عارف لغناء الأوتار . وادّخر فيه لعبه ولهنيه[1] ماست... ته

(١) لهيه عش جاءه

أن يدّخرَ من نضائدَ[١] ومقاعدَ ، ووسائدَ ومسانِد ، وفَرْشٍ وعَرش ، وكِلل[٢] وحَجَل[٣] ، وتماثيلَ وتهاويل[٤] وصِحافٍ من ذهب ، كاللهب ، وأكوابٍ من بلُّور ، كالنور ، وأقفاصٍ للحمائم والنسور ، ومقاصيرَ للسباع والنمور ، وعرباتٍ وسيارات ، وجيادٍ صافنات ، ووصائفَ وولائد ، تحيطُ بالمجالسِ والموائد ، إحاطةَ القلائد ، بأعناق الخرائد ، وخدَمٍ حِسان ، تتنقّلُ فى الغُرَف والقيعان ، تنقل الوِلدان فى غرف الجنان

فى ليلة من ليالى الشتاء حالكةِ الجلْباب ، غُدافيةِ[٥] الإهاب ، أفاق صاحبُ القصرِ من غَشيته فتحركَ فى سريره وفتح عينيه فلم يرَ أمامه غيرَ خادمه « بلال » وهو خصىٌّ أسودُ من ذوى الأسنان رباه صغيرا وكفله كبيراً . وكان يجمعُ بين فضيلتى الذكاء والوفاء . فأشار إليه إشارةَ الواله

(١) النضائد جمع نضدة وهى الوسادة (٢) جمع كلة بالكسر وهى الستر الرقيق (٣) جمع حجلة بفتحتين وهى ستر عروس فى جوف البيت (٤) التهاويل النقوش والصور لا تهويل من منظرها (٥) الغداف الغراب الاسود وليلة غدافية شديدة السواد

المتلهف أن يأتيه بجَرعةِ ماء، فجاءه بها فتساند على نفسه حتى شرب وكأنّ الماء قد حلّ عُقدةَ لسانه فسأله في أية ساعه من ساعات الليل نحن يابلال؟ فأجابه نحن في الهزيع الأخير ياسيدى ، فقال ألم تَعُدْ سيدتُك إلى الآن؟ قال لا. فامتعض امتعاضا شديدا وزَفَر زفرةً كادتْ تخترقُ حجابَ قلبِه ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدثُ نفسَه ويقول : إنها تعلمُ أنى مريض وأنى فى حاجة إلى من يسهر بجانبى ويتعهدُ أمرى ويُرَفهُ[1] عنى بعضَ ما أعالجه ،وليس بين سكان القصر من هو أولى بى وأقوَمْ علىّ منها ، أين وفاؤها الذى كانت تزعمه وتقسِم لى بكل مُحرجٍ من الأيمان عليه ؛ أين حبُّها الذى كانت تهتفُ به فى صباحها ومسائها وبكورِها وأصائلها أين النعيمُ الذى كنت أقلبُها فى أعطافه والعيشُ الرغْد الذى كنتُ أُرشِفُها كؤوسه ؛ ألأن علمتْ أنى أصبحتُ بين حياةٍ لا أرجُوها وموت لا أجدُ السبيل إليه رمت[2] بى

(١) رفه عنه نفس عنه وخفف (٢) رمى به تركه وصدف عنه

واستثقلتْ ظِلي واستبطأتْ أجلي واستطالت ضِجعتي فهي تفرُّ من وجهي كلَّ ليلةٍ إلى حيثُ تجدُ لَذاتِ العيش ومواطنَ السرور . آه من العيشِ ما أطولَه . وآه من الموت ما أبعدَه!!

وما زال يُحَدِّثُ نفسَه بمثل هذه الأحاديثِ حتى هاجَ ساكنُه واضطربتْ أعصابُه فعاودتْهُ الحُمّى وغلى رأسُه بنارِها غَليانَ القدر بمائها ، فسقط على فراشه ساعةً تجرع فيها من كأس الموتِ جُرَعاً مريرةً بَيْدَ أنه لشقائهِ لم يأتِ على الجَرعة الأخيرةِ منها

أفاق من غَشيته مرة ثانيةً فلم يرَ بجانبه تلك التي تسيلُ نفسُه حسراتٍ عليها . فسأل الخادمَ ألا تعلمْ أين ذهبتْ سيدتك يا بلال ؛ قال : خير لك ألا تنتظرَها يا مولاي وألا تلومَها في بُعدها عنك فإنَّ لها عند بعض الناس دَيْنا فهي تخرُجُ كل ليلة لتتقاضاه . قال ما عرفتُ قبل اليوم أن بينها وبين أحد من الناس شيئا من ذلك ، ومتى كان الدائن يتقاضى دينه في مثل هذه الساعةِ من الليل . وهل أعياها

أن تجدَ من يقومُ لها بذلك فهى تتولاه بنفسها ؛ وهلّا فرغتْ من أمر دَيْنها بعد اختلافها إليه سنةً كاملة ؟ قال إن بينها وبين غريمها صكا مكتوبا أن يؤدى ما عليه من الدَّين نجوما[1] فى كل ليلة نجم ، على أن تتناوله بيدها . وأن تكون مواعيدُ الوفاء أُخريات الليالى . قال ما سمعتُ فى حياتى بأغربَ من هذا الدَّينِ ولا بأعجبَ من هذا الصك . ومن هو غريمها ؟ قال أنت ياسيدى . فنظر إليه نظرة الحائر المشدوه[2] وقال إنى أكاد أُجن لغرابة ما أسمع . وأحسبُ أنك هاذ فيما تقول أو هازىء . فدنا منه الخادمُ وقال والله ياسيدى ماهَزِئت فى حياتى ولا هذيت . ألا تذكرُ تلك الليالىَ الطِّوال التى كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة تطلُبُها ، وكأس تشربُها ، وملاعب تجرّ فيها أذيالك ، ومراقص تَهتكُ فيها أموالك ، تاركا زوجتك فى هذه الغرفةِ على هذا السريرِ تشكو الوحشةَ ، وتبكى الوحدة ،

(١) النجوم الاقساط (٢) المشدوه المدهوش

وتتقلب على أحرّ من الجمر شوقاً إليك ، ووَجداً عليك ، فلا تعود إليها إلا إذا شاب غرابُ الليل ، وطار نَسرُ الصباح ، إنك سلبتها تلك الليالىَ السالفةَ فأصبحتَ غريمَها فيها فهى تستردُّها منك اليوم ليلةً ليلة حتى تأتىَ عليها ، ذلك هو دَينُها وهذا هو غريمُها ، ألا تذكرُ أنك كنتَ فى لياليك هذه ربما تحبِس الزوجةَ عن زوجها وتَعلِكُها عليه وهو واقفٌ مَوقِفَك هذا فى حسرتِك هذه يبكى ماتبكى ويندب ما تندُب ، ذلك الزوجُ هو الذى يتقاضاك اليومَ حقه ويأبَى إلا أن يأخذَه عينا بِعين ونَقدا بنقد ، فهو يَفجعُك فى زوجتك كما كنت تَفجعُه فى زوجته ويُقِضُّ[1] مضجعَك كما كنتَ تقضُّ مضجعَه ، وأنا أعيذُك بعدلِك وإنصافك أن تكون من لُواة الدين أو تكون من الظالمين

قال حَسبُك يابلالُ فقد بلغتَ منى ، وإن لى فى حاضرى مايشغلنى عن ماضىّ فدعْ لى ولدى . قال لمْ يعدْ ياسيدى

(١) أقض مضجعه جعله خشنا ،

من الوجه التي يمتّه فيه حتى الآن ، قال لا أذكرُ أني امتّه في وجه ما وأين ذهب : إلى الحانة التي يختلفُ إليها . ولن يرجع منها حتى يرتوي ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع . إني طالما وقفتُ بين يديك يامولاي ضارعا إليك أن تحول بينه وبين خُلَطاء السوء وعشراء الشر حتى لا يُفسدوه عليك فكنت تُعرض عني إعراضَ من يرى أن تدليل الولد وتَرْفيهَهُ (١) وإرخاء العنان له عنوانٌ من عناوين العظمة ومظهرٌ من مظاهر الأبهة والجلال . كنتُ أسألك أن تعلّمَه العلم وأن تهديَه إلى طريق المدرسة ليضلّ عن طريق الحانة ، فكنت ترى أن الذي يحتاجُ إلى العلم إنما هو الذي يرزقُ منه . وأن ولدك عن ذلك من الأغنياء . فلا شكّ من عمل يديك . ولا تبك من جناية جنتها عليك ، فأنت الذي أرسلته إلى الحانة وأنت الذي أبقيته فيها إلى مثل هذه

(١) [illegible]

الساعةِ من الليل ، وأنت الذى أبعدتَه عن فراشك أحوجَ ما كنتَ إليه

وما وصل الخادمُ من حديثه إلى هذا الحد حتى نَصل الليلُ من خضابه واشتعل المبيضُ فى مسودّه وإذا صوتُ الناعورة يرنُّ فى بستان القصرِ رنين الثكلى فقدت واحدَها ، فقال السيدُ هات يدَك يا بلال واحملنى إلى جوارِ النافذةِ لأروّحَ عن نفسى بعضَ ما ألمّ بها أو أودعَ إلى جانبها نسمات الحياة ، ثم اعتمدَ على يدِه حتى وصل إلى النافذة فجلس على متكأ طويل وألقى على البستان نظرةً طويلة فرأى البستانىّ وزوجه جالسَين إلى الناعورة وقد برقت بوارقُ السعادة من خِلال أثوابهما البالية بَريقَ الكواكبِ المُنيرةِ من خِلال السُّحُبِ المتقطعة . رآهما متحابين متعاطفَين لا يتعاتبان ولا يتشاحان[1] ولا يشكوان همًّا ولا يندبان حظًّا ، رآهما قويين نشيطَين يجرى دمُهما فى عروقهما صافيًا

(١) من المشاحة وهى المخاصمة والعداوة

متسلسلا وكأنهما يحاولان أن يخرجا من إهابهما[١] مرحا ونشاطا، رآهما راضيين بما قسم الله لهما من خشونة الملبس وجشوبة[٢] المطعم فلا يتشهيان ولا يتمنيان ولا ينظران إلى ذلك القصر الشامخ المطلّ عليهما نظرات الهم والحسرة سمعهما يتحدثان فأصغى إليهما فإذا البستاني يقول لزوجه: والله لو وهب لي هذا القصر برياضه وبساتينه، وآنيته وخرثيه[٣]، على أن تكون لي تلك الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة في منقطع العمران. على البقاء في مثل هذا المكان. أقاسي تلك الهموم والأحزان، فقالت لا أحسب أن سيدنا ينجو من خطر هذا المرض فقد مرّ به على حاله تلك عامٌ كامل، وهو يزداد كل يوم ضعفا ونحولا. قال قد علمت أن الطبيب قد نفض يده من الرجاء فيه وأضمر اليأس منه ولا عجب في ذلك فإنه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها مذاهب كلها حتى قتلها. قالت

(١) [illegible] (٢) [illegible] (٣) [illegible]

ما أشقاه . أكانت نفسه عدوة إليه يجني عليها هذا الشقاء ، وذلك البلاء . قال ما كان عدوا لنفسه . ولا كانت نفسه عدوة إليه . ولكنه كان رجلا جاهلا مغرورا ، غره شبابه . وماله . وعزه وجاهه . فظن أنه قد أخذ على الدهر عهدا بالسلامة والبقاء . فانطلق في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى سقط في الحفرة التي احتفرها لنفسه . قالت أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده . قال لا أعلم إلا أنه سيكون لولده . قالت ولكني أعلم أنه سيكون لفلان ، قال إن فلانا ليس وريث السيد بل صديقه . قالت إنه ليس بصديق السيد بل صديق السيدة فهو خاطب زوجته قبل وفاته ، وزوجها بعد وفاته

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطرابا شديدا وسقط عن كرسيه وهو يقول : أشهد أني من الأشقياء . وما زال في غشيته تلك حتى صحا صحوة الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم :

رأى ولده لاهياً بمحادثة فتاة من فتيات القصر .
ورأى زوجته تضاحك ترْباً من أترابها وتغمزها بطرْفها أن قد حان حينُه ودنا أجلُه ، ورأى صديقه أو ولى عهده يأمرُ فى القصر وينهى ويتصرفُ تصرُّف السيد المطاع ، ورأى نفسه يُعالجُ سكرات الموت ويعد عدته للانتقال من القصر إلى القبر . وهنا سمع كأن هاتفا يهتف به من السماء ويقول أيها الرجلُ . لو وفيتَ لزوجك لوفتْ لك ، ولو أدّبتَ ولدك لعناه أمرُك . ولو أحسنت اختيار صديقك ماخانك . ولو رحمْت نفسك ماخسرْت حياتك . فأغمض عينيه وهو يقول « فلتكن مشيئةُ الله »

وهكذا فارق هذا المسكينُ حياته مفجوعا بروحه وولده . وصديقه ونفسه ، وسلطانه وقصره

ربَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا يشربون الخمرَ بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهرُ حالٌ بعد حال

أفسدك قومك

أيها المجرمُ لستَ كالمالكِ الذي يسلبُ الخزائنَ نفائسَها ، ولا الأجسامَ أرواحها . لستُ أحمل عليك من العتب فوق ما يحتمله ذنبُك ، ولا أنظر إليك بالعين التي نظر بها إليك القاضي الذي قسا في حكمه عليك ، لأني أعتقدُ أن لك شركاء في جريمتك . فلا بد لي من أن أنصفك . وإن كنتُ لا أستطيعُ أن أنفعك

شريكك في الجريمة أبوك لأنه لم يتعهدك بالتربية في صغرك ولم يحل بينك وبين مخالطة المجرمين ، بل كثيرا ما كان يُعجب[1] لك إذا رآك هجمتَ على تِربك وضربتَه ، ويصفقُ لك إذا رآك قد تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك ، أو خطف لقمة من يده . فهو الذي غرس

(١) [illegible]

الجريمةَ فى نفسك وتعهدَها بالسُّقيا حتى أينعتْ ونمَتْ وأثمرتْ لك هذا الحبلَ الذى أنت معلقٌ به اليوم ، وهاهو ذا الآن[1] يذرفُ عليك العبرات ، ويصعّدُ الزفَرات . ولو عرف أنها جريمتُه وأنها غرسُ يمينهِ لَضحِك مسرورا لغَفلة الشرائع عنه وسجد لله شكرا على أن لم يكن حبلُك فى عنقه وجامتُك فى يده

شريكُك فى الجريمة هذا المجتمعُ الإنسانىُّ الفاسدُ الذى أغراك بها ، ومهّد لك السبيل إليها ، فقد كان يسميك شجاعاً إذا فتكتَ ، وذكيّ الفطن إذا سرقت ، وعالماً إذا احتلت ، وعاقلا إذا خدعت ، وكان يهابك هيبته للفاتحين ، ويجلك إجلاله للفاتحين ، وكثيراً ما كنت تحب أن ترى وجهك فى مرآته فتراه وجهاً أبيضَ ناصعاً فتتمنى أن لو دام لك هذا الجمالُ ولو أنه كان يؤثر نصحك ويَصدُقك الحديثَ عن نفسك لمثّل لك جريمتك بصورتها الشوهاء .

(١) جمعة ص

وهنالك ربما وددت بجدع الأنف لو طواك بطنُ الأرض عنها، وحالت المنية بينك وبينه

شر كلك و لحريته حكومتُك لأنها كانت تعلمُ أن حريته هي الحلقة الأخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات وكانت تمسكُ بها حلقة حلقة وتعلم ما سينتهي إليه أمرك فلا تضربُ على يدك، ولا تعترضُ سبيلك ولو أنها فعلت لما حترت، ولا وصلت إلى ما إليه وصلْت

كانت حكومتُك تستطيع أن تهذب نفسك، وأن تقوي بين يديك أبواب الحاجات والخير، وأن تحول بينك وبين مخالطة الأشرار الذين يبعدونك عنه وتشرد في مجاهل الأرض ومجاهلها. وأن تعديك[1] على قتيلك قبل أن يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسك وأن تحسن تأديبك في الصغيرة، قبل أن تعصى في الكبيرة. ولكنها أغفلت أمرك فنامت عنك نوما طويلا حتى إذا فعلت فعلتك استيقظت على

( ) أعدى [illegible]

صوت صُرَاخ المقتول ، وشمّرتْ عن ساعدها لتمثّلَ منظر من مناظر الشجاعةِ الكاذبة ، فاستصرختْ جندها ، واستنصرت قوتّها . وأعدّت جذعها وجلاّدها ، وكان كلُّ ما فعلتْ أنها أعدمتك حياتَك

هؤلاء شركاؤك فى الجريمة . وأقسِمُ لو كنتُ قاضيا لأعطيتك من العقوبة على قدر سَهمك فى الجريمة ، ولجعلتُ تلك الجذوعَ قسمةً بينك وبين شركائك ، ولكننى لاأستطيعُ أن أنفعك، فيأيها القتيل المظلومُ رحمة الله عليك

الصدق والكذب

جاءني هذا الكتابُ من أحد الفضلاء

يا صاحب النظرات :

سمعتُ بالصدق وما وعد اللهُ به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر وسمعتُ بالكذب وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب . وأليم العقاب . وقرأتُ ما كتبه حكماء الأمم من عهد آدم إلى اليوم وجمعهم أن الصدق فضيلةُ الفضائل . والأصلُ الذي تتفرعُ عنه جميعُ الأخلاق الشريفة والصفاتِ الكريمة . وأنه ما تمسك به متمسكٌ إلا كان النجحُ في أعماله ألصق به من ظله وأعلقَ به من نفسه ، سمعتُ هذا وقرأتُ ذلك فلم يبق في نفسي رَيْبٌ في أن ما ... في حظي من الشقاء ، وعيشي من

الضنك ، وحياتي من الهموم والأكدار ، إنما جرّه علىّ شؤمُ الكذب ، وأن ما كنتُ أتخيله قبل اليوم من أن هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبةً إنما هو ضربٌ من ضروب الوهم الباطلِ ، ونزعة من نزعات الشيطان ، فعاهدت الله ونفسي ألا أكذبَ ما حييتُ ، وأعددت لذلك القسمِ العظيم عُدّته من شجاعةِ نفس وقوة عزيمة بعد ما وجهتُ وجهي إلى الله تعالى وسألته أن يمدّني بعونته ونصره

وهأنذا ذاكرٌ لك مواقف الصدق التي وقفتها بعد ذلك العهدِ وما رأيته من آثارها ونتائجها

الموقف الأول : جلستُ في حانوتي فما وقف بي مساوم إلا صدقته القولَ في الثمن الذي اشتريتُ به سلعته والربح الذي أريده لنفسي منه ، والذي لا أستطيعُ أن أعد عني رابحًا إذ تجاوزتُ عن نقصه . فيأتي بي لخصمه [1]

(١) [illegible]

فآباها عليه ، فينصرفُ عني استثقالا للثمن واستعظاماً لقدره ، وما هو إلى الربحْ الذي اعتدت أن آخذه منه في مثل تلك الصفقة ، إلا أنني كنت أكذب عليه في أصل الثمن فيصغرُ في نظره الربحُ فلما صدقته عنه أعظمه وانصرف عني إلى سواى ، ولم أزل على هذه الحالِ حتى أظلني الليلُ ولم يفتح الله عليّ بقوت يومي ، وما هي إلا أيام ثلاثة حتى عُرِفت في السوق بالطمع والمغالاة فأصبحت لا يطرقُ باب حانوتي طارقْ

الموقف الثاني : جلستُ في مجلس يتصدره شيخ من [illegible] المعروفين [illegible] [illegible] [illegible] به [illegible] من عبده وسدنة [1] هيكله فسمعته يشرح لهم معنى التوكل شرحا غريبا يذهب فيه إلى أنه القعودُ عن العمل ، [illegible] على [illegible] ، والإعراضُ عن كل سعي [illegible] [illegible] وهذيانه هذا على آيات يؤولها

(1) [illegible]

كما يشاء. وأحاديثَ لا يستندُ في صحتها على مُستند سوى أنه سمعها من شيخه، أو قرأها في كتابه، وأكثرُ ما كان يدورُ على لسانه حديثُ «لو توكلتُمْ على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزقُ الطير تغدو خِماصاً وتروحُ بطاناً [١]» فقلت له وقد أخذ الغيظُ من نفسي مأخذه ياشيخُ أردت أن تحتجَّ لنفسك فاحتججتَ عليها، أتعمدُ إلى حديث يَستدِلُّ به رُواته على وجوب السعي والعمل، فتستدل به على البطالة والكسل. ألم تر أن الله سبحانه وتعالى ما ضمن للطيرِ الرواحَ بطاناً إلا بعد أن أمرها بالغدو، وهي التي ترويها القطرة، وتشبعها الحبة، فكيف لا يأمر الإنسان بالسعي وهو من لا تفنى مطالبه، ولا تنتهي رغباته

أيها القومُ، إنكم تقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم، إنكم عجزتم عن العمل، وأخلدتم إلى الكسل، وأردتم أن تقيموا لأنفسكم عذراً يدفعُ عنكم هاتين الوصمتين فسميتم

---

(١) الخماص جمع خميص وهو ضامر البطن والبطان جمع بطين وهو عظيم البطن

ما أنتم فيه توكلا. وما هو إلا العجزُ الفاضح، والإسفافُ الدنيء. وهنا زفر الشيخُ زفرةَ الغيظ ونادى في قومه أن أخرجوا هذا الزنديقَ الملحد من مجلسي. فتألبوا عليّ تألبهم على قصاع الثريد. وأوسعوني لطماً وصفعاً، ثم رموا بي خارج الباب. فما بلغت منزلي حتى هلكت أو كدتُ. فما مررتُ بعد ذلك بطائفة من العمة إلا رموني بالنظر الشزْر، وعاذوا بالله من رؤيتي كما يعوذون به من الشيطان الرجيم

ووقف ثالث: لا أكتمك ياسيدي أني كنت أبغضُ .وحتى لعمري يتصدعُ له القلبُ غير أني كنت أصانعها وأتودد إليها وأمسحها من نفسي. بيد أنه ثار في وعي ... له و ... حتى وجدتني من صبابةٍ من كانت لها، ... ذلك كذبُ الكذبِ وأصحابه. فآليت على نفسي ألا أسدل ... من دونها حجابا يحول بينها وبين ... على ... ذلك السبيلَ المذبْ. من كلمات ... وحشي ... بيني وبينها ...

هى إلا عشيّةٌ أو ضُحاها حتى وهنتْ تلك العقدةُ وانحل ذلك الوثاقْ . وختمت سورةُ الفراق . بآية الطلاق

الموقف الرابع : حضرتُ مجتمعا يضمُّ بين حاشيتيه جماعة من الفضوليين الذين تضيقُ بهم مذاهبُ القول فيلجئون إلى الحديث عن الناس وتتبُّع عثراتهم ، ويُحاولون أن ينبشوا دفائنَ صدورهم ، ويتغلغلوا فى أطواء[1] سرائرهم ، ويغالون فى ذلك مغالاةَ الكيماوى فى تحليله وتركيبه . فرأيتُهم يتناولون بألسنتهم رجلا عظيما من أصحاب الآراء السياسية لا أعتقدُ أن بين السالكين مسلكَه والآخذين إخذه من أخلص لأمته إخلاصه . أو وقف الموقف المشهودةَ وقفه . أو لاقى فى ذلك السبيل من صدمات الدهر وضربات الأيام مالاقاه . سمعتهم يسمونه خائناً فوالله لأن تقعَ السماء على الأرض أحبُّ إلىّ من أن يُتهم البرىء ، أو يجازى المحسن سوءا على إحسانه . سمعتُ منه

(١) أطواء الثوب طرائقه ومكاسر طيه

أمسكت نفسى عنه فقلت يا قوم : أتطالبون من كتاب الحرية مائة صفحة وبعد(١) ثم لا تزالون عبيد الأوهام أسرى خيالات سراعا إلى كل داع ، سعاة مع كل ساع ، تنصرون بغير روية ، وتحكمون بغير علم ، إنكم بعملكم هذا تزهدون المحسن فى إحسانه ، وتلقون الرعب فى قلب كل عامل يعمل لأجلكم ، وتثبطون همة كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة قضيتكم ، أليس مما يلقى فى النفس اليأس من صلاحكم وصلاح حالكم ، أن نراكم طعمة كل آكل ، ونهبة كل ناهب ، يستهويكم الكاذب بالكلمات التى يستهويكم بها مرة بعد مرة ، تشغلكم به عن دعوة الصادق فتمنحون الأول ودكم وإخلاصكم ، والثانى غشكم وعدوانكم ، خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيراً لهم ، فأرادوا شراً بى . فما خلصت من بينهم إلا وأنا ألمس رأسى بيدى لأعلم أين مكانه من عنقى

(١) [illegible]

الموقف الخامس : قابلني في الطريق شاعرٌ يحمل في يده طوماراً (١) كبيراً وكنتُ ذاهباً إلى موعد لابدّ لي من الوفاء به فعرض عليّ أن يُسمعني قصيدةً من طريف شعره ، وأنا أعلمُ الناس بطريفه وتليده ، فاستعفيته بعد أن كاشفته بعذري فأبى ، فانتحيتُ به ناحيه من الطريق فأنشأ يترنم بالقصيدة بيتاً بيتاً ، وأنا أشعرُ كأنما يجرعني السمّ قطرة قطرة ، حتى تمنيتُ أن لو ضربني بها جملة واحدة يكون فيها انقضاء أجلي ليريحني من هذا العذاب المتقطع والتمثيل الفظيع وكلما أتى على بيت منه أقبل عليّ بوجهه ، وأطال النظرَ في وجهي ، وحدق في عيني ليعلم كيف كان وقعُ شعره من نفسي ، فإذا رأى تقصب وجهي ظنه تقصب الشارب لارتشاف الكأس فيستمرُّ في شأنه حتى أنشد نحو خمسين بيت ، ثم وقف وقال هذا هو القسمُ الأولُ من أقسام القصيدة ، فقلت وكم عددُ أقسامها يرحمك

(١) طومار : صحيفة

الله ، قال عشرة ليس فيها أصغر من أولها . قلت أتأذن لى أن أقول لك ياسيدى إن شعرك قبيح ، وأقبح منه طوله ، وأقبح من هذا وذاك صوتك الخشن الأجش ، وأقبح الثلاثة اعتقادك أنى من سخافة الرأى وفساد الذوق بحيث يعجبنى مثل هذا الشعر البارد عجباً يسهل على فوات الغرض الذى ما خرجت من منزلى إلا لأجله . فتلقانى بضربة بجمع يده (١) فى صدرى . فتلقته بمثلها . وما زالت أكفنا تأخذ مأخذها من خدودنا وأقفائنا حتى كلت . فرفعت عصاى وضربته بها على رأسه ضربة ما أردت بها يعلم الله إلا أن أصيب مركز الشعر من مخه فأفسده عليه . فسقط مغشيا عليه . وسقطت القصيدة من يده . فأسرعت إليها ومزقتها ، وأرحت نفسى منها ، وأرحت الناس من مثل مصيبتى فيها ، وكان الشرطى قد وصل إلينا فاحتملنا جميعاً إلى المخفر ثم إلى السجن حيث أكتب إليك كتابى هذا

(١) جمع [illegible]

فياصاحبَ النظرات أفتنى فى أمرى وأزِلْ ظُلمةَ نفسى فقد أشكل علىّ الأمر ، وأصبحتُ أسوأ الناس بالصدق ظنًا ، بعدما رأيتُ أنى ما وقفتُ موقفه فى حياتى إلا خمس مرات فكانت نتيجة ذلك إفلاسى وخراب بيتى واتهامى بالخيانة مرة والزندقةِ أخرى ، ذلك إلى ما أقاسيه اليوم فى هذا السجن من أنواع الآلام ، وصنوف الأسقام

* * *

أيها السجينُ :

كتبت إلىَّ مسح الله ما بك . وألهمك صواب الرأى فى حاليك تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقفَ الشك فى أمره . وكاد يرتقىْ بك إلى الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل لا فضيلة الفضائل ، وما كان لك أن تجعل لليأس هذا السبيل إلى نفسك ، وأن يبلغ بكَ الجزعُ من نكبات العيش وضربات الأيام مبلغه يذهب برشدك .

ويطير بلبك ، فما أنت بأول صادق فى الأرض ولا بأول من لقى فى سبيل الصدق شرا ، وكابد ضرا

لك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مرارتها حتى تصل الذمت من حلاوتها ما تقطع دونه أعناق الرجال

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال ، وإنما هى حالة من حالات النفس تسمو بها إلى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال

إن الذى يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله أو يرفه بها عيشه ، يحتقرها ويزدريها . لأنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع

ليس من صواب الرأى أن يجعل الإنسان حالة عيشه ميزانا يزن به أخلاقه ، فان اتسع عيشه اطمأن إليها ، وإن ضاق أساء الظن بها ، فكم رأينا بين الفاضلين أشقياء ، وبين الأرذلين كثيرا من ذوى النعمة والثراء

لايستطيعُ الرجل الفاضلُ أن يبلغ غايتَه من عيشه إلا إذا استطاع أن ينزل من نفوس الناس منازلَ الحب والاكرام . ولن يستطيعَ ذلك إلا إذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ولن يكونوا كذلك إلا إذا كانوا فضلاء أو أشباهَ فضلاء . والسواد الأعظم الذى يمسك بيده أسباب العيش ويملك ينابيعه سوادٌ أبله ساذج يبغض الصادق لأنه يصادره فى ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته ، ويحب الكاذب لأنه لايزال يزين له أمره حتى يحبب اليه نفسه . فلا بد للصادق من صدر يسع همومَ العيش وقلب يحتمل بغض القلوب ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغَ غايته من الفوز والانتصار

الصدق جنة حفت بالمكاره . فان كان للصادق فى جنة الصدق أربٌ فليحتمل فى سبيله ما تجنيه الأبناء

والمرسلون والحكماء والقائمون باصلاح المجتمع الانسانى ودعاة المطالب الدينية والسياسية

كما أن خود بقرْ والاقدام قتال ، وكما أن السكل فضيلة من الفضائل آفة من الآفات توعر طريقها وتبعد .لها إلاعلى أيدى الصابرين مخلصين، كذلك للصدق آفة من مصادمة الكاذبين وهم الأكثرون ، للصادقين وهم الأقلون

أتريد أيها الرجل أن تسمى صادقا وأن تنال أشرف لقب يستطيع أن يناله بشر وأن يوفيك مخد فائض مذعن دون أن تبذل فى سبيله شيئا من مالك أو راحتك ؟

إلك إن أردت ذلك أو قدرته فى نفسك أضع لفضيلة ط. يت وترخص قيمتها وتنزل بها فى مدرج الشرف وتحت موطئ النعال

يخرجك تصرف لأعيان عن حانوتك أو اتهامك بالزندقة والالحاد أو المروق والخيانة ويرى أن ذلك كثير فى سبيل بلوغك مرتبة الصدق وإحرازك فضيلته ، وأن

تعلم أن الفاضلين قد بذلوا من قبلك أكثر مما بذلت في سبيل إحراز ما أحرزت ، فما ندموا ولا حزنوا .

أيها السجينُ الشريفُ :

هنيئاً لك السجنُ الذي تكابده ، وهنيئاً لك البغض الذي تحتمله ، وهنيئاً لك العيش الذي تعالج همومه . فوالله لأنت أرفع في نظري من كثير من أولئك الذين يعدهم الناس سعداء ، ويسمونهم عظماء

لا تظلم الصدق ولا تكن سيء الظن به . وكن أحرص الناس على ولائه ومودته . وإياك أن يخدعك عنه خادع ، واصبر قليلاً يثمر لك غرسه . ويمتد عليك ظله . وهنالك تجد في نفسك من اللذة والغبطة مالو بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم ، وأرباب الكنوز كنوزهم . لما استطاعوا اليه سبيلا

النظامون

ما لهؤلاء النظامين لا يهدءون ساعة واحدة عن تصديع رءوسنا وتمزيق أفئدتنا بهذه الصواعق التي يمطرونها علينا كل يوم من سماء الصحف حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا في وسطها جدولاً أبيض مستطيلاً تخيلناه حية رقطاء فزعنا وألقيت الصحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمس لينجو بنفسه ويسلم بحياته

من أجل ذلك القلم المريض الذي يكتب به كتاب الصحف السياسية عناوين مقالاتهم في معرض التهويل والتفخيم فأكتب به إلى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية :

أيها القوم ، إن علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا

يعرفون من الشعر أكثر من إعرابه وبنائه واشتقاقه وتصريفه ، واتجاجروا فى ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لامناص لهم من أن يقفوا فى تعريف الشعر عند هذا القدر مادام لايتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه وقوافيه ، وعلله وزحافاته

لاتظنوا أن الشعر كما تظنون ، وإلا لاستطاع كل قارئ بل كل ناطق أن يكون شاعرا ، لأنه لايوجد فى الناس من يعجزه تصور النغمة الموسيقيه والتوقيع عليها من أخصر طريق

أيها القوم . ما الشعر إلا روح يودعها الله فطرة الانسان من مبدأ نشأته ولا تزال كامنة به كمون النار فى الزندحتى يد شد [1] فتستعلى أسلات أقلامه [2] كما تقبض الكهرباء على [illegible]كها . فمن أحس منكم بهذه

(١) شـ أحد [illegible] (٢) [illegible]
[illegible]

الروح في نفسه فليعلم أنه شاعر، أولاً فليكف نفسه مؤونة التخطيط والتسطير ولينصرف إلى معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة، فإن المحراث في يد الفلاح والقدوم في يد النجار والمسبر في يد الحداد أشرف وأنفع من القلم في يد النظّام

فإن غمّ عليكم الأمر وأعجزكم أن تعلموا مكان تلك الروح الشعرية من نفوسكم فاعرضوا أنفسكم على من يرشدكم إليها. ويدلكم عليها حتى تكونوا على بينة من أمركم

الحرية

استيقظت فجر يوم من الأيام على صوت هرة تموء[١] بجانب فراشي وتتمسح بي وتلح في ذلك إلحاحا غريبا فرابني أمرها وأهمني همها وقلت لعلها جائعة فنهضت وأحضرت لها طعاما فعافته وانصرفت عنه فقلت لعلها ظمآنة فأرشدتها إلى الماء فلم تحفل به وأنشأت تنظر إلي نظرات تنطق بما تشتمل عليه نفسها من الآلام والأحزان فأثر في نفسي منظرها تأثيرا شديدا حتى تمنيت أني كنت سليمان أفهم لغة الحيوان، لأعرف حاجتها. وأفرج كربتها، وكان باب الغرفة مرتجا فرأيت أنها تطيل النظر إليه وتلتصق به كلما رأتني أتجه نحوه فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب، فأسرعت بفتحه. فما وقع نظرها على الفضاء،

(١) [illegible]

ورنت وحه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهمّ
ى عبصه وسرور . وانطلقت تعدو فى سبيلها ، فعُدت إلى
فرشى وسلمت رأسى إلى يدىّ وأنشأت أفكر فى أمر
هده الهرة وبحث شأنها وأقول ، ليت شعرى هل تفهم
الهرة معنى الحرية فهى تحزن لفقدانها وتفرح بلقياها . أجَلْ .
إنها تفهم معنى الحرية حق الفهم ؛ وما كان حزنها وبكاؤها
وإمساكها عن الطعام والشرب إلا من أجلها . وما كان
تضرعها وإلحاحها وشفعتها ونجاحها إلا سعيا وراء بلوغها

وهنا ذكرت أن كثيرا من أسرى الاستبداد من بنى
الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة فى الغرفة
الموحشة المقفل فى القفص والطير المقصوص الجناح
من ألم الأسر وشدته ، بل ربما كان من بينهم من لا يفكر
فى وجه الخلاص ولا يلتمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه .
بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء فى هذا السجن ويأنس
به ويلتذ بآلامه وأسقامه

من أصعب المسائل التي يحار العقلُ البشري في حلها أن يكون الحيوانُ الأعجم أوسعَ ميداناً في الحرية من الحيوان الناطق، فهل كان نطقُه شؤماً عليه وعلى سعادته. وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل أن يصبح ناطقاً مدركاً

يُحلق الطيرُ في الجو ويسبحُ السمك في البحر ويهيم الوحشُ في الأودية والجبال ويعيش الانسان رهين المحبسين محبسِ نفسه ومحبَس حكومته من المهد إلى اللحد

صنع الانسان القوى للانسان الضعيف سلاسل وأغلالاً وسماها مرة ناموساً وأخرى قانوناً ليظلمه باسم العدل ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام

وضع هذه الآلة الضخمة وركّبها فوق جذر مروّع القلب [illegible] على نفسه حركات يديه وخطوات رجليه وحركات لسانه وخطرات

وهمه وخياله لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه ، فويل له ما أكثر جهله، وويح له ما أشد حمقه وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته . بل جنايته الكبرى أنه أفسد عليه وجدانه ، فأصبح لايحزن لفقد تلك الحرية . ولا يذرف دمعة واحدة عليها

لو عرف الانسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة مايحيط بجسمه وعقله من القيود لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد في القفص ، وكان ذلك خيراً له من حياة لايرى فيها شعاعاً من أشعة الحرية . ولا تخلص اليه نسمة من نسماتها

كان في مبدأ خلقه يمشي عريان أو يلبس لباساً واسعاً شبه أن يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء ، أو هبة النكباء . فوضعوه في القماط كما يضعون الطفل وكفنوه كما يكفنون الموتى وقالوا له هذا شعار الأدباء .

كان يأكل ويشرب كل ماتشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته حالوا بينه وبين ذلك وملأوا قلبه خوفا من المرض أو الموت وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني أو الحاكم السياسي وأن يقوم أو يقعد أو يمشي أو يقف أو يتحرك أو يسكن إلا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات

لا سبيل إلى السعادة في الحياة إلا اذا عاش الانسان فيها حرا مطلقا لا يسيطر على جسمه وعقله ووجدانه وفكره مسيطر الا أدب النفس

الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس . فمن عاش محروما منها عاش في ظلمة حالكة يتصل أولها بظلمة الرحم ، وآخرها بظلمة القبر

الحرية هي الحياة . ولولاها لكانت حياة الانسان أشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية

ليست الحرية في تاريخ الانسان حادثا جديدا .

أو طائراً غريباً . وانما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور ، ويتعلق بأغصان الأشجار

إن الانسان الذي يمد يده لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد . وانما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية . فإن ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ، ولا يد لأحد عنده

عبرة الهجرة

إن فى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وسجاياه التى لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الأرض أو السماء. أو الماء أو الهواء

ن ما كان يبهر العرب من معجزات عمه وحمه. وصبره واحتماله. وتواضعه وإيثاره. وصدقه وإخلاصه. أكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر. ومشى الشجر، ولين الحجر. ذلك لأنه ما كان يريبهم فى الاولى ما كان يريبهم فى الأخرى من الشبه بينها وبين عرافه العرافين، وكهانة الكهنة. وسحر السحرة، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل مايريد، ولا تركت له المعجزات فى نفوس العرب ذلك الأثر الذى تركه، ذلك هو معنى قوله تعالى

« ولو كُنْتَ فظًّا غليظَ القلْب لا نفضُّوا من حوْلِكَ »

كان صلى الله عليه وسلم شجاع القلب ، فلم يهبْ أن يدعو في التوحيد قوماً مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاة شرسون متنمّرون ، يغضبون لدينهم غضبَهم لأعراضهم ، ويحبون آلهتهم حبهم لأبنائهم

كان على ثقة من نجاح دعوته فكان يقول لقريش أشد [illegible] كانوا هزءاً به وسخرية « يا معشر قريش والله لا تأتي عليكم [illegible] حتى [illegible] تنكرون . وتحبوا [illegible]

كان [illegible] الأخلاق [illegible] كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعثون[1] [illegible] ويضعون التراب على رأسه ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى[2] [illegible] في صلاته بل كان يقول « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

كان واسعَ الأمل كبير الهمة صلبَ النفس ، لبث

(١) يقال شعث فلان من فلان تنقصه (٢) سلى [illegible] الشاة [illegible]

في قومه ثلاثَ عشرة سنة يدعو إلى الله فلا يلبي دعوته إلا الرجلُ بعد الرجل فلم يبلغ الملل من نفسه ، ولم يخلص اليأسُ إلى قلبه ، فكان يقول : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمرَ حتى يُظهره الله أو أهلِك فيه ما تركته

وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعثَ الدعوة ولا مطلع تلك الشمس المشرقة فهاجر الى المدينة فانتقل الاسلام بانتقاله من السكون إلى الحركة ومن طور الخفاء إلى طور الظهور

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنها أكبر مظهر من مظاهره وكانت عيداً يحتفل به المسلمون في كل عام لأنها أجمل ذكرى للثبات على الحق والجهاد في سبيل الله

لقد لقي صلى الله عليه وسلم في هجرته عناء كبيراً ومشقة عظمى فإن قومه كانوا يكرهون مهاجرته لاصقين به من مخافة أن يجد في دار هجرته من الأعوان والأنصار ما

يجد بينهم. كأنما كانوا يشعرون بأنه طالبُ حق وأن طالب الحق لا بد أن يجد بين المحققين أعوانًا وأنصارا . فوضعوا عليه العيون و حوسبس نخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكرا بعد ما ترك في فراشه ابنَ عمه على بن أبى طالب رضى الله عنه عشيهم وتضليلا لهم عن اللحاق به ومشى هو وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه يتسلقان الصخور ويتسربان فى الأغوار والكهوف ويلوذان بأكناف الشعاب والهضاب حتى تقطع عنهما الطلبُ وتم لهما ما أراد بعون الله وبالثبات على الحق

إن حياة النبى صلى الله عليه وسلم كلها مملوءة بالعبر التى يجب أن يقتدى بها المسلمون للوصول إلى التخلق بأشرف الأخلاق والتحلى بأكرم الخصال وأحسن مدرسه يجب أن نتعلم فيها كيف يكون الصدقُ فى القول والاخلاص فى العمل والثبات على الرأى وسيلةً إلى النجاح ، وكيف يكون الجهادُ فى سبيل الحق سبباً فى علوه على الباطل ،

لا حاجةَ لنا بتاريخ حياة فلاسفةِ اليونان ، وحكماء الرومان ، وعلماء الافرنج . فلدينا فى تاريخنا حياةٌ شريفةٌ مملوءةٌ بالجدِّ والعمل ، والصبرِ والثبات . والحبِّ والرحمة ، والحكمةِ والسياسةِ ، والشرف الحقيق . والانسانية الكاملة ، وهى حياةُ نبينا صلى الله عليه وسلم وحسبُنا بها وكفى

الانصاف

إذا كان لك صديق تحبُّه وتواليه ثم هجمتَ منه على ما لم يخلْ في نظرك ، ولم يتفقْ مع ما علمتَ من حاله وما اطّرد عندك من أعماله . أو كان لك عدوٌّ تذمُّ طباعَه ، وتنقمُ منه شؤونه ، ثم برقتْ لك من جانب أخلاقه بارقةُ خير ، فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقِك على الخصلة التي ذممتها ، وحمد عدوّك على الخلة التي حمِدتَّها ، عدَّك الناسُ متلوناً ومخادعاً أو ذا وجهين ، تمدحُ اليوم من تذمُّ بالأمس ، وتذمُّ في ساعة من تمدحُ في أخرى . وقالوا إنك تُظهِرُ ما لا تضمر ، وتخفي غير الذي تبدي ، ولو أنصفوك لأعجبوا بك وبصدقك ، ولأكبروا سلامة قلبِك من هوى النفس وضلالها ، ولسمّوا ما بدا لهم منك اعتدالا لا نفاقاً ، وإنصافاً لا خداعاً . لأنك لم تَغْلُ في حب صديقِك غلوَّ من يعميه الهوى عن رؤية عيوبه ، ولم تتمسك

من صداقته بالسبب الضعيف ، فعُنيت بتعهد أخلاقه ، وتفقدِ خلاله ، لإصلاح ما فسد من الأولى ، واعوجّ من الأخرى

إن صديقك الذي يَبسمُ لك في حالَي رضاك وغضبك، وحلمك وجهلك ، وصوابك وسقطك ، ليس ممن يُغتبط بمودته ، أو يوثق بصداقته . لأنه لا يصلُحُ أن يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشف لك عن نفسك، وتصدُقك عن زينك وشينِك ، وحُلوك ومرّك ، وهو إما جاهلٌ متهورٌ في ميوله وأهوائه ، فلا يرى غير ما تريد أن ترى نفسه . لا ما يجب أن تراه . وإما منافقٌ خادع قد علم أن هواك في الصمت عن عيوبك وتجرير الذيول عليها ، فجاراك فيما يريد . ليبلغ منك ما يريد

فها أنت ذا ترى أن الناس يعكسون القضايا، ويقلبون الحقائق، فيسمون الصادق كاذباً ، والكاذبَ صادقاً، ولكن الناس لا يعلمون

المدنية الغربية

سأودعُ في هذه النظرة الخيالَ والشعرَ وَداعَ من يعلمُ أن الأمر أعظمُ شأنًا وأجلُّ خطرًا من أن يعبثَ فيه العابثُ بأمثال هذه الطرائف التي هي بالهزل أشبهُ منها بالجد، والتي إنما يلهو بها الكاتبُ في مواطن فراغه ولعبه لا في مواطن جدّه وعمله.

إن في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعةً يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدبُ عليها حتى نؤديها إلى أخلافنا من بعدنا كما أداها إلينا أسلافنا سالمةً غير مأروضة[1] ولا متأكلة. فإن فعلنا فذاك أولًا، فرحمة الله على الصدق والوفاء، وسلامٌ على الكتاب الأمناء.

(١) المأروض المدروس لمتى أكله الأرضة

(الأمةُ المصريةُ أمةٌ مسلمةٌ شرقيةٌ فيجب أن يبقى لها دينُها وشرقيتُها ما جرى نِيلها فى أرضها ، وذهبت أهرامُها فى سمائها ، حتى تُبدَّل الأرضُ غير الأرض والسموات

إن خطوةً واحدةً يخطوها المصرىُّ إلى الغرب تُدنى إليه أجله وتُدنيه من مهوًى سحيقٍ يُقبَرُ فيه قبرًا لا حياة له من بعده إلى يوم يبعثون

(لا يستطيعُ المصرىُّ وهو ذلك الضعيفُ المستسلمُ أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلا كالغربال من دقيق الخبز ، يمسكُ خُشارهُ ، ويُفلِتُ لبابه ، أو الراووق[1] من الخمر ، يحتفظ بعُقاره ويستهين برحيقه ، فخيرٌ له أن يتجنبها جهدَه ، وأن يفرَّ منها فرار السليم من الأجرب

يريد المصرىُّ أن يقلدَ الغربى فى نشاطه وخفته ، فلا ينشَط إلا فى غدواته وروحاته ، وقعداته وقوماته . وإذا جَدَّ الجدُّ وأراد نفسَه على أن يعمل عملا من الأعمال المحتاجة

---

(١) الراووق المصفاة

إلى قليلٍ من الصبر والجلَد دبَّ المللُ الى نفسه دبيبَ الصهباء في الأعنء، والكرى بين أهداب الجفونْ

يريد أن يقلده في رماهيته ونسمته فلا يفهمْ منهما إلا أن الأولى التأنث في الحركات، والثانيةَ الاختلافُ إلى مواطن الفسق ومخانق الفجور

يريد أن يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها إلا نعيقها ونعيبها . وصجيجها وصفيرها . فاذ قيل له هذه المقدماتْ فأين النتائج ، سلم رجليه إلى الرياح الأربع واستن في فراره استنان المهر الأرن[1] فاذا سمع صفير الصافر مات وجلا .

...

...د ... ... فلا ... يترقب فصل الصيف ... الأرض ... وفصل الربيع ، حتى إذ حان حينه طار ... ... وربما طيران ... ... بصيرته مما دونه، ولا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى يقع على مجامع

(١) الأرن ...

اللهو ومكامنِ الفجور . وملاعبِ القمار ، وهنا يبذلُ من عقله وماله ما يعودُ من بعده فقيرَ الرأس والجيب ، لا يملكُ من الأول مايقودُه إلى طريق السفينة التي تحمِله في أوبته ولا من الثاني أكثرَ من الجعالة التي يجتعلها منه صاحبُ الجريدة ليكتبَ له بين حوادث صحيفته . حادثةَ عودتِه . موشاة بجُمَل الإجلال والاحترام . مطرزةَ بوشائع الإكرام والإعظام

يريد أن يُقلده في العلم فلا يعرفُ منه إلا كلماتٍ يرددها بين شدقيه ترديداً لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيقٍ ولا يعتصمُ به من جهل شائن مبرِّح

يريد أن يقلده في الحسب والنسب فيترك حيه ووجاره ويطوف حتى العشيرة في عمه ، تضربُ فيها من أخوة العصابة حتى إذا سمع دعوةً إلى الكتاب وصحفة زالتْ في القطب الشمالي أو كأنه ألمتْ بسدِّ يأجوج ومأجوج سجل اسمه في فاتحة الكتاب . ويدحرجه في مستهلِّ جريدة الحساب

يريد أن يقلده في تعليم المرأة وتربيتها فيقنعه من علمها مقالة تكتبها في جريدة ، أو خطبة تخطبها في محفل ، ومن ريشها التفنن في الأزياء ، والمقدرة على استهواء النفوس واستلاب الألباب

هذا شأنه في الفضائل الغربية يأخذها صورة مشوهة ومعنية معكوسة ، لا يعرف لها مغزى ، ولا ينتحى بها مقصداً ، ولا يذهب فيها إلى مذهب . فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب ، وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار ، ويجاورونهم في آداب صور العبادات ، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر . أو كمثل الذين يتشبهون بعمر في ترقيع الثياب ، وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود

أما شأنه في رذائلها فانه أقدر الناس على أخذها كما هي فيتحرى كما ينتحر الغربي ويلحد كما يلحد ويستهتر في الفسوق

استهتاره، ويترسمُ في الفجور آثارَه

إن في المصريين عيوبًا جمة في أخلاقهم وطباعهم ومذاهبهم وعاداتهم. فان كان لا بد لنا من الدعوه إلى إصلاحها. فلندعُ إلى ذلك باسم المدنية الشرقيةِ. لا باسم المدنيةِ الغربية

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة بغداد وقُرطبة وثيبة وفينيقيا. لا باريسَ ورُومة وسويسرة ونيويورك. وإن دعوناهم إلى حكمة، فلنتلُ عليهم آيات الكتب المنزلة وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه. لا آيات رُسْو وباكون ونيوتن وسبنسر. وإن دعوناهم إلى حرب. ففي تاريخ خالد بنِ الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين، ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر، وفي وقائع القادسيةِ وعمُّوريّة وإفريقية والحروب الصليبية. ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار وأوسترليتز والسبعين

إن عاراً على التاريخ المصرى أن يعرف المسلم الشرقى في مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية. ومن مبادىء ديكارت وأبحاث دروين ما لا يحفظ من حكم الغزالى وأبحاث ابن رشد، ويروى من شعر شكسبير وهوجو ما لا يروى للمتنبى والمعرى

«لا مانع من أن يعرب لنا المعربون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب ويأخذ الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم حتى نعرفه المعرفة الصحيحة كالناقد لا الضعيف المستسلم، فلا نأخذ كل ما في علميه وفنيه مسلمة. ولا يعرف الشكل معنى ذى ضرر مشهور. ولا مانع من أن ينقل إلينا المعربون شيئاً من عادات الغربيين وإصلاحاتهم في مدنيتهم على أن نصير بنظر من يريد التبسط في العلم والتوسع في التجربة والاختبار، لا على أن

تتقلدها ونتنحلها ونتخذها قاعدتنا فى استحسان مانستحسن من شؤوننا، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا))

وبعد فيعلم كتاب هذه الأمة وقادتها أنه ليس فى عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيرا. فلا يخدعوا أمتهم عن نفسها، ولا يفسدوا عليها دينها وشريعتها، ولا يزينوا لها تلك المدنية تزيينا يررؤها فى استقلالها النفسى. بعد ما رزأتها السياسة فى استقلالها الشخصى

يوم الحساب

سامرت الكواكب ليلة أمس حتى ملتني ومللتها وسرق الكرى من أجفاني نزعا. وقد وقف الهم بيني وبين الكرى أجذبه فيدفعه، وأدنيه فيبعده، حتى أسلس قياده وسكن جماحه

ونعمت حيناً بالكرى حتى خيل لي أني قد انتقلت من هذا العالم إلى عالم ثان، وأني كأني بعثت بعد موت وكأن بني آدم محشورون في صعيد واحد يحاسبون على أعمالهم فأيقنت أنه موقف الحشر وأنه يوم الحساب

نشأت أمشي مشية خائر الذهن لا أعرف لي مذهباً ولا مقصداً، ولا أجد من يأخذ بيدي، ويدلني على

نفسي، في هذا الموقف الذي يَنشد فيه كلُّ ذي نفس نفسه فلا يجد إليها سبيلا. فطفقتُ أتصفحُ وجوهَ الواقفين، وأقلبُ النظرَ في الغادين والرائحين. علّي أجدُ صديقا أستأنسُ به في وحدتي. وأستعينُ بمرافقته على وحشتي، فلا أرى إلا خلقاً غريبا. ومنظراً عجيباً. ووجوها ما رأيت لها في حياتي شبيها ولا ضريب. ولولا أني أعلم أن الحساب خاصٌ بالإنسان لظننتُ أن الله يُحاسِبُ في هذا الموقف جميع أنواعِ الحيوان

هنالك وقد بلغ اليأسُ وبلغ منهما مني رأيتُ على البعد وجهاً يتلألأ ويدنو مني رويداً رويداً فأقبلتُ نحوه حتى عرفته فقد صدق في فلان وإذا وجهه يتلألأ لألاءَ الكواكب في علياء السماء. فسألته ما فعل الله به. فقال حاسبني حساباً يسيراً ثم غفر لي، وها أنا ذاهب إلى ما أعدّ اللهُ لعباده الصالحين في جنته من النعيم المقيم. فعجبتُ لشأنه وقلت في نفسي لقد هان أمر الحساب على

كانَ عاصٍ بعد ماهان على هذا الذى كنتُ أعرفُه فى أُولاه لا تتقى مأثماً . ولا يهب منكراً . ولا يخرجُ من حان إلا إلى حان . ولا يودع مجمعاً من مجامع الفسق إلا على مَوعِدٍ من لقائه ، فنظر بى نظره العاتب اللائم وابتسم ابتسامة عاتب متهم أن رجلى قد ... صمرته فى نفسى فذكرت أن قد كشف الغطاء فى هذه الدار . وأن قد رفع الحجاب عن النفس والضمير ولا جهر . ولا ظن ولا ظهر . ولا فرق بين حركات اللسان . وحركات الجنان . فطرفت تلك النظرة وقلت لا عجب لأمر فى هذه الدار وكلُّ ما فيها عجيب . وعلمت أنه حسدنى على كأس . كنتُ أختلسُ من الآثام فى الدار الأولى . لأنه وجد لى فى جريدة حسناتى حسنةً ذهبت بجميع السيئات . ذلك أنه كان لى جارٌ من ذوى النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة ومن نكبه دهره نكبةً ذهبتْ بماله فأهمنى أمره وأزعجنى أن أراه فى مستقبل أيامه بائساً معدماً . يريقُ ماء وجهه على أعتاب

الذين كان يسدي إليهم نعمتَه ، وعلمتُ أنى إن عرضتُ عليه شيئا من مالى أخجلتُه وصغَّرْتُ نفسَه فى عينيه فاحتلت على أن أُدخلَ فى بيته خادما كانت فى بيتى وجعلتُ لها جعلا على أن تدسَّ فى كيس دراهمه كلَّ ليلةٍ خمسةَ دنانير من حيث لا يشعرُ بمأتاها ، ولا يقفُ على سرِّها . وما زال هذا شأنى وشأنه لا يعلمُ من أين يأتيه رزقه . ولا يشعر أحدٌ من الناس باستحالة حالهِ . وذهاب ماله ، حتى فرّق الموتُ بينى وبينه . فما نفعنى عملٌ من أعمالى ما نفعنى هذا العملُ ، وما كان الإحسانُ وحده سببَ سعادتى . بل كان سببها أنه أصاب موضعه . وخلص من شائبة الرياء . فهنأته بنعمة الله عليه وشكوتُ إليه وحشتى من الوحدة وخوفى من العاقبة . فقال . أما الوحشةُ فلن تفارقك حتى يأتى دورُك . وأما الخوفُ فلا حاجة لى ولا لأحد من الناس فى نقض ما أبرمه الله فى شأنك ، فقلتُ أنت من السعداء ، فهل تستطيعُ أن تشفعَ لى أو تصيب لى شفاعةً من ولىّ من الأولياء . وأيّ

من الأنبياء، قال لا تطلب المحال، ولا تصدق كل ما يقال،
فقد كنت مخدوعين في الدنيا لأوني بتلك الآمال الكاذبة
تي كان يبغيها ... لدين بثمن غال ولا يتقون الله
في ... وحد ... أسفدته الأ مظهر من مظاهر
الكرم ... يختص به الله بعض عباده المقربين.
ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه. ولا يأذن بالشفاعة لأحد
إلا إذا كان ممن هو مشفوع له وفي أعماق سريرته
ما تقتضي إشارته بمغفرة عن غيره من العصاة والمذنبين.
وإنه ... من ... وترفع من المحاباه

وما وصل من حديثه في هذا الحد حتى ... كوكبة
من ملائكة العذاب تحف برجل ... في النار و...
في يد كل واحد منهم مقرعة من حديد يقرع بها ... وهو
يصرخ ويقول « أهلكتني يا أبا حنيفه » فسألت صاحبي
عن ذنب الرجل: فقال إنه كان في حياته يتخذ في أعماله
ما يسمونه « الحيل الشرعيه » فكان يهب ماله لأحد أولاده

على نية استرداده قبل أن يحولَ عليه الحولُ ليتخلص من فريضة الزكاة . ويُطلق زوجته ثلاثاً ثم يأتي بمُحلِّلٍ يُحللها له فيعودُ إلى معاشرتها ، وكان يُرابي باسم الرهن فاذا جاءه من يريدُ أن يقترضَ منه مالا أبى أن يقرضَه إلا إذا وضع في يده رهناً فاذا وضع يدَه على ضيعته ألزمه أن يستأجرَها منه بمال كثير يُراعى فيه النسبةَ التي يُراعيها المرابون بين الربح وأصل المال . وكان إذا حلف لا يدخلُ بيتاً دخله من نافذته . أو لا يأكلُ رغيفاً أكله إلا لقمةً منه ، فذنبه أنه كان يعمدُ إلى الأحكام الشرعية فينتزعُ منها حكمها وأسرارها ثم يرفعها الى الله مشورة جوفاء ليخدعه بها وينششهُ فيها كما فعل مع الأطفال والبله مستنداً على تقليد أبي حنيفة أو غيره من كبار الأئمة وأبو حنيفة أرفعُ قدراً وأهدى بصيرةً من أن يتخذ الله هزؤاً وسخريةً وأن يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين

وما انقطع عنا صوتُ هذا الشقي حتى رأينا شقياً آخر ذا لحية طويلة كثة قد أحاط به ملكان وشدا عنقه بسلسلة ضخمة ذات حبات كبيرة وقد أخذ كلٌّ منهما بطرفٍ منه وهو يهمهم بكلمات مبهمة فيقرعه أحدهما على رأسه بمقمعة [illegible] من الحديد ، فدنوت منه وأنعمت النظر في وجهه فعرفته فتراجعتُ ذعراً وخوفاً وصحتُ أتكون هذا من أشقياء الآخرة وقد كان بالأمس من أقطاب الأولياء . فقال لي صاحبي إن هذا الذي كنت تحسبه من أولياء الله كان أكبر تاجر من تجار الدين . وما هذه اللحية والسبحة والهمهمة والدمدمة إلا حبائلُ كان ينصبها لاصطياد عقول الناس وأموالهم ولكن الناس لا يعلمون

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يمرون بنا هذا إلى جنته وذاك إلى ناره وأنا أسأل عن شأن كلّ منهم واحداً واحداً فأرى سعيداً من كنتُ أحسبُه شقياً ،

وشقياً من كنت أحسبه سعيداً، فعلمت أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على قلوبهم، لا على جوارحهم، ويسألهم عن نياتهم، لا عن أفعالهم. وأن لا سعادة إلا الصدق، ولا شقاء إلا الكذب. وعلمت أن الله لا يغفر من السيئات إلا ما كان هفوة من الهفوات، يلم بها صاحبها إلماما ثم يندم عليها، ورأيت أن أكبر ما يعاقب الله عليه جناية المرء على أخيه بسفك دمه أو هتك عرضه أو سلب ماله. وأن أضعف الوسائل إلى الله ذلك الركوع والسجود والقيام والقعود، فلو أن امرءاً قضى حياته بين ليل قائم، ونهار صائم، ثم مد يده طفلاً صغيراً في لقمة يختطفها من يده لاستحالت حسناته إلى سيئات، وما أغنى عنه نسكه من الله شيئاً.

وبينا أحدث نفسي بهذا الحديث وأقلب النظر في وجوه تلك المواعظ والعبر إذ قال لي صاحبي أتعرف هذين، وأشار إلى رجلين واقفين جنبة يتناجيان، أحدهما

شيخٌ جليلٌ أبيضُ اللحية، وثانيهما كهلٌ نحيفٌ قد اختلط مبيضُّه بمسوده. فما هي إلا النظرةُ الأولى حتى عرفت الرجلين العظيمين: رجل الإصلاح (محمد عبده) ورجل المرأة (قاسم أمين) فقلتُ لصاحبي هل لك في أن ندنوَ منهما ونسترقَ نجواهما من حيثُ لا يشعران، ففعلنا فسمعنا الأول يقولُ للثاني. ليتك يا قاسمُ أخذتَ برأيي وأحللتَ نصحي لك محلا من نفسك. فقد كنتُ أنهاك أن تفاجئ المرأة المصرية برأيك في الحجاب قبل أن تأخذ له عُدّتَهُ من الأدب والدين، فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وبذلها وإزالة تلك البقية الصالحة التي كانتْ في وجهها من ماء الحياء. فقال له صاحبه إني أشرتُ عليها أن تتعلم قبل أن تسفر وأن لا ترفع برقعها قبل أن تنسجَ لها برقعا من الأدب والحياء، قال له ولكنك ما كنتَ تعلم – كما نبأتُك – أنها جاهلةٌ لا تفهمُ هذه التفاصيلَ، وضعيفةٌ لا تعبأ بهذا الاستثناء، فكنتَ كمن أعطى الجاهلَ سيفاً

ليقتلَ به غيرَه فقتل نفسه ، فقال له أتأذنُ لي يامولاى أن أقول لك إنك قد وقعتَ في مثل ما وقعتُ فيه من الخطأ ، وأنك نصحتني بما لم تنتصحْ به ، أنا أردتُ أن أنصح المرأةَ فأفسدتُها كما تقول ، وأنت أردت أن تحيي الاسلام فقتلته إنك فاجأتَ جهلةَ المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحية والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما أردتَ ، وفهموا غيرمافهمت،فأصبحوا ملحدين.بعد أن كانوا مخرفين وأنت تعلمُ أن ديناً خرافيا خيرٌ من لا دين . قلت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشيطان.والجنة والنار.وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها وسمعت لهم بهم في لأحذ فتشوها دون لبابها.فتركوها جملة وحدة ، وقلت لهم إن كون إنه حق. والله إله حق ، فأنكروا الألوهية حقها وباطلها . فتهلل وجه الشيخ وقال له ما زلت ياقاسمُ في خرافك . مثلك في دنياك. لا تبصر في حجمه . ولا تنام عن ثأر ، يا قاسم لا تحمل هم . ولا تخش

نسر . وثق ن الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا ، ويعفو عن هفوتنا وسقطاتنا ، إنا ما أردنا إلا الخير لامتنا ، وما أوردنا لها إلا ما تحتمله عقولها ، فان كذبت فراستنا وأخطأ تقديرنا فذلك لأن المستقبل بيد الله

ولما وصلا من حديثهما إلى هذا الحد حتى تركا مكانهما ، وذهبا لشأنهما . فقلت لصاحبي هل لك أن ترى الميزان والصراط والجنة والنار . فاني ما زلت في شوق إلى رؤية تلك الأشياء ورؤية موقعها منذ رأيتها في الحركة الأخرى ، حتى رسمها المعري في بعض كتبه . قال أما الميزان فتقدير الأعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات ، وأما الصراط فهو السبيل إلى السعادة أو الشقاء . وأما الجنة والنار فلا عهد لي حتى الساعة بهما

وما كاد ينتهي لذلك حتى سمعت صوتا صارخا ماقرع سمعي

فى حياتى مثله ينادينى باسمى ، فعلمتُ أن قد جاء دورى ، فأدركنى من الهول والرُّعب ما أيقظنى من نومى ، فاستيقظتُ فلم أرَ حساباً ولا عقاباً ، ولا موقفاً ولا محشرا فعلمتُ أنها خيالاتٌ وأوهام ، أو أضغاثُ أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين

الشعرة البيضاء

مررتُ صباح اليوم أمام المرآة فلمحتُ في رأسي شعرةً بيضاء تلمعُ في تلك اللمةِ السوداء، لمعانَ شرارة البرقِ في الليلة الظلماء.

رأيتُ شعرة بيضاء في مفرقي(١) فارتعتُ لمرآها كأنما خيل إليّ أنها سيف جرده القضاء على رأسي، أو علمٌ أبيض يحمله رسولٌ جاء من عالم الغيب ينذرني باقتراب الأجل، أو بأسٌ قام عارضٌ دون الأمل. أو جذوة نار علقتْ بأهداب حياتي علوقها بالحطب الجزْل. ولا بدّ لها متى وقعتْ في منبتها وتأدت في مسيرها من أن تبلغ مداها، أو خيطٌ من خيوط الكفن الذي تنسجه يد الدهر وتمدّه

(١) مفرق: موضع فرق الشعر

لباساً لجثتي عند ما تجرِّدُها من لباسها يدُ الغاسل

أيتها الشعرةُ البيضاء ! ما رأيتُ بياضاً أشبه بالسواد من بياضِك ، ولا نوراً أقرب إلى الظلمة من نورك . لقد أبغضتُ من أجلك كلَّ بياض حتى بياض القمر ، وكلَّ نورٍ حتى نور البصر ، وأحببتُ فيك كلَّ سواد حتى سواد الغربان . وكلَّ ظلام حتى ظلام الوجدان

أيتها الشعرةُ البيضاء ! ليت شعري من أيةِ ناحيةٍ خلصت إلى رأسي ، وفي أي مسلكٍ من مسالك الدهر مشيت إلى فودي .

كيف طاب لك المقام في هذه الأرض الموحشة التي لا تجدين فيها أنيساً يسامرك ، ولا جليساً يساهرك . وكيف لم يُرعْ قلبَك منظر هذا الليل الفاحم ، ولم يعش بصرك في هذا الظلام القاتم

أيتها الشعرةُ البيضاء ! لقد عبثت أمرك ، و حلت[1]

(١) لعل الصواب « وأستقبله »

بجملكِ ، وأصبحتْ لا أعرِفُ وجه الحيلةِ في البعد عنك ، والفرارِ من وجهك

لا ينفعني معك أن أنزعك من مكانك ، لأنك لاتلبثين أن تعودي إليه ، ولا ينقذني منك أن أخضّبك بالسواد ، لأنك لاتلبثين أن تنصلي [1] ولأني لا أُحبّ أن أجمع على نفسي بين مصيبتَيْنِ ، مصيبة الشيب ، ومصيبة الكذب

أيتها الشعرةُ البيضاء ! يخيّلُ إليّ وأنا أنظرُ إليك أنك من ذواتِ الحيلةِ والدهاء ، والكيدِ والخبثِ ، وأنك تهمِسين في آذان أخواتك السود اللواتي بجانبك تحاولين إغراءهن بالتشبه بك ، وترتدي بردائك ، وكأني بك وقد أشعلتِ في هذه البيئةِ الهادئة المطمئنة حرباً شعواء ، وفتنةً عمياء ، يختلط فيها الرامحُ بالنابل [2] والدارع بالحاسر [3] ، ويهلكُ فيها القاعد والقائم ، والمظلومُ والظالم

---

(١) نصل الشعر خرج من الخضاب (٢) الرامح حامل الرمح والنابل ذو النبل
(٣) الدارع لابس الدرع والحاسر خلافه

إن كان هذا مصيرك فسيكون شأنُك شأن ذلك السائح الأبيض الذى ينزل بأمة الزنج مستكشفاً ، فيُصْبِحُ مستعمراً ، ويدخل أرضها سلماً ، ويفارقها حرباً ، فأسأل الله العافية منك ، ولأمة الزنج السلامةَ من صاحبك ، فكلاكما مشئُوم الطلعة فى مقامه وارتحاله ، وكوكب النَّحْس فى وقوفه وتسياره

أيتها الشعرةُ البيضاء ! ما أنتِ ، وماشأنُك ، وما وفودك إلىّ ، وما مكانُكِ منى ، وما مقامُك عندى؟ إن كنتِ ضيفاً ، فأين استئذانُ الضيف وتلطُّفُه ؟ وتجمله وتوددُه ، وإن كنت نذيراً ، فأنا أعلم من الموت وشأنه مالا أحتاجُ معه إلى نذير ، فلم يبق إلا أن تكونى أوقح الخلائق وجهاً ، وأصلبها خداً ، وأنك قد نزلت من السماجة والفُضُول منزلةً لا أرى لك فيها شبيهاً إلا تلك الحيةَ التى تلجُ كل جُحرٍ من أجحار الهوام والحشرات تعده جُحرها ، وتحسَبهُ بيتها

أيبلغُ بك الشأن وأنتِ التى يضربون الأمثال بدقتها

وخفائها ، ويبعثون الملاقطَ والمقاريضَ وراءها فلا يكادون يعرفون السبيلَ إلى مدارجها ومكامِنها ، أن تملئ من الرُّعب قلباً لا يروعُه السيفُ المجرَّدُ ، ولا السهمُ المسدد

أيتها الشعرة البيضاء ! هل لك أَن تتجاوزى عما أسأتُ به إليكِ فى إطالة عتبِكِ ، واستثقالِ ظِلّك ، فلقد رجعتُ إلى نفسى فعلمتُ أنكِ أكرمُ الخلائقِ عندى ، وأعظمُها شأناً فى عينى

هنيئاً لكِ رأسى مصيفاً ومرتعاً ، وهنيئاً لكِ فودى مَرَاداً ومَسرحاً ، فأنتِ رسولُ الموت الذى مازلتُ أطلبُه مذ عرفتُه فلا أجدُ له سبيلا ، ولا أعرفُ له رسولا

ما الذى يحملُه لكِ فى صدره من الحقدِ والمَوْجدةِ رجلٌ لم ينعمْ بشبابه ، فيحزنَ على ذَهابه ، ولم يذقْ حلاوة الحياة ، فيجزع لمرارةِ الممات ، ولم يستنشقْ نسماتِ السعادة غصناً رَطْباً ، فيأسَى عليها عوداً يابساً

ما الذى يَنقمُه من شؤونك رجلٌ يعلمُ أنك وحيٌ

الأملِ الذى يبشره بقُرب النجاة من حياةٍ ليس فيها من السعادة والهناء إلا لحظاتٌ قليلةٌ يكدرُها ما يحيطُ بها من الهموم والأحزان، كما تكدرُ أنفاسُ الحزن الحارةُ صفحةَ المرآةِ أليس كلَّ ما أعُدُّه عليك من الذنوب أنك طليعةُ الموت، والموتُ هو الذى يُخلصُنى من منظر هذا العالم المملوء بالشرور والآثام، الحافلِ بالآلام والأسقام، الذى لا أُغمِضُ عينى فيه إلا لأفتحها على صديق يغدرُ بصديقه، وأخٍ يخونُ أخاه، وعشيرٍ يحددُ أنيابهُ ليمضغَ عشيرَه، وغنىّ يضنُّ على الفقير بفُتات مائدته، وفقيرٍ يقترحُ على الدهر حتى بلغةَ الموتِ فلا يظفرُ بأُمنيتهِ، وملِكٍ لا يفرقُ بين رعيته وماشيتهِ، ومملوكٍ لا يميزُ بين مُلك الملِك وربوبيته، وقلوبٍ تضطرمُ حقداً على غير طائل، ونفوس تتفانى قتلا على لون حائل، وظلّ زائل، وغرضٍ باطل، وعقولٍ تتهالكُ وجداً على نار تحرقُها، وأنيابٍ تُمزقها، وعيونٍ حائرة، فى رءوسٍ طائرة، تنظرُ ولا ترى شيئاً مما حولها، وتلمعُ ولا تكادُ

تبصرُ ما أمامها، إن كان هذا هو ذنبُكِ عندى فاستكثرى من ذنوبكِ فانى لك من الغافرين

أيتها الشعرةُ البيضاء! مرحباً بكِ اليوم ، ومرحباً بأخَوانِك غداً ، ومرحباً بهذا القضاء المختبىء وراءك ، أو الكامنِ فى أطوائكِ ، ومرحباً بتلكَ الغُرفةِ التى أخلو فيها بربى ، وآنَسُ بنفسى ، من حيث لا أسمعُ حتى دوىَّ المدافعِ ، ولا أرى حتى غُبارَ الوقائع !

أهلاً بوافدةٍ للشيب واحدةٍ
وإن تراءتْ بشكل غيرِ موْدود

الصياد

حدّثَ أحدُ الأصدقاء قال: بينا أنا في منزلي صبيحةَ يوم إذ دخل عليّ رجلٌ صيادٌ يحملُ في شبكةٍ فوق عاتقه سمكةً كبيرةً فعرضها عليّ فلم أساومْه فيها بل نقدتُه الثمنَ الذي أراده، فأخذه شاكراً متهللا وقال: هذه هي المرةُ الأولى التي أخذتُ فيها الثمنَ الذي اقترحتُه، أحسن الله إليك كما أحسنتَ إليّ، وجعلك سعيداً في نفسِك، كما جعلك سعيداً في مالك، فسررتُ بهذه الدعوةِ كثيراً وطمعتُ في أن تتفتحَ لها أبوابُ السماء المغلقةُ دوني، وعجبتُ أن يهتدي شيخٌ عاميٌّ إلى معرفة حقيقةٍ لا يعرفها إلا القليلُ من الخاصة، وهي أن للسعادة النفسيةِ شأناً غيرَ شأنِ السعادةِ المالية، فقلتُ له يا شيخُ وهل توجدُ سعادة غيرُ سعادةِ المال، فابتسمَ ابتسامةً هادئةً مؤثرةً وقال:

لو كانت السعادةُ سعادةَ المالِ لكنتُ أنا أشقى الناس، لأنني أفقر الناس، قلتُ وهل تعد نفسَك سعيداً، قال نعم، لأني قانعٌ برزقي، مغتبطٌ بعيشي، لا أحزنُ على فائتٍ من العيش، ولا تذهبُ نفسي حسرةً وراء مطمعٍ من المطامع، فمن أيّ بابٍ يخلص الشقاء إلى قلبي؟ قلت أيها الرجلُ أين يُذْهَبُ بك، ما أرى إلا أنك شيخٌ قد اختُلِس عقله، كيف تعدُّ نفسَك سعيداً وأنتَ حافٍ غيرُ منتعل، وعارٍ إلا قليلا من الأسمال البالية، والأطمارِ السحيقة؟ قال إن كانت السعادةُ لذةَ النفسَ وراحتَها، وكان الشقاءُ ألمَها وعناءَها، فأنا سعيدٌ لأني لا أجدُ في رثاثة مَلْبَسي، ولا في خشونة عيشي، ما يولدُ لي ألماً، أو يُسَبِّبُ لي هماً، وإن كانت السعادةُ عندكم أمراً وراء ذلك، فأنا لا أفهمُها إلا كذلك، قلتُ ألا يُحزنك النظرُ إلى الأغنياء في أثاثهم ورياشهم، وقصورهم ومراكبِهم، وخَدَمِهم وخَولهم، ومطعَمِهم ومشربِهم، ألا يُحزنك هذا الفرقُ العظيمُ بين حالتك وحالِهم؟ قال إنما

يُصَغرُ جميعَ هـذه المناظرِ فى عينى ويهونها عندى أنى لا أجدُ أصحابَها قد نالوا من السعادة بوجدانِها ، أكثرَ مما نلتُه بفقدانها

هذه المطاعمُ التى تذكرُها إن كان الغرضُ منها الامتلاء فأنا لا أذكر أنى بتُّ ليلةً فى حياتى جائعاً ، وإن كان الغرضُ منها قضاء شهوة النفسِ فأنا لا آكل إلا إذا جعتُ، فأجدُ لكل ما يدخل جوفى لذةً لا أحسبُ أن فى شهوات الطعامِ ما يفضلُها ، أما القصورُ ، فان لدىَّ كُوخاً صغيراً لا أشعرُ أنه يضيقُ بى وبزوجتى وولدى فأفرغَ السنَّ على أن لم يكن قصراً كبيراً ، وإن كان لابدَّ من امتاع النظرِ بالمناظرِ الجميلة فحسبى أن أحمِلَ شبكتى على عاتقى كلَّ مَطلعِ فجر وأذهبَ بها إلى شاطىء النهر ، فأرى منظرَ السماء والماء ، والأشعةِ البيضاء ، والمُروجِ الخضراء ، فما هي إلا لفتةُ الجِيد أن يَطْلعَ من ناحية الشرق قرصُ الشمس كأنه مجنٌّ من

ذَهَب ، أوقطعةٌ من لهب ، فلا يبعدُ عن خط الأُفُقِ ميلا أوميلَين حتى ينثُرَ فوق سطح النهر حليه المتكسر ، أودرّه المتحدّر . فاذا تجلَّى هذا المنظر أمام عينيّ يتخلله سكونُ الطبيعة وهدوءها ، ملكَ عليَّ شعوري ووجداني فاستغرقت فيه استغراقَ النائِم في الأحلام اللذيذة حتى لا أُحِبَّ أن أعودَ إلى نفسي إلى يوم النشور ، ولا أزال هكذا هائما في أحلامي حتى أشعرَ بجَذْبةٍ قوية في يدي فأنتبه فاذا السمك في الشبكة يضطربُ ، وما اضطرابُه إلا لأنه فارقَ الفضاءَ الذي كان يهيمُ فيه مطلَق السراح وبات في المحبس الذي لا يجدُ فيه مراحاً ولا مضطرَباً ، فلا أجد له شبيهاً في حالَتيه إلا الفقراء والأغنياء ، يمشي الفقيرُ كما يشتهي ويتنقلُ حيثُ يريد ، كأنما هو الطائرُ الذي لا يقعُ إلا حيثُ يطيب له التغريدُ والتنقير ، ولولا أن تتخطاه العيونُ وتنبو عنه النواظر ما طار في كل فضاء ، ولا تنقل حيث يشاء ، أما الغنيُّ فلا يتحركُ ولا يسكنُ إلا وعليه من الأحداق نطاقٌ ، ومن

الأرصاد أغلالٌ وأطواق ، ولايخرجُ من منزله إلا إذا وقف أمام المِرآة ساعةً يؤلفُ فيها من حقيقته وخياله ناظرا ومنظورا ، ثم يُطيلُ التفكرَ هل يقعُ المنظورُ من الناظر موقعاً حسناً ، حتى إذا استوثق لنفسه بذلك خرج إلى الناس يمشي بينهم مِشية يحرصُ فيها على الصورة الذى استقر رأيه عليها ، فلا يطلق لجسمه الحرية فى الحركة والالتفات حتى لايخرجَ بذلك عن حكمها ، ولا لفكره الحريةَ فى النظر والاعتبار بمشاهدِ الكون وآياته مخافةَ أن يَغفل عن إشارات السلام ، ومظاهرِ الاكرام

فاذا أخذت من السمك كفافَ يومى عدتُ به وبعتُه فى الأسواق أو على أبواب المنازل ، فاذا أدبر النهارُ عدتُ إلى منزلى فيَعتَنِقُنى ولدى وتبش فى وجهى زوجتى ، فاذا قضيتُ بالسعى حق عيالى وبالصلاة حقَّ ربى نمتُ فى فراشى نومةً هادئةً مطمئنةً لا أحتاج معها إلى ديباج وحرير ، أو مهدٍ وثير ، فهل أستطيعُ أن أعدَّ نفسى شقياً وأنا أروحُ

الناس بالا ، وإن كنت أقلَّهم مالا ؟

لافرق بيني وبين الغنيّ إلا أن الناس لاينهضون إجلالا لى إذا رأوني، ولا يمدون أعناقهم نحوى إذا مررتُ بهم ، وأهْوِنْ به من فرقٍ لا قيمة له عندى ، ولا أثر له فى نفسى ، وما يَعنيني من أمرهم إن قاموا أو قعدوا ، أو طاروا فى الهواء أو غاصوا فى أعماق الماء ، مادمتْ لا علاقة بيني وبينهم ، وما دمت لا أنظر إليهم إلا بالعين التى ينظرُ بها الانسانُ إلى الصور المتحركة

لا علاقة بيني وبين أحد فى هذا العالم إلا تلك العلاقة التى بيني وبين ربي، فأنا أعبده حقَّ عبادته، وأخلص فى توحيده فلا أعتقد ربوبيةَ أحدٍ سواه ، ولا أكتمُك ياسيدى أنى لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لأحدٍ من الناس ، ولقد أخذ هذا اليقينُ مكانه من قلبي حتى لو طلع على الملِكُ المتوج فى مواكبه وكواكبه ، وراياته وأعلامه ، لما خفق له قلبي خفقةَ الرهبة والخشية ، ولا شغل

من نفسى مكاناً أكثر مما يشغله ملكُ التمثيل

ولقد كان هذا اليقينُ أكبرَ سببٍ فى عزائى وراحةِ نفسى من الهموم والأحزان ، فما نزلتْ بى ضائقةٌ ولا هبتْ علىّ عاصفةٌ من عواصف هذا السكونِ إلا انتزعنى من بين مخالبها وهوّنها علىّ حتى لا أكاد أشعر بوقعها ، وكيف أتألم المصابٍ أنا أعلم حقّ العلم أنه مقدورٌ لا مفر لى منه ، وأننى مأجورٌ عليه على قدر احتمالى إياه وسكونى إليه

آمنتُ بالقضاء والقدرِ خيره وشرِّه ، وباليوم الآخِرِ ثوابه وعقابه ، فصغرتْ الدنيا فى عينى ، وصغر شأنها عندى ، حتى ما أفرح بخيرها ، ولا أحزن لشرها ، ولا أعوِّل على شأنٍ من شؤونها حتى شأن الحياة فيها ، وأقسمُ ما خرجتُ مرةً إلى ضفة النهر حاملا شبكتى فوق عاتقى إلا وقع الشكُّ فى نفسى هل أعودُ إلى منزلى حاملا أم محمولا

ما العالم إلا بحرٌ زاخر ، وما الناس إلا أسماكُه المائجةُ فيه ، وما ريبُ المنون إلا صيادٌ يحملُ شبكته كل

يوم ويلقيها فى ذلك البحر فتمسكُ ما تمسكُ ، وتترك ما تترك ، وما ينجو من شبكتهِ اليومَ لا ينجو منها غداً ، فكيف أغتبطُ بما لا أملك ، أو أعتمدُ على غير معتمد ، إذن أنا أضلُّ الناس عقلا ، وأضعفهم إيمانًا

قال المحدِّث: فأكبرتُ الرجل فى نفسى كلَّ الإكبار، وأعجبت بصفاء ذهنهِ وذكاء قلبهِ وحسدتُه على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه ، وقلتُ له يا شيخُ : إن الناس جميعًا يبكون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها ، فاستقر رأيهم على أن الشقاء لازمٌ من لوازم الحياةِ لا ينفك عنها ، فكيف تعد العالم سعيداً وماهو إلا فى شقاء ، قال لا ياسيدى إن الانسانَ سعيدٌ بفطرته ، وإنما هو الذى يجلبُ بنفسه الشقاء إلى نفسه ، يشتدُّ طمعه فى المال فيتعذَّر عليه مطمَعُه فيطولُ بكاؤه وعناؤه ، ويعتقدُ أن بلوغَ الآمال فى هذه الحياةِ حقٌّ من حقوقه ، فاذا أخطأ سهمُه ، والتوى عليه غرضُه أنَّ وشكى شكاةَ المظلومِ من الظالم، ويبالغُ فى حسن

ظنه بالأيام فاذا غدرتْ به فى محبوبٍ لديه من مال أو ولد ، فاجأه من ذلك مالم يكن يقَدِّرُ وقوعه، فناله من الهم والألم ما لم يكن ليناله لو خبر الدهر ، وقتل الأيامَ علماً وتجربة ، وعرف أن جميع ما فى يد الانسان عاريةٌ مستردة ، ووديعةٌ موقوفة ، وإن هذا الإحراز الذى يزعمه الناسُ لأنفسهم خُدعةٌ من خُدع النفوس الضعيفة ، ووهم من أوهامها

إن كثيرمايصيب الناس من شِقوة إنما يأتى من طريق الأخلاق الباطنة ، لا من طريق الوقائع الظاهرة ، فالحاسد يتألم كلما وقع نظرُه على محسود ، والحقود يتألم كلما تذكر أنه عاجز عن الانتقام من عدوه ، والطماع يتألم كلما خاب أملُه فى مطمع ، والشاربُ يتألم كلما أفاق من سكره ، والعاهرُ يتألم كلما ناجته بالأثم سريرتُه ، والظالم يتألم كلما سمع ابتهالَ المظلوم بالدعاء عليه،أوحافتْ به عاقبة ظلمه وكذلك شأنُ الكاذب والنمام والمغتاب وكل من تشتمل نفسُه من رذيلة من الرذائل

من أراد أن يطلبَ السعادةَ فليَطْلُبْها بين جوانب النفس الفاضلة ، وإلا فهو أشقى العالمين ، وإن أحرز ذخائرَ الأرض وخزائنَ السماء

قال الصديق : فما وصل الصيادُ من حديثه إلى هذا الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه وقال أستودعك الله يا سيدى وأدعو لك الدعوةَ التى أحببتها لنفسك وأحببتها لك ، وهى أن يجعلك الله سعيداً فى نفسك ، كما جعلك سعيداً فى مالك ، والسلام عليك ورحمة الله .

الانتحار

فى كلّ مَوسِمٍ من مواسم الامتحان المدرسىّ نسمعُ بكثيرٍ من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والراسبين ، ولو رُبّى التلميذُ تربيةً دينية لما هان عليه أن يخسر سعادته الأخروية خسراناً مبيناً أسفاً على أن لم ينل كلّ حظه من السعادة الدنيوية ، ولو رُبى تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوَى وجهه عنها لأنها لم تُقَدَّمْ إليه فى لُفافة الشهادة المدرسية ، ولو أن أستاذه ملأ قلبَه بنور الايمان ولقنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه أن جنايةَ المرء على نفسه أكبرُ إثماً عند الله وأعظم جرما من جنايته على غيره لما خاطر بدينه فى آخر ساعةٍ من ساعات حياته،وهى الساعة التى يُنيب فيها العاصى إلى ربه،ويستغفر فيها المذنب من ذنبه ، ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس

الأخلاقِ والآداب أن العلم صفةٌ من صفات الكمال لا سلعةٌ من سِلعِ التجارة يجب أن ينظر إليه طالبُه من حيثُ ذاتُهُ ، لا من حيث كونه وسيلةً من وسائل العيش ، لما جرى على تلك القاعدةِ الفاسدة « الشهادةُ بِلاَ علمٍ خيرٌ من العلم بلا شهادة » ولو أنه رباه على الاستقلال الذاتى وعلمه أن الشرفَ فى هذه الحياة على قدر ما يبذُلُ الانسانُ من الجهد فى خدمة الأمةِ أو المجتمعِ سواء أكان فى قصر الملكِ أم فى دار الوزارة ، وفى حانوت التجارة ، أم فى معمل الصناعة ، لما أكبرَ مناصبَ الحكومةِ هذا الاكبار ، ولا احتفل بها احتفالَ من لا يرى للحياة معنًى بدونها ، ولو أنه نَفث فى رُوعه رُوحَ الشجاعةِ النفسية وعوّده الصبرَ والجلَدَ فى مواقف الشدةِ والبلاء لما جزعَ هذا الجزعَ الفاضح ، ولا جُنَّ هذا الجنونَ الذى خيَّلَ إليه أن عذابَ النزع أهوَنُ من عذاب الهم

لا يَجنى الطالبُ على نفسه ، وإنما يجنى عليه والدُه وأستاذه والمجتمعُ الذى يعيش فيه

أما الوالدُ فانه يقول له وهو ذاهبٌ به إلى المدرسة ستكون غداً يا بُنى مديراً كهذا المدير ، ووزيراً كهذا الوزير ، وكلما أراد أن يحُضّه على الاجتهاد فى طلب العلم ويخوفه عاقبة فشله فى الامتحان صور له المستقبلَ المجرد من الوظيفة أقبح تصوير وأشنعَه، وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفى فيقول له إذا لم تنجح فى الامتحان فموتك أفضلُ من حياتك ، وأما الأستاذ فانه يضرب له من نفسه مثلا على وجوب احترام المَنْصِب وإجلاله وإنزاله المنزلة الأولى بين أعمال المجتمع الانسانى إذ يراه بعينه يتجرعُ مرارةَ الذل ويعانى من كبرياء رؤسائه وقسوة المسيطِرين عليه عناء شديداً ، ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجلُ الشريف حرصاً على مَنصبه وإرعاءً عليه ، فكأنما يلقى عليه درساً عملياً موضوعه « إن من يُخاطر بمنصبِه يخاطر بحياته لأن المنصب كلُّ شىء فى هذه الحياة » أما المجتمع فانه يحترم الموظفَ الصغير ، أكثرَ مما يحترم العالم الكبير، ويطير إلى

تهنئته بإقبال المنصِب عليه وتعزيتِه يوم إدباره عنه ، كأن الكوكب لا يدور إلا فى دائرة المناصب نحوساً وسعوداً ، فاذا رأى الناشىء ذلك أكبر الوظيفة أيما إكبار ، ولجّ به الحرصُ عليها ، والتلصق بها ، وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه ، أو بعدِها عنه ، فاذا وُفق إليها لطم بأنفه قبة السماء ، وداس بنعله هام الجوزاء ، وإن يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول ذلك الشاعر الأحمق : فإما الثريا وإما الثرى

أيها الناشىء : لقد جهل أبوك وغشك أستاذك ، وخدعك هذا المجتمعُ الفاسد، فكن أحسنَ حالا منهم واعلمْ أن شرف العلم أكبرُ من شرف المنصب ، وأن المنصب ما كان شريفاً إلا لأنه حسنةٌ من حسنات العلم ، وأثر من آثاره ، فان فاتك حظك منه فلا تحفِل به ، فهو أحقر من أن تشتد فى أثره ، أو تبذل حياتك وجداً عليه ، ولا تحسدْ أربابَ المناصب على مناصبهم ، فانما يخدعوك بزُخْرُف

من القول ، وظاهر من النعمة ، وبَهْرجٍ من الابتسام ، ووراء ذلك لو علمتَ قلبٌ يقطرُ دماً ، وفؤادٌ يَضطرِم لوعةً وأسًى

خذْ لنفسِك حظَّها من العلم والأدب ، ولا تحفِلْ بعد ذلك بشيء ، فقد ربحتَ كلَّ شيء

الجمال

الجمالُ هو التناسبُ بين أجزاء الهيئاتِ المركبةِ، سواء أكان ذلك فى الماديات أم فى المعقولات ، وفى الحقائق أم فى الخيالات

ما كان الوجهُ الجميلُ جميلاً إلا للتناسُب بين أجزائه ، وما كان الصوت الجميلُ جميلاً إلا للتناسب بين نَغَماتهِ، ولولا التناسبُ بين حبّات العِقدِ ما افتتنت به الحسناء ، ولولا التناسقُ فى أزهار الرّوض ما هام به الشعراء

ليس للتناسب قاعدةٌ مطردةٌ يستطيع الكاتب أن يُبيِّنها ، فالتناسب فى المرئيات ، غيرُه فى المسموعات ، وفى الرسوم ، غيره فى الخطوط ، وفى الشؤون العلمية ، غيره فى القصائدِ الشعرية ، على أنه لا حاجةَ إلى بيانه ما دامت

الأذواقُ السليمة تُدرك بِفطرتها ما يلائمها فترتاح إليه ، وما لا يلائمها فتنفِرُ منه

إن كثيراً من الناس يستحسنون الأنفَ الصغيرَ في الوجهِ الكبير ، والرأسَ الكبيرَ في الجسم الصغير ، ولا يفرقون بين البرَص في الجسم الأسود ، والخالِ في الخد الأبيض ، ويَطْرَبون لنقيق الضفادع كما يطربون لخرير المياه ، ويفضلون أصواتَ النواعيرِ على أنغام العيدان ، ويُعجبون بشعر ابنِ الفارض وابن معتوق والبرعي أكثرَ مما يُعجَبون بشعرِ أبي الطيب وأبي تمامٍ والبُحْتُرِي ، ويضحكون لما يبكي ، ويبكون مما يضحك ، ويرضَون بما يغضب ، ويغضبون مما يرضي

أولئك هم أصحابُ الأذواقِ المريضة ، وأولئك هم الذين تصدر عنهم أفعالهم وأقوالهم مشوّهةً غيرَ متناسبةٍ ولا متلائمةٍ ، لأنهم لم يدرِكوا سرَّ الجمال فَيصدرَ عنهم ، ولم تألفه نفوسهم فيُصبِحَ غريزةً من غرائزهم

إن رأيتَ شاعراً يبتدىء قصائدَ التهنئةِ بالبكاء على الاطلال ، ويُودع القصائدَ الرثائية ، النكاتِ الهزلية ، ويتغزل بممدوحهِ ، كما يتغزل بمعشوقه ، أو متكلما يقتضبُ الأحاديثَ اقتضاباً . ويهزل فى موضع الجِد، ويجدُّ فى موضع الهزل،أو صحفياً يضع العنوانَ الضخمَ للخبرالتافه، ويكتب مقدّمةً فى السماء لموضوع فى الأرض ، أو حاكما يضع النَّدَى فى موضع السيف ، والسيفَ فى موضع النَّدى ، أو ماشياً يتلوّى فى طريقه من رصيف إلى رصيف ،كأنما يرسِم خطًا متعرّجا،أولابساً فى الشتاء غِلالةَ الصيَّف، وفى الصيفِ فروةَ الشتاء ، فاعلم أن ذوقَه مريضٌ ،وأنه فى حاجة إلى معالجة ذَوقه ، كحاجة المجنونِ إلى علاج عقلِه ، والمريضِ إلى علاج جسمِه

كما أنه ليس كلُّ مجنونٍ يرجى شفاؤُه ،ولا كلُّ مريض يرجى إبلاله ، كذلك ليس كلُّ من فسد ذوقه يُرجَى صلاحه، فان رأيت من تُؤملُ فى صلاحه خيراً وتجدُ فى نفسه

استعداداً لتقويم ذَوقِهِ فعلاجُه أن تحفَّه بأنواع الجمالِ وتدأبُ على تنبيهه إلى متناسباته ومؤتلفاتِه ، وان استطعتَ أن تُعلمَه فناً من الفنون الجميلةِ كالشعروالتصويرِ والموسيقا فافعلْ ، فإنها المقوِّماتُ للأذواق ، والغارساتُ في النفوس ملَكاتِ الجمال

الكذب

كَذِبُ اللسانِ من فُضول كَذِبِ القلب، فلا تأمن الكاذبَ على وُدّ، ولا تثقْ منه بعهد، واهربْ من وجهه الهربَ كلّه، وأخوفُ ما أخافُ عليك من خلطائك وسجرائك الرجلُ الكاذب

عرّف الحكماء الكَذِبَ بأنه مخالفةُ الكلامِ للواقع، ولعلهم جاروا في هذا التعريفِ الحقيقةَ العرفيةَ ولو شاءوا لأضافوا إلى كذِب الأقوالِ كذِبَ الأفعال

لا فرق بين كَذب الأقوالِ وكذب الأفعال في تضليل العقولِ والعبثِ بالأهواء وخذلان الحقِّ واستعلاء الباطلِ عليه، ولا فرق بين أن يَكذبَ الرجلُ فيقول إني ثقةٌ أمين لا أخونُ ولا أغدرُ فأقرِضني مالاً أؤدِّه إليك ثم

لا يُؤديه بعد ذلك. وبين أن يأتيك بسبحةٍ يُهَمْهِمُ بها فتنطق سبحتُه بما سكت عنه لسانُه من دعوى الأمانةِ والوفاء، فيخدعُك في الثانية كما خدعك في الأُولى، لا بل يستطيعُ كاذبُ الأفعالِ أن يخدعَك ألفَ مرةٍ قبل أن يخدعَك كاذبُ الأقوالِ مرةً واحدةً، لأنه لا يكتفي بقول الزُّور بلسانه حتى يُقيمَ على قضيتِه بينةً كاذبةً من جميع حركاتِه وسكناتِه

ليس الكذِب شيئًا يستهان به، فهو أُسُّ الشرورِ ورذيلة الرذائلِ، فكأنه أصلٌ والرذائلُ فروعٌ له، بل هو الرذائلُ نفسُها، وإنما يأتي في أشكال مختلفة، ويتمثلُ في صُوَرٍ متنوعة

المنافقُ كاذبٌ لأن لسانَه ينطِق بغير ما في قلبه، والمتكبرُ كاذبٌ لأنه يدعي لنفسه منزلةً غيرَ منزلتِه، والفاسقُ كاذبٌ لأنه كَذِبَ في دعوى الإيمان ونقضَ ما عاهدَ اللهَ عليه، والنمّامُ كاذبٌ لأنه لم يتقِ اللهَ في فتنته، فيتحرى الصدقَ في نميمته، والمتملقُ كاذبٌ لأنّ ظاهرَه ينفعُك، وباطنَه يلذعُك

لقد هان على الناس أمرُ الكَذب حتى انك لَتجدُ الرجلَ الصادقَ فتَعرضُ على الناس أمرَه وتُطرفُهم بحديثه كأنك تَعرِضُ عجائبَ المخلوقات ، وتتحدثُ بخوارق العادات

فويلٌ للصادق من حياة نكدةٍ لا يجدُ فيها حقيقةً مستقيمةً ، وويلٌ له من صديقٍ يخونُ العهد ، ورفيقٍ يكذبُ الوُدَّ ومستشارٍ غير أمين ، وجاهلٍ يُفشى السِّر ، وعالمٍ يُحَرِّفُ الكلِمَ عن مواضِعِه وشيخٍ يدّعى الولايةَ كذباً ، وتاجرٍ يغشُّ فى سِلْعَتِه ، ويحنثُ فى أيمانه ، وصحفى يتّجرُ بعقول الأحرار ، كما يتّجرُ النخاسُ بالعبيد والإماء ، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس فى كلِّ صباحٍ ومساء

غرفة الاحزان

كان لى صديقٌ أُحِبُّه لفضله وأدبهِ أكثرَ مما أُحبه لصلاحه ودِينِهِ ، فكان يَرُوقُنى مَنظرُه ويُؤنسنى مَحضرُه ، ولا أبالى بعد ذلك بشىء من نسكه وعبادتهِ ، أو فسقِه واستهتاره ، لأننى ما فكرتُ قط أن أتلقى عنه علومَ الشريعة أو دروسَ الأخلاق

قضيتُ فى صحبته عهداً طويلا ما أنكرُ من أمره ولا ينكرُ من أمرى شيئاً حتى سافرتُ من القاهرة سفراً طويلا فتراسلنا حيناً ثم انقطعتْ عنى كُتُبُه فرابنى من أمره ما رابنى ، ثم رجعتُ فجعلت أكبرَ همى أن أراه فطلبته فى جميع المواطنِ التى كنت ألقاه فيها فلم أجدْه ، فذهبت إلى منزله فحدثني جيرانه أنه هجره من عهدٍ بعيد وأنهم

لا يعرفون أينَ مَصيرُه ، فوقفتُ بين اليأسِ والرجاء بُرْهةً من الزمان، يغالبُ أولهُما ثانيهَما حتى غلبه ، فأيقنتُ أنْ قَدْ فقدتُ الرجلَ ، وانى لن أجدَ بعد اليوم إليه سبيلا

هنالك ذَرَفتُ من الوجدِ دموعاً لا يذرفها إلا من قلَّ نصيبُه من الأصدقاء ، وأقفر رَبعُه من الأوفياء ، وأصبح غرَضاً من أغراض الأيام ، لا تُخطِئُه سِهامُها ، ولا تُغبِئُه آلامها(١)

بينا أنا عائدٌ إلى منزلى فى ليلةٍ من ليالى السّرار(٢) إذ دفعنى الجهلُ بالطريق فى هذا الظلامِ المدلهمِ إلى زُقاقٍ موحش مهجورٍ يخيَّلُ للناظر إليه فى مثل تلك الساعةِ التى مررتُ فيها أنه مسكنُ الجان،أو مأوى الغيلان ، فشعَرتُ كأنى أخوضُ بحراً أسود يزخرُ بين جبلَين شامخَين،وكأنَّ أمواجَه تقبِلُ بى وتُدبِرُ ، وترتفعُ وتنخفضُ ،فما توسطتُ

(١) أغبه الالم جاءه حيناً بعد حين (٢) ليالى السرار الليالى الاخيرة من الشهر

لُجَّته حتى سمعتُ في منزلٍ من تلك المنازل المهجورةِ أنةً تترددُ في جوف الليل ثم تلتها أختها ثم أخواتُها فأثّر في نفسي مسمعُها تأثيراً شديداً وقلتُ يا للعجب!! كم يكتمُ هذا الليلُ في صدره من أسرار البائسين، وخفايا المحزونين، وكنتُ قد عاهدتُ اللهَ قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى أقفَ أمامه وقفةَ المُساعدِ إن استطعتُ، أو الباكي إن عجزتُ، فتلمّستُ الطريقَ إلى ذلك المنزلِ حتى بلغتُه فطرقتُ البابَ طرْقاً خفيفاً فلم يُفتَحْ فطرقتُه أُخرى طرْقاً شديداً ففتحتْ لي فتاةٌ صغيرةٌ لم تكَدْ تسلخُ العاشرةَ من عمرها فتأملتُها على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها فإذا هي في ثيابها الممزقةِ، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة، وقلتُ لها هل عندكم مريضٌ، فزفرتْ زفرةً كاد ينقطعُ لها نياطُ قلبِها، وقالت أدْرِكْ أبي أيها الرجلُ فهو يُعالجُ سكراتِ الموت، ثم مشتْ أمامي فتبعتُها حتى وصلتْ إلى غُرفةٍ ذات بابٍ قصيرٍ مُسنَّمٍ فدخلتُها فخيل إليّ أني قد انتقلتُ من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وأن الغرفةَ

قبرٌ والمريضَ ميتٌ ، فدنوتُ منه حتى صرتُ بجانبه ، فاذا قفَصٌ من العَظْم يترددُ فيه النفَسُ تردّدَ الهواء فى البُرْجِ الخشَبيّ ، فوضعتُ يدى على جبينه ففتح عينَيه وأطال النظرَ فى وجهى ثم فتح شفتَيه قليلا قليلا وقال بصوتٍ خافتٍ : « أحمَدُ اللهَ فقد وجدتُ صديقى » فشعَرتُ كأن قلبى يتمشّى فى صدرى جزعاً وهلعاً وعلمتُ أنى قد عثرتُ بضالتى التى كنتُ أنشُدها ، وكنت أتمنى ألاّ أعثُرَ بها وهى فى طريق الفَناء ، وعلى باب القضاء ، وألاّ يُجددَ لى مرْآها حزناً كان فى قلبى كميناً ، وبين أضالعى دفيناً ، فسألتُه ما بالُه، وما هذه الحالُ التى صار اليها ، وكأنّ أنسَه بى أمدّ مِصباحَ حياته الضئيلَ بقليلٍ من النُّورفأشار إلىّ أنه يُحِبُّ النهوضَ فمددتُ يدى إليه فاعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقصُّ علىّ القصةَ الآتية : —

منذُ عشرسنين كنتُ أسكنُ أنا ووالدتى بيتاً يسكنُ بجانبه جارٌ لنا من أرباب الثّراء والنعمةِ ، وكان قصرُه يَضُمُّ

بين جَناحَيه فتاةً ما ضمت القصورُ أجنحتَها على مثلِها حُسناً وبهاء، ورونقاً وجمالا ، فألمَّ بنفسى من الوَجدِ بها مالم أستطعْ معه صبراً ، فما زلتُ بها اعالجها فتمتنعُ ، وأستنزلُها فتتعذر ، وأتأتّى إلى قلبها بكلِّ الوسائل فلا أصلُ إليه ، حتى عثرتُ بمنفذ الوعدِ بالزواج ، فانحدرتُ منه إليها ، فسكن جماحُها ، وأسلس قيادُها ، فسلبتُها قلبَها وشرفَها فى يوم واحد،وما هى إلا أيامٌ قلائلُ حتى عرفتُ أن جنيناً يضطربُ فى أحشائها ، فأُسْقِط فى يدى،وطفقتُ أرتئى بين أن أفىَ لها بوعدها، أو أقطعَ حبلَ وُدّها ، فآثرتُ أُخراهما على أُولاهما، وهجرتُ ذلك المنزلَ إلى المنزلِ الذى كنتَ تزورَنى فيه ، ولم أعدْ أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً

مرّتْ على تلك الحادثةِ أعوامٌ طِوالٌ وفى ذات يوم جاءنى منها مع البريد هذا الكتابُ ومد يدَه تحت وِسادته وأخرج كتاباً بالياً مصفرّاً فقرأتُ فيه ما يأتى : —

.... لو كان بى أن أكتبَ إليك لأُجددَ عهداً دارساً، أو وُداً قديماً، ما كتبتُ سَطْراً، ولا خططتُ حرفاً، لأنى لا أعتقدُ أن عهداً مثلَ عهدِك الغادر، ووداً مثلَ وُدِّك الكاذب، يستحقُّ أن أحفِلَ به فأذكره، أو آسفَ عليه فأطلب تجديدَه

إنك عرفتَ حين تركتَنى أن بين جنبيّ ناراً تضطرم، وجنيناً يضطرب، تلك للأسفِ على الماضى، وذاك للخوف من المستقبل، فلم تُبَل بذلك وفررتَ منى حتى لا تحمّلَ نفسَك مؤونةَ النظر إلى شقاء أنتَ صاحبُه، ولا تكلفَ يدكَ مسحَ دموعٍ أنت مرسلُها، فهل أستطيعُ بعد ذلك أن أتصورَ أنك رجلٌ شريف، لا بل لا أستطيعُ أن أتصور أنك إنسان، لأنك ما تركتَ خلةً من الخِلال المتفرقةِ فى نفوس العَجْماوات وأوابد الوحش إلا جمعتَها فى نفسك وظهرتَ بها جميعِها فى مظهرٍ واحد

كذبتَ علىّ فى دعواك أنك تُحِبُّنى، وما كنتَ تُحِبُّ

إلا نفسَك ، وكلُّ ما فى الأمر أنك رأيتَنى السبيلَ إلى إرضائها فمررتَ بى فى طريقك إليها ، ولولا ذلك ما طرفتَ لى بابا ، ولا رأيتَ لى وجهاً

خُنتَنى إذ عاهدتَنى على الزواج فأخلفتَ وعدَك ذَهابا بنفسك أن تتزوجَ امرأةً مجرمةً ساقطةً ، وما هذه الجريمةُ ولا تلك السَّقْطةُ إلا صنعةُ يدِك ، وجريرةُ نفسِك ، ولولاك ما كنتُ مجرمةً ولا ساقطةً ، فقد دافعتُك جهدى حتى عَيِيتُ بأمرك فسقطتُ بين يديك سقوطَ الطفلِ الصغير بين يدَى الجبارِ الكبير

سرقتَ عفتى ، فأصبحتُ ذليلةَ النفس حزينةَ القلب ، أستثقلُ الحياةَ وأستبطىء الأجلَ ، وأيَّة لذةٍ فى العيش لامرأةٍ لا تستطيعُ أن تكون زوجةً لرجل ، ولا أمًّا لولد ، بل لا تستطيعُ أن تعيشَ فى مُجتمَع من هذه المجتمعات البشريةِ إلا وهى خافضةٌ رأسَها ، مُسبِلةٌ جفنَها ، واضعةٌ خدَّها على كفها ، ترتعدُ أوصالُها ، وتذوبُ أحشاؤها ، خوفا من عبث العابثين ، وتهكمِ المتهكمين

سلبتني راحتي، لأني أصبحتُ مضطرةً بعد تلك الحادثةِ إلى الفِرار من ذلك القصر الذى كنتُ متمتعةً فيه بعشرة أبي وأمي، تاركةً ورائي تلك النعمةَ الواسعةَ وذلك العيشَ الرغدَ إلى منزل حقير في حيّ مهجور لا يعرِفهُ أحد، ولا يطرُقُ بابَه طارق، لِأَقضيَ فيه الصبابة الباقيةَ لى من أيام حياتى

قتلتَ أمى وأبى، فقد علمتُ أنهما ماتا، وما أحسَب موتَهما إلا حزناً لفقدى، ويأساً من لقائى

قتلتَنى، لأنّ ذلك العيشَ المُرَّ الذى شربته من كأسك، والهمَّ الطويلَ الذى عالجتُه بسببك، قد بلغا مبلغَهما من جسمى ونفسى، فأصبحتُ فى فراش الموت كالذّبالة المحترقةِ تتلاشى نفساً فى نفس، وأحسَبُ أن الله قد صنع لى، واستجاب دعائى، وأراد أن ينقلنى من دار الموتِ والشقاء، إلى دار الحياةِ والهناء

فأنتَ كاذبٌ خادعٌ، ولصٌّ قاتلٌ، ولا أحسَبُ أن الله تاركك دون أن يأخذَ لى بحقى منك

ما كتبتُ إليك هذا الكتابَ لأُجدّدَ بك عهداً، أو أخطُبَ إليك وداً ، فأنت أهونُ عليّ من ذلك ، على أنني قد أصبحتُ على باب القبرِ وفي موقفِ وَداعِ الحياة بأجمعها خيرِها وشرّها ، سعادتِها وشقائها ، فلا أملَ لي في وُدّ ، ولا متسعَ لعهد، وإنما كتبتُ إليك لأنّ لك عندي وديعةً وهي فتاتُك ، فإن كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمةَ الأُبوّة فأقبلْ إليها وخذْها إليك حتى لا يُدرِكُها من الشقاء ما أدرك أمَّها من قبلها

فما أتممتُ قراءةَ الكتاب حتى نظرتُ إليه فرأيتُ مدامعَه تتحدرُ على خدَّيه فسألتُه وما ذا تم له بعد ذلك، قال إني ما قرأتُ هذا الكتابَ حتى أحسستُ برِعدةٍ تتمشى في جميع أعضائي ، وخُيل إليّ أن صدريَ يحاولُ أن ينشقَّ عن قلبي حزناً وجزعاً فأسرعتُ إلى منزلها وهو هذا المنزلُ الذي تراني فيه الآن فرأيتها في هذه الغرفةِ على هذا السرير جثةً هامدة لا حَراك بها ، ورأيتُ فتاتَها إلى جانبها تبكي بكاء

مُرّاً فصعقتُ لهَول مارأيتُ،وتمثلتْ لى جرائمى فى غشيتى كأنما هى وحوشٌ صاريةٌ ، وأساودُ ملتفةٌ ، هذا ينشبُ أظافرَه،وذاك يُحدِّدُ أنيابَه ، فما أفقتُ حتى عاهدتُ اللهَ ألاّ أبرَحَ هذه الغرفةَ التى سميتُها « غرفةَ الأحزان » حتى أعيشَ فيها عيشَها ، وأموتَ موتَها

وهاأنذا أموتُ اليومَ راضياً مسروراً فقد حدثنى قلبى أن الله قد غفر لى سيئاتى بما قاسيتُ من العناء ، وكابدتُ من الشقاء

وما وصل من حديثه إلى هذا الحدّ حتى انعقد لسانه واكفهرَّ وجهُهُ وسقط على فراشه فأسلمَ الرُّوحَ وهو يقول:ــ ابنتى ياصديقى،فلبثتُ بجانبه ساعةً قضيتُ فيها مايجبُ على الصديقِ لصديقه ، ثم كتبتُ إلى أصدقائه ومعارفه فحضروا تشييعَ جنازته،ومارُئى مثلَ يومه يومٌ كانأكثرباكيةً وباكياً

ولما حثونا التُّربَ فوق ضريحِهِ
جزعْنا ولكن أىّ ساعة مجزع

يعلمُ اللهُ أنى أكتبُ قصته ، ولا أملكُ نفسى من البُكاء والنسيج، ولا أنسَى ما حَيِيتُ نداءه لى وهو يُودِّع نسماتِ الحياة وقولَه : « ابنتى يا صديقى »

فيا أقوياءَ القلوبِ من الرجال ، رِفقاً بضُعفاء النفوسِ من النساء ، إنكم لا تعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن وعفتهن ، أىّ قلبٍ تفجعون ، وأىّ دم تسفكون

الشرف

لو فهِم الناسُ معنَى الشّرفِ لأصبحوا كلُّهم شرفاء

ما من عاملٍ يعمَلُ فى هذه الحياةِ إلا وهو يطلبُ فى عمله الشرفَ الذى يتصورُه أو يُصوّرُه له الناس ، إلا أنه تارةً يُخطىء مكانَه وتارةً يُصيبُ

يَقتُلُ القاتلُ وفى اعتقاده أن الشرفَ فى أن ينتقمَ لنفسِه أو عِرْضِه بإراقة هذه الكميةِ من الدم ، ولا يُبالى أن يسميَه القانونُ بعد ذلك مجرماً ، لأن البيئةَ التى يعيشُ فيها لا تُوافقُ على هذه التسمية ، وهى فى نظره أعدلُ من القانون حُكماً ، وأصدقُ قولا

يفسقُ الفاسقُ وفى اعتقاده أنه قد نفض عن نفسه بعمله هذا غُبارَ الخمولِ والبلهِ الذى يُظلل الأعِفّاء والمستقيمين ،

وأنه استطاع أن يعمل عملا لا يُقدِمُ عليه إلا كلُّ ذى حِذْقٍ وبراعةٍ ، وشجاعةٍ وإقدام

يَسرِق السارقُ ويزوّر المُزوِّرُ ويخونُ الخائن ، وفى اعتقاد كلٍّ منهم أن الشرفَ كلَّ الشرفِ فى إحراز المال وإن كان السبيلُ اليه دنيئاً وسافلا ، وأن للذهب رنيناً تَخْفِتُ بجانب صوته أصواتُ المعترضين والناقدين شيئاً فشيئاً ، ثم تنقطعُ حتى لا يُسمَعَ بجانبه صوتٌ سواه

هكذا يتصورُ الأدنياءُ أنهم شرفاء ، وهكذا يطلبون الشرفَ ويخطئون مكانَه ، وما أفسد عليهم تصورَهم إلا الذين أحاطوا بهم من سجرائهم وخلطائهم وذوى جامعتهم ، أولئك الذين يحتقرون الموتورَ حتى يَغسِلَ الدمَ بالدم فيعظمونه ، وينعَوْن على الرجل العفِّ المستقيمِ بلاهتَه وخمولَه حتى يفجُرَ ويستهترَ فيُطرُونه ويُجِلّونه ، ويُكرِمون صاحبَ الذهب ولو أن كلَّ دينارٍ من دنانيره مِحجمٌ من الدم ، وأولئك

الذين يسمون الفقيرَ سافلا ، وطيّبَ القلبِ مُغفَّلا ، وطاهرُ السريرةِ بليداً ، والحليمَ عاجزاً

لا تعجبْ إن سمعتَ أن جماعةَ الأغنياء والجهلاء تنعكسُ فى أدمغتهم صُوَرُ الحقائقِ حتى تلبَسَ فى نظرهم ثوبا غيرَ ثوبها ، وتتراءى فى لون غيرِ لونها ، فإن بين الخاصةِ الذين نعتدُّ بعقولهم ونمتدحُ أفهامهم ومداركهُم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة ، حتى انه ليكاد يفخَرُ بالاولى ويستحي من الأخرى

لولا فسادُ التصوّرِ ما افتخر قائدُ الجيش بأنه قتل مائة ألفٍ من النفوس البشريةِ فى حربٍ لا يدافعُ فيها عن فضيلة ، ولا يؤيد بها حقاً من الحقوق الشرعيةِ أو الاجتماعية، ولولا فساد التصوّر ما وضع المؤرخون اسمَ ذلك السفاحِ بجانب أسماء العلماء والحكماء والأطباء خدَمَةِ الانسانيةِ وحَمَلَةِ عرشها وأصحابِ الأيادى البيضاء عليها فى سطرٍ واحدٍ من صحيفة واحدة ، ولولا فسادُ التصور ما جلس القاضى المرتشى فوق

كرسيِّ القضاء يفتلُ شاربيه ، ويُصعِّرُ خدَّيه ، وينظرُ نظراتِ الاحتقارِ والازدراء إلى المتهم الواقفِ بين يديه موقف الضَّراعةِ والذل ، ولا ذنبَ له عنده إلا أنه جاع وضاقتْ بهِ مذاهبُ العيشِ فسرَق دِرهما ، وهو يسرِقُ الدنانيرَ فى جميع آنائه وأوقاتهِ ، ولولاهلما توهّم وهو اللصُّ الكبيرُ ، أنه أشرف من هذا اللصِّ الصغير ، ولو باتا عند قَدْرَيْهما لوَقفا معاً فى مَوقفٍ واحدٍ أمام قاضٍ عادلٍ يحكمُ بإدانة الأول ، لانه سرَق مختاراً لِرُفِّهَ عيشه وبراءةِ الثانى ، لأنه سرق مضطراً ، لِيُنْقِذَ حياته من براثنِ الموت

فمن شاء أن يُهذِّبَ أخلاقَ الناس ، ويقوِّمَ مُعوَجّها فليهذبْ تصوراتِهم ، وليقوّمْ أفهامَهم ، يوافِهِ مايريدُ من التهذيب والتقويم

ليس من الرأى أن يُشيرَ المعلمُ على المتعلم أن يجعلَ هذا المجتمعَ الانسانيّ ميزانا يزنُ به أعمالَه ، أو مِرآةً يرى

فيها حسناته وسيئاته ، فالمجتمع الإنساني مصابٌ بالسقم في فهمه ، والاضطرابِ في تصوّره ، فلا عبرةَ بحكمهِ ، ولا ثقةَ بوزنهِ وتقديرهِ

ليس من الرأى أن يُرشِدَ المعلم المتعلمَ إلى أن يطلبَ في حياته الشرفَ الاعتباريَّ ، فليس كلُّ ما يعتبرهُ الناس شرفًا هو في الحقيقةِ كذلك

ألا تراهم يَعُدون أشرفَ الشّرفِ أن يتناولَ الرجلُ من الملك قطعةً من الفضة أو الذهب يُحلّي بها صدرَه ، وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله ، كما تبتاعُ المرأةُ من الجوهريّ حليتَها

لاشرف إلا الشرفُ الحقيقيُّ ، وهو الذي يناله الإنسانُ ببذْل حياتِه أو ماله أو راحتِه في خدمة المجتمعِ البشرى جميعه أو خدمةِ نوع من أنواعه

فالعالمُ شريفٌ ، لأنه يجلو صدأ العقلِ الانسانيّ ويصقل مرآتَه ، والمجاهدُ في سبيل الذّود عن وطنه شريفٌ ، لأنه

يحمى مواطنيه غائلة الأعداء، ويقيهم عادية الفناء، والمحسن الذى يضع الإحسان فى موضعه شريف، لأنه يأخذ بأيدى الضعفاء، ويحيى أنفس البؤساء، والحاكم العادل شريف، لأنه رسول العناية الإلهية إلا المظلومين يمنعهم أن يبغى عليهم الظالمون، وصاحب الأخلاق الكريمة شريف، لأنه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته فى عشرائه وخلطائه، ويلقى عليهم بالقدوة الصالحة أفضل درس فى الأخلاق والآداب، والصانع والزارع والتاجر أشراف متى كانوا أمناء مستقيمين، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشرى ويحتملون فى سبيل ذلك ما يحتملون من المؤونة والمشقة حذراً عليه من التهافت والسقوط

فإن رأيت فى نفسك أيها القارئ أنك واحد من هؤلاء فاعلم أنك شريف، وإلا فاسلك طريقهم جهدك، فإن لم تبلغ غايته، فأخذ القليل خير من ترك الكثير، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلتبك على عقلك البواكى

الحب والزواج

قرأت في بعض المجلات قصة قصها أحد الكتاب، موضوعها أن كاتبها غاب عن بلده بضعة أعوام ثم عاد إليها بعد ذلك فزار صديقاً له من أسرياء الرجال ووجوههم ومن ذوى الأخلاق الكريمة والأنفس العالية، فوجده حزيناً كئيباً على غير ما يعهد من حاله قبل اليوم، فاستفهم منه عن دخيلة أمره فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يحبها ويجلها ويفديها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعه ولم ترع عهده وأنها فرت منه إلى عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب، فاجتهد الكاتب أن يلقى تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها فلقيها في منزل عشيقها فاعتذرت اليها عن فعلتها بأنها لا تحب زوجها لأنه في الأربعين من عمره وهي

لم تبلغ العشرين ، وقالت إنها جرت فى ذلك على حكم الشرائع الطبيعية ، وإن خالفت الشرائعَ الدينيةَ لأن الأولى عادلةٌ ، والثانيةَ ظالمةٌ ، وقالت إن ما يسميه الناسُ بالزنا والخيانة هو فى الحقيقة طهارةٌ وأمانة ، لأن أساسَه الحبّ ، وكلُّ ما كان أساسه الحبّ فهو طاهرٌ شريفٌ ، وإن كان فى أعين الناس عَيباً وعاراً ، وقالتْ : ما الخيانة ولا الجريمةُ ، ولا الغشّ ولا الخِداعُ إلا أن تأذنَ المرأةُ لزوجها الذى تكرَهُه بالإلمام بها إلمامَ الأزواجِ بنسائهم مادامتْ لا تُحبُّه ولا تألفُ عِشْرتَه وقالت : لو أدركَ الناسُ أسرارَ الديانات وأغراضَها لعَرَفوا أنها متفقةٌ فى هذه المسألةِ مع الشرائع الطبيعية ، وأنها ربما تَعُدّ المرأةَ فى بيت زوجها زانيةً ، وفى بيت عشيقها طاهرة ، إذا كانت تكرَهُ الأولَ وتُحِبُّ الثانىَ

هذا مُلخّصُ القصةِ على طولها ، وأحسبَها قصةً موضوعةً على نحو ما يضعُ الكتابُ القصصَ الخياليةَ لنشر رأيٍ من الآراء أو تأييدِ مذهبٍ من المذاهب ، لأن

الكاتبَ قد أعذر[١] تلك الفتاةَ فيما فعلت ، واقتنع بصحة أقوالِها وصحةِ مذهبِها وأعداها على زوجها[٢] وقضى لها فيما كان بينهما

وسواء أكانت القصةُ حقيقةً أم خيالية ، فالحقُّ أقولُ إن الكاتبَ أخطأ في وضعِها ، وما كنتُ أحسبُ إلا أن مذهبَ الاباحيّةِ[٣] قد مضى وانقضى بانقضاء العصور المُظلمةِ حتى قرأتُ هذه القصةَ منشورةً باللغة العربيةِ بين أبناء الأمةِ العربيةِ فنالني من الهمّ والحزن ما اللهُ عالمٌ به

قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطةِ وهي التي هفتْ في حياتها هفوةً دفعها إليها دافعُ خداعٍ أو سائق حاجةٍ ثم ثاب إليها رشدُها وهُداها ، فقلنا لا بأس بتهوينهم ذنباً جسَّمتْه العادةُ ، وألبستْه ثوباً أوسعَ من ثوبه ، ولا بأس برحمتهم فتاةً مذنبةً تحاول الرجوعَ إلى ربّها ، والتوبةَ من

(١) اعذرها قبل عذرها (٢) أعداها عليه انتصف لها منه (٣) مذهب قديم كان يستحل أصحابه كل شيء رأيا واعتقادا

ذنبها ويأبى المجتمعُ البشريُّ إلا أن يسدَّ عليها أبوابَ السماء المفتحةَ للقاتلين والمجرمين

أما وقد وصل الحدُّ إلى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمِه عليها وإغراء العفيفةِ الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج عن طاعته كلما دعاها الى ذلك داعٍ من الهوى فهذا ما لا يُطاق احتمالُه ، ولا يستطاع قبولُه

إن فتاةَ الروايةِ لم تهفُ فى جريمتها فقط كما يهفو غيرُها من النساء لأنها مقيمةٌ فى منزل عشيقها من زمن بعيد ، وقد عقدتْ عزمَها على البقاء فيه ما دامتْ رُوحُها باقيةً فى جسدها ، ولم يَسُقْها إلى ذلك سائقُ شهوةٍ بشريةٍ إن صح أن تكون الشهوةُ البشريةُ عذرا يدفعُ مثلَها إلى مثل ما صنعتْ ، لأنها فرّتْ من فِراش زوجها ، لا من وحشةِ خَلْوتِها ، ولا سائقُ جوعٍ ، لأنها كانتْ أهنأَ النساءِ عيشاً ، وأروحَهن بالا ، بل كانتْ على حالةٍ من الرّفاهيَة والنعمةِ

والتقلب فى أعطاف العيش الباردِ لم ترَ مثلَها من قبل ولا من بعد ، إذن فهى امرأةٌ مجرمةٌ لا يمنحُها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطةَ

إن كانت هذه الفتاة عفيفةً طاهرةً كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعاً فى وضع كلمةِ الفسادِ فى معاجمهم لأنها لا مُسَمّى لها فى هذا العالم ، عالمِ العفةِ والطهارةِ ، والخيرِ والصلاح ، ولا يمكنُ أن يكون المرادُ منها فتاةَ المواخيرِ لأنها لم تترك وراءها زوجا معذَّبا منكوباً ، ولم ترضَ عن حياتها الجديدةِ التى انتقلتْ إليها قط ، ولا اغتبطتْ بعيشها فيها اغتباط تلك الفتاة

كلُّ الأزواجِ ذلك الزوجُ إلا قليلا ، فاذا جاز لكل زوجةٍ أن تفرَّ من زوجها إلى عشيقها كلما وقع فى نفسها الضجر من معاشرة الأول وبَرِقَت لها بارقة الأُنسِ من بين ثنايا الثانى ، فويلٌ لجميع الرجال من جميع النساء ، وعلى

النظامِ البيتيِّ والرابطةِ الزوجيةِ بعد اليوم ألفُ سلام

أيها الكاتبُ : ليس في استطاعتي ولا في استطاعتِك ولا في استطاعةِ أحدٍ من الناس أن يقفَ دورةَ الفلَك ويصُدَّ كرَّ الغَداةِ ومرَّ العَشِيّ حتى لا يبلغ الأربعين من عمره مخافةَ أن تراه زوجتُه غيرَ أهلٍ لعشرتها اذا علمتْ أن في الناس من هو أصغرُ منه سناً وأكثرُ رونقاً وأنضرُ شباباً

إن الضجرَ والسآمةَ من الشيء المتكرر المتردد طبيعةٌ من طبائع النَّوعِ الانسانيّ فهو لا يصبِرُ على ثوبٍ واحد أو طعامٍ واحدٍ أو عشيرٍ واحد ، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه وعلم أن نظامَ الأسرة لا يتم إلا إذا بنى على رجلٍ وامرأةٍ تدومُ عِشرتُهما ، ويطولُ ائتلافُهما ، فوضع قاعدةَ الزواجِ الثابت ، ليهدمَ بها قاعدةَ الحبّ المضطرب ، وأمرَ الزوجَين أن يعتبرا هذا الرِّباطَ رِباطاً مقدَّساً حتى يحولَ بينهما وبين رجوعهما إلى طبيعتها ، وذَهابِهما في أمر الزوجية

مذهبهما فى المطاعم والمشارب، من حيثُ الميلُ لكل جديد، والشغفُ بكلّ غريب

هذا هو سرُّ الزواجِ وهذه حكمتُه، فمن أراد أن يجعلَ الحبَّ قاعدةَ العشرةِ بدلا من الزواج فقد خالف إرادة الله وحاول أن يهدِم ما بناه ليهدم بهَدْمِه السعادة البيْتية

أيّة امرأةٍ متزوجةٍ بأجملَ الرجال لا تحدّثُها نفسُها بالرّغبة فى استبداله بأجمل منه ، وأىّ رجلٍ متزوجٍ بأجملِ النساء لا يتمنى أن يكون فى منزله أجملُ منها ، لولا هذا الرِّباطُ المقدّسُ رِباطُ الزوجية ، فهو الذى يعالج أمثال هذه الأمانى ، وتلك الهواجسِ وهو الذى يُعِيدُ إلى النفوس الثائرةِ سكونها وقرارها

لا بأس أن يتثبت الرجل قبل عَقْدِ الزواج من وجود الصفةِ المحبوبةِ لديه فى المرأة التى يختارُها لنفسه ، ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعه ، ولكن لا على معنى أن يكون الحبُّ الشهَوِىّ هو قاعدة الزواج ، يحيا بحياته ، ويموت

بموته ، فالقلوبُ متقلبةٌ ، والأهواء نزاعةٌ ، بل بمعنى أن يكون كلٌّ منهما لصاحبه صديقاً ، أكثرَ منه عشيقاً ، فالصداقةُ ينمُو بالمودة غرْسُها ويمتدُّ ظلها ، أما الحبُّ فظلٌّ يتنقلُ ، وحالٌ تتحول

الاسلام والمسيحية

ما عجبتُ لشيء فى حياتى عجبي لهؤلاء الذين يَعجبون كثيراً مما كتبه اللوردُ كُرُومرُ عن الإسلام كأنما كانوا يتوقعون من رجلٍ يدينُ بدينٍ غيرِ دين الإسلامِ ويضنُّ به ضنَّه بنفسه ومالِه أن يُؤمنَ بالوَحدانية ، ويصدّقَ الرسالةَ المحمديةَ ،ويقيمَ الصلاةَ ويؤتىَ الزكاةَ ويَحُجَّ البيتَ ما استطاع إليه سبيلا

إن اللوردَ كرومرَ يعتقدُ كما يعتقدُ كلُّ مَسِيحىّ متمسك بِيَسُوعيّته أن الاسلامَ دينٌ موضوعٌ ابتدعه رجلٌ عربىٌّ بدوىٌّ أمىٌّ ماقرأ فى حياته صحيفةً ،ولا دخلَ مدرسةً ، ولاسمع حكمةَ اليونان ، ولا رأى مدنيّةَ الرُّومان ، ولا تلقّى شيئاً من علوم الشرائع والعُمران

هذا مبلغُ مُعتَقَدِه في ذلك الرجلِ فكيف يرى نفسَه بين يديه أصغرَ من أن ينافِشَه ويناظرَه ويُخطِّئه فيما وضعه للناس من الشرائع والأحكام، وكيف يسمَحُ لنفسه أن ينظرَ إليه بالعين التي ينظرُ بها المسلمُ إليه من حيثُ كونُه نبياً مُرسَلا مُوحًى إليه من عند الله تعالى بكتابٍ كريمٍ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفهِ ، أما ما نقرؤه أحيانا لبعض علماء الغَرْب المَسيحيين من الثناء على الاسلام وإطْراء أحكامِه وآياتِه فهو مكتوبٌ بأقلام قومٍ مؤرخين قد أدُّوا للتاريخ حقَّ الأمانة والصدق ، فلم يعبث التعصبُ الدينيّ بكتاباتهم ، ولا تمشت الرُّوحُ المَسيحيةُ في أقلامهم ، ولا رَيْبَ في أن اللوردَ كرومرَ ليس واحداً منهم ، فانَّ من قرأ كتابَه « مصر الحديثة » خُيِّل إليه أنه يسمعُ صوتَ راهبٍ في صوْمَعَتِه قد لبس قَلَنْسُوَتَه ومُسوحَه وعلَّق صليبَه في زنّاره

فهل يحقُّ بعد ذلك لأحدٍ من المسلمين أن يندهشَ

أو يذهبَ به العجبُ كلَّ مذهب إذا رأى فى كتاب اللوردِ كرومرَ ما يراه كلَّ يوم فى كتب المُبشّرين الانجيليّين، وجرائدِهم ومجلاتِهم ، من الطَّعْنِ على الاسلام وعقائدِه وشرائعِه

بلغ التعصُّبُ الدينىُّ بجماعة المبشرين أنْ حكموا بوجود اللَّحنِ فى القرآن بعد اعترافهم بأنه كتابٌ عربىٌّ نظمه على حسب مُعتقَدِهم رجلٌ هو فى نظرهم أفصحُ العربِ ، وليستْ مسألةُ الإعراب واللحنِ مسئلةً عقليةً يكونُ للبحث العقلىّ فيه مجالٌ ، وإنما الإعرابُ ما نطق به العربُ ، واللحنُ ما لم ينطِقوا به ، فلو أنهم اصطلحوا على نَصْب الفاعل ورفعِ المفعول مثلاً لكان رفعُ الأولِ ونصبُ الثانى لحنا ، ولكنّ جهلةَ المبشرين لم يُدركوا شيئاً من هذه المسلّمات ، واستدلوا على وجود اللحنِ فى القرآن بقواعد النحو التى مادوّنها مدونوها إلا بعد أن نظروا فى كلام العرب وتتبعوا تراكيبَه وأساليبَه ، وأكبرُ ما اعتمدوا عليه

في ذلك هو القرآنُ المجيدُ، فالقرآنُ حجةٌ على النُّحاة، وليست النحاةُ حجةً على القرآن، فاذا وُجِد في بعض تراكيبِ القرآن أو غيرهِ من الكلام العربيّ مايخالفُ قواعدَ النُّحاةِ حكمنا بأنهم مقصّرون في التَّتبع والاستقراء، على أنهم ما قصّروا في شيء من ذلك، وما تركوا كثيراً ولا قليلا ولا نادراً ولا شاذاً إلا دوّنوه في كتبهمْ، فلا القرآنُ بملْحونٍ، ولا النحاةُ مقصّرون، ولكنّ المبشرين جاهلون، فإذا كان التعصبُ الديني أنطق ألسنَتهم بمثل هذه الخُرافةِ المضحكة فليس بغريبٍ أن نسمعَ من هذا الرجلِ المتشبهِ بهم هذا الطعنَ على الإسلام في عقائده وأحكامهِ

إنا لا ننازعُ اللوردَ كرومرَ ولا أمثالَه من الطاعنينَ على الاسلام في مُعتقدِهم، ولكنا نُحِبّ منهم ألا ينازعونا في معتقدِنا، وأن يُعطونا من الحرية في ذلك ما أعطَوه لأنفسِهم.

يقول اللوردُ كرومرُ : إن الدينَ الاسلاميَّ دينٌ جامدٌ لا يتسعُ صدرُه للمدنيةِ الانسانيةِ ولا يصلُحُ للنظام الاجتماعى ، ويقول إن مالا يصلحُ له الدينُ الاسلامى يصلحُ له الدينُ المسيحى ، ويستدلُّ على الاسلامِ بالمسلمين ، وعلى المسيحيةِ بالمَسيحين

فى أىِّ عصرٍ من عصور التاريخ كانت الديانةُ المسيحيةُ مبعثَ العلم ومطلعَ شمسِ المدنيةِ والعُمران ؟ أفى العصر الذى كانت تدور فيهِ رَحى الحروبِ الدموية بين الأرثوذكس والكاثوليكِ تارة وبين الكاثوليك والبروتستانت تارةً أخرى بصورةٍ وحشيةٍ فظيعةٍ اسودَّ لها لباسُ الانسانيةِ، وبكت الارضُ منها والسماء؟ أم فى العصر الذى كانت إرادةُ المَسيحى فيه صورةً من إرادة الكاهن الجاهل فلا يَعلمُ إلا ما يُعلمه إياه ، ولا يفهمُ إلا ما يُلقيه إليه ، فما كان يتركُ له الحريةَ حتى فى الحكم على نفسه بكفرٍ أو إيمانٍ ، وبهيمةٍ أو إنسانية ، فيكاد يتخيل فى نفسه أن له ذنباً متحركا

وخيشوما طويلا وأنه يمشى على أربع إذا قال له الكاهنُ أنت كلبٌ أو قال له إنك لستَ بإنسان، أم فى العصر الذى كان يعتقدُ فيه المسيحى أن دخولَ الجملِ فى سَمِّ الخياط أقربُ من دخول الغنى فى ملكوت السمواتِ؟ أم فى العصر الذى كان يحرُم فيه الكاهنُ الأعظمُ على المسيحىّ أن ينظر فى كتابٍ غير الكتابِ المقدّس، وأن يتلقى علماً فى مدرسةٍ غير مدرسةِ الكنيسة؟ أم فى العصر الذى ظهرت فيه النجمةُ ذاتُ الذنبِ فَذُعِرَ لرؤيتها المسيحيون ورفعوا الى البابا عرائضَ الشكوى فطردها من الجو فولت الأدبار؟ أم فى العصر الذى أهدى فيه الرشيدُ العباسىُّ الساعةَ الدقاقةَ إلى الملك شارلمان، فلما رآها الشعبُ المسيحىُّ وسمع صوتَها فرّ من وجهها ظناً منه أنها تشتملُ على الجن والشياطين؟ أم فى العصر الذى أُلفت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمتْ فى وقت قصيرٍ على ثلاثمائة وأربعين ألفاً بالقتل حرْقاً أو صَلباً؟ أم فى العصر الذى أحرق فيه

الشعبُ المسيحىُّ فتاةً حسناء بعدما كشطَ لحمها وعرق عظمها لانها كانتْ تشتغلُ بعلوم الرياضةِ والحِكْمة ؟ ؟

هذا الذى نعرفُه أيها الفيلسوفُ التاريخىُّ من تاريخ العلم والعِرفانِ والمدنية والعُمران فى العصور المسيحية ، ولا نعلم أَكانت تلك المسيحيةُ التى كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعةِ صدرها صحيحةً فى نظرك أم باطلةً ، وإنما نريد أن نستدلَّ بالمسيحيين على المسيحية وإن لم نقفْ على حقيقتها ، كما فعلتَ أنتَ فى استدلالِك بالمسلمين على الإسلام وإن لم تعرفْ حقيقتَه وجوهرَه ، على أن استدلالَنا صحيحٌ واستدلالك باطلٌ ، فإن المدنيةَ الحديثةَ مادخلت أوروبا إلا بعد أن زحزحت المسيحيةَ منها لتحلَّ محلَّها كالماء الذى لا يدخلُ الكأسَ إلا بعد أن يطرُدَ منه الهواء لأنه لا يتسعُ لهما ، فإن كان قد بقى أثرٌ من آثار المسيحيةِ اليوم فى أكواخ بعض العامةِ فى أوروبا فما بقى إلا بعد أن دفَتْ عنه المدنيةُ ورضيَتْ بالإبقاء عليه ، لاباعتبارِ أنه دينٌ

يجبُ إجلالُه وإعظامُه ، بل باعتبار أنه زاجرٌ من الزواجرِ النفسيةِ التي تستعينُ الحكوماتُ بها وبقوتِها على كسرِ شرّةِ النفوس الجاهلة ، فلا علاقةَ بين المسيحية والتمدينِ الغربيّ من حيثُ يُستدلُّ به عليها ، أو باعتبار أنه أثرٌ من آثارها ، ونتيجةٌ من نتائجها ، ولو كان بينه وبينها علاقةٌ ما افترقتْ عنه خمسة عشرَ قرناً كانت فيها أوروبا وراء ما يتصورهُ العقلُ من الهمجيّةِ والوحشيةِ والجهل ، فما نفعتها مسيحيتُها ، ولا أغنى عنها « كهنوتها »

أما المدنية الاسلاميةُ فإنها طلعتْ مع الاسلامِ في سماءٍ واحدةٍ من مطلعٍ واحدٍ في وقتٍ واحدٍ ، ثم سارت إلى جانبه كَتِفاً لكَتِف ما يُنكرُ من أمرها ولا تنكرُ من أمره شيئاً ، فالمتعبدُ في مسجدِه ، والفقيهُ في درسه ، والمُعرِّب في خِزانة كتبِه ، والرياضيُّ في مدرسته، والكيمائيُّ في مَعمَلِه ، والقاضي في محكمته ، والخطيبُ في محفَله ، والفلكيُّ أمام إسطرلابه ، والكاتبُ بين محابره وأوراقِه،

إخوةٌ متصافون ، وأصدقاءُ متحابون ، ولا يختصِمون ولا يقتتلون ، ولا يكفرُ بعضُهم بعضاً ، ولا يَبغى أحدٌ منهم على أحد .

أيها الفيلسوفُ التاريخى: إن كان لا بُدّ من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالمدنيةُ الغربيةُ اليومَ أثرٌ من آثار الاسلام بالأمس ، والانحطاطُ الاسلامىّ اليومَ ضربةٌ من ضرَبات المسيحيةِ الأولى واليك البيان : —

جاء الاسلامَ يحمل للنوع البشرىّ جميعَ ما يحتاجُ إليه فى مَعادِه ومعاشِه ، ودنياه وآخرتِه ، وما يفيدُه منفرداً ، وما ينفعُه مجتمعاً .

هذب عقيدتَه بعد ما أفسدها الشِّرْكُ بالله والاسفافُ إلى عبادة التماثيلِ والأوثانِ وإحناءِ الرؤوسِ بين أيدى رؤساءِ الأديان، وأرشده إلى الايمان بألوهيةِ إلهٍ واحدٍ لا يُشرِكُ به شيئاً ، ثم أرشده إلى تسريح عقلهِ ونظرِه فى ملكوت السمواتِ والأرض لِيقفَ على حقائق الكون وطبائعه

وليزدادَ إيمانا بوجود الإلهِ وقدرتهِ وكمالِ تدبيرهِ وليكونَ اقتناعُه بذلك اقتناعاً نفسياً قلبياً ، فلا يكونُ آلةَ صماء ، في يد الأهواء ، تفعلُ به ما تشاء ، ثم أرشده إلى مواقفَ تُذَكِّرُه بربه،وتنبهُهُ من غفلتِه ، وتطردُ الشرورَ والخواطرَ السيئةَ عن نفسهِ كلما ابتغت إليها سبيلا،وهي مواقِفُ العبادات، ثم أطلق له الحريةُ في القولِ والعمل ولم يمنعْه إلا من الشرك بالله والإضرارِ بالناس،وعرفه قيمةَ نفسِه بعد ما كان يجهلُها وعلمه أن الانسانيةَ لا فرق بين فقيرِها وغنيها ، ووضيعِها ورفيعِها ، وضعيفِها وقويّها،وأن الملكَ والسُوقةَ ، والشريفَ الهاشميَّ ، والعبد الزنجيَّ ، أمامَ اللهِ والحقِّ سواء ، وأن الأمرَ والنهيَ،والتحليلَ والتحريمَ،والنفعَ والضرَّ،والثوابَ والعقابَ ، والرحمةَ والغُفرانَ ، بيد اللهِ وحدَه لا ينازعُه فيها منازعٌ ، ولا يملكُها عليه أحدٌ من الأنبياء والمرسَلين ، والملائكةِ المقرَّبين ، ثم نظر في أخلاقه.فأرشده إلى محاسنها، ونفره من مساوئها ، حتى علمه آدابَ الأكلِ والشربِ ،

والنوم والمشي، والجلوس والكلام، والتحية والسلام، ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبرُّ الابنُ أباه، ويرحمُ الوالدُ ولدَه، ويعطفُ الأخُ على أخيه، ويُكرمُ الزوجُ زوجتَه، وتُطيعُ الزوجةُ زوجَها، وكيف يكونُ التراحمُ والتواصلُ بين الاقرباء وذوي الرّحِم، ثم نظر في شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاةَ التي لو جُمِعتْ ووُضعت في مواضعها المشروعة لما كان في الدنيا بائسٌ ولا فقيرٌ، وندبه إلى الصدَقة ومساعدة الأقوياء للضعفاء، وعطفِ الأغنياء على الفقراء، ثم شرع له شرائعَ للمعاملة الدُّنيوية، ووضع له قوانينَ البيعِ والشراء والرَّهن والهبَةِ والقَرْضِ والتجارة والاجارة والمزارعة والوقْفِ والوصية والميراثِ، ليعرفَ كلٌّ إنسان حقَّه، فلا يغبُن أحد أحداً، ثم قرر له عقوباتٍ دنيويةً تمنعُه أن يبغيَ بعضُه على بعض بشتمٍ أو سبٍّ أو قتلٍ أو سَرِقةٍ أو انتهاك حُرْمةٍ أو مجاهرةٍ بمعصيةٍ أو شروعٍ في فتنة أو خروجٍ على أمير أو سلطانٍ، ثم نظر في شؤونه السياسيةِ فقرر الخلافةَ وشروطَها،

والقضاء وصفاته ، والامارةَ وحدودَها ، وقرر كيف يعاملُ المسلمون مخالفيهم فى الدين ، البعيدين عنهم ، والنازحين إليهم ، وذكر مواطنَ القتالِ معهم ، ومواضعَ المُسالمةِ لهم

وجملةُ القولِ أن الدينَ الاسلامىَّ ما غادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولا ترك الانسانَ يمشى فى مَيدانِ هذه الحياةِ خطوةً من مَهْدِه إلى لحدِه إلا مدَّ يدَه إليه وأنار له مواقعَ أقدامِه وأرشده إلى سواء السبيل

طلَعتْ هذه الشمسُ المشرقةُ فى سماء الغربِ فملأت الكونَ نوراً وإشراقاً ، واختلف الناس فى شأنها ما بين معترفٍ بها، ومنكرٍ لوجودها، ولكنهم كانوا جميعاً سواء فى الانتفاع بنورها ، والاستنارةِ بضيائها ، على تفاوتٍ فى تلك الاستنارةِ ، وتنوعٍ فى ذلك الانتفاع

طلَعتْ هذه الشمسُ المشرقةُ فتمشتْ أشعتُها البيضاء إلى أوروبا من طريق إسبانيا وجنوبِ إيتاليا وفرنسا فأبصرها

عددٌ قليل من أذكياء الغربيين فانتبهوا من رقدتهم ، واستيقظوا من سُباتهم،ورأوا من جمال المذاهبِ الاسلامية وشرائع السكونِ ونظاماته وقواعدِ الحريةِ والمساواةِ مالفت نظرهم إلى المقابلة بين المجتمع الغربيّ الخاملِ الضعيفِ والمجتمع الشرقيّ النابهِ واليقظِ ، فقالوا أيمكن أن يعيش الانسان حراً على ظهر هذه المسكونةِ لا يستعبده ملِكٌ ولا يسترقه كاهنٌ ، أيمكن أن يبيت المرء ليلةً واحدةً فى حياته هادئاً فى مَضْجعهِ مطمئناً فى مرقده لايُروِّعُه دولاب العذابِ ولا سيف الجلاد ، أيمكن أن تملك النفس حريتها فى النظر إلى نظام العالم وطبائعهِ ودراسةِ العلوم الكونيةِ ومزاولتها، أيمكن أن يطلع فجر المدنية على هذا المجتمعِ الغربيّ فيمحو ظُلْمته التى طال عهدنا بها حتى غشيت أبصارنا فما يكاد يرى بعضُنا بعضاً

كانت هذه الخواطر المترددة فى عقول أولئك الأذكياء هى الخطوة الأُولى التى مشتْها أوروبا فى طريق المدنيةِ والعمران

بفضل الاسلامِ وشرائعهِ التى عرفها هؤلاء الأفرادُ من مخالطة المسلمين فى أوروبا ومطالعةِ كُتُبهم ، ومناظرةِ حضارتِهم ومدنيتِهم،ثم أخذوا يعلمونها الناسَ سراً ويبثونها فى نفوس تلاميذِهم شيئاً فشيئاً ويَلقون فى سبيل نشرِها عناءً شديداً ، واستمر هذا النزاعُ بين العلم والجهلِ قروناً عِدّة حتى انتهى أمرُه بالثورة الفرنسيةِ فكانت هى القضاء الأخيرَ على الوحشيّة السالفةِ ، والهمجية القديمة

أيها الفيلسوفُ التاريخىُّ : إنك لابدّ تعلمُ ذلك حقّ العلم لأنه أقلُّ مايجبُ على المؤرخ أن يعلمَه كما تعلمُ أن المدنيةَ الاسلاميةَ إذا وسِعتْ غيرها فأحْرِ بها أن تسعَ نفسها ، ولكنّ التعصبَ الدينىّ قد بلغ من نفسك مبلغه فما كفاك أن أنكرتَ فضلَ صاحبِ الفضلِ عليك حتى أنكرتَ عليهِ فضلَه فى نفسه

لا حاجةَ بى أن أشرحَ لك المدنيةَ الاسلاميةَ أو أسردَ لك أسماءَ علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم فى الطبيعة

والكيمياءِ والفَلَكِ والنباتِ والحيوانِ والمعادنِ والطبِّ والحكمةِ والأخلاقِ والعُمرانِ ، أو أُعدَّ لك مدارسَها ومجامعَها ومراصدَها فى الشرق والغربِ، أو أصفَ لك مُدُنَها الزاهرةَ ، وأمصارَها الزاخرةَ ، وسعادتَها وهناءها ، وعزتَها وسَطوتَها، فأنتَ تعرفُ ذلك كلَّه إن كنتَ مؤرخا كما تقولُ

غير أنى لا أُنكرُ ما لحق بالمسلمين فى هذه القرونِ الأخيرةِ من الضعفِ والفتورِ ، وما أصاب جامعتهم من الوَهنِ والانحلال ، ولكن ليس السببُ فى ذلك الاسلامَ كما تتوهمُ بل المسيحية التى سرَتْ عدواها إليهم على أيدى قومٍ من المسيحيين أو أشباهِ المسيحيين لبسوا لباس الاسلام وتزيوا بزيه ودخلوا بلادَه وتمكنوا من نفوس مُلوكهِ الضعفاء، وأمرائه الجهلاء ، فأمدوهم بشىء من السّطْوةِ والقوةِ تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمةِ وعقائدِهم الخرافية بين المسلمين حتى أفسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدَهم وأوقعوا الفتنة فيهم وحالوا بينهم وبين الاستمدادِ من رُوح

الأسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان

كلّ ما تراه اليوم بين المسلمين من الخلط في عقيدة القضاء والقدر وعقيدة التوكل وتشييد الأضرحة وتجصيص القبور وتزيينها والترامي على أعتابها والاهتمام بصور العبادات وأشكالها دون حكمها وأسرارها وإسناد النفع والضرر إلى رؤساء الدين وأمثال ذلك أثرٌ من آثار المسيحية الاولى وليس من الاسلام في شيء

أيها الفيلسوفُ التاريخيّ : لا تقلْ إننا متعصبون تعصباً دينياً فانك قد أسأت إلينا وإلى ديننا فلم نَر بداً من الذبِّ عنا وعنه بما نعلمُ أنه حقٌّ وصوابٌ ، على أنه لا عار علينا فيما تقول ، وهل التعصبُ الدينيُّ إلا اتحادُ المسلمين يداً واحدة على الذّوْدِ عن أنفسهم ، والدفاع عن جامعتهم ، وإعلاء شأن دينهم ونُصرتِه حتى يكونَ الدين كلُّه لله

إن كان رَفضاً حبُّ آلِ محمد
فَلْيشهد الثقلان أني رافضي

أهناء أم عزاء

فارق مصرَ على أثر إعلانِ الدستورِ العثمانيّ كثيرٌ من فضلاء السوريين بعدما عمَروا هذه البلادَ بفضائلهم ومآثرِهم وصيّروها جنةً زاخرةً بالعلوم والآداب ولقنوا المصريين تلك الدروسَ العالية في الصحافةِ والتأليفِ والترجمة، وبعد ما كانوا فينا سفراءَ خيرٍ بين المدنيةِ الغربيةِ والمدنيةِ الشرقية، يأخذون من كمال الأولى ليتمموا ما نقص من الأخرى، وبعد ما علّموا المصريّ كيف ينشط للعمل وكيف يجدُّ ويجتهد في سبيل العيش وكيف يثبتُ ويتجلَّد في مَعركةِ الحياة

قضَوا بيننا تلك البرهةَ من الزمان يحسنون إلينا فنسيء إليهم، ويعطِفون علينا فنسمّيهم تارةً دخلاءَ، وأُخرى

ثقلاء، كأنما كنا نحسبُ أنهم قومٌ من شذاذ الآفاقِ أو نفايات الأمم جاءوا إلينا يصادروننا فى أرزاقنا، ويتطفلون على موائدنا، ولو أنصفناهم لعرفناهم، وعرفنا أن أكثرهم من بيوتات المجدِ والشرفِ، وإنما ضاقتْ بهم حكومةُ الاستبدادِ ذَرْعا، وكذلك شأنُ كلِّ حكومةٍ مستبدةٍ مع أحرار النفوسِ وأباةِ الضيم، فأحرجتْ صدورَهم، وضيقتْ عليهم مذاهبَهم، ففروا من الظلم تاركين وراءهم شَرفا ينعاهم، ومجداً يبكى عليهم، ونزلوا بيننا ضيوفاً كراما، وأساتذة كباراً، فما أحسنّا ضيافتَهم، ولا شكَرْنا لهم نعمتَهم

وبعد فقد مضى ذلك الزمنُ بخيره وشره، وأصبحنا اليومَ كلما ذكرناهم خفقتْ أفئدتُنا مخافةَ أن يلحقَ باقيهم بماضيهم، فلا نعلم أنشكرُ للدستور أن فرّج عنهم كربتَهم، وأمّنهم على أنفسهم، وردّهم إلى أوطانهم، أم ننقِم منه أنه كان سبباً فى حرماننا منهم بعد أُنسنا بهم، واغتباطنا بحسن عشرتهم، وجميلِ مودتهم، ولا ندرى هل نحن بين يدَى

هذا النظامِ العثمانيِّ الجديدِ في هناء أم في عزاء ؟؟

فيا أيها القومُ المودِّعون ، والكرامُ الكاتبون : —

أُذكرونا مثلَ ذِكرانا لكم

ربَّ ذِكرَى قرَّبتْ من نزَحا

واذكروا صبًّا إذا غنَّى بكم

شرِبَ الدمعَ وعاف القدَحا

الزوجتان

حدثنى أحدُ الأصدقاء قال : سأقُصُّ عليك قصةً ليستْ من خيالات الشعراء ولا أكاذيبِ القصاصين

أويتُ إلى مَضجعى فى ليلةٍ من ليالى الشتاء حالكةِ الجِلْباب ، غدافيةِ الإهاب ، فما استقبلتُ أول طليعةٍ من طلائع النَّوْمِ حتى قُرِع بابُ غرفتى فتسمعتُ فاذا الخادمُ تقول: إن امرأةً سيئةَ الحالِ رثّةَ الثياب فى زِىّ المتسولات تُلِح فى طلب مقابلتِك وتقول : إن لها عندك شأناً ، فقلتُ فى نفسى لا شأن لى مع امرأةٍ وربما كانتْ ذاتَ حاجةٍ وكانتْ حاجتُها إلىّ أكثرَ من حاجتى إلىٰ النوم ، على أن النومَ لا يفوتُنى ، فليلُ الشتاء ، أطولُ من يوم القضاء ، فارتديتُ ردائى ونزلت فاذا فتاةٌ فى مُلاءةٍ باليةٍ وخِمارٍ خَلَق

ينمّ بجمالها كما ينمُّ السحابُ المتقطعُ بضوء الشمسِ ، وإذا هي تُرعدُ وتضطربُ وتقولُ بصوتٍ شجيّ : أمَا في الناس أخو همةٍ ومُروءةٍ يعينُ على الدهر الغادرِ ويطفئُ هذه الجذوةَ التي تتأججُ بين أضالعي بقطرةٍ واحدةٍ من الرحمة ، فقلت مَن أنتِ يرحمُكِ الله ؟ قالت أنا فلانة زوجُ فلان ، فدَهِشتُ وغَصَصتُ بريقي حتى ما أجدَ بِلّةً أُحرّكُ بها لساني لهول ما سمعتُ ، وسوءِ ما رأيت ، وقلتُ يا للعجب ! زوجُ فلان على عِظَمِه وعِظَمِها ، وجلالهِ وجلالِها ، تخرجُ في مثل هذه الساعةِ في مثل هذه البِزّةِ ، وسألتُها ما شأنُكِ يا سيدتي وممّ تبكين ؟ قالت لا تحدثْ نفسَك بريبةٍ ولا تذهبْ بك الظنونُ مذاهبَها فو الله ما جئتُ إليك تحت سِترِ الليلِ إلا وأنتَ أوثقُ الناس عندي ، وأرفعُهم في عيني ، ولولا شدةٌ أقلقتْ مضجعي وفرقتْ ما بين جفنيّ والكرَى ماخضتُ اليك سوادَ الليل في مثل هذه الساعةِ ولا احتملتُ في سبيل ذلك ما احتملت، قلتُ عهدي بسيدتي رخيةُ البالِ

ناعمةُ العيشِ سعيدةُ الحظِّ بزوجٍ عذبِ الأخلاقِ كريمِ السجايا لا يُؤْثِرُ هوى نفسِه على هواكِ ولا يعدِلُ بكِ أحداً قالتْ إنك تَقُصُّ عليَّ حديثَ الأمسِ وقد مضى به الفلكُ الدائرُ ، والكوكبُ السيار ، فاستمعْ منى حديثَ اليوم :

أظنُّكَ تذكر تاريخَ زواجى منه وأنه كان منذ ثلاثةِ أعوام وأن أبى قد آثَرَهُ وفضَّله على جميع المخاطبين إليه من عِلْية القوم وجِلّتهم وأنا لا ألومُه على ذلك رحمةُ الله عليه، فما أراد بى شراً ولا أعتمدَ أن يُسيءَ الاختيارَ لى ، ولكنه كان رجلا طيبَ السريرةِ طاهرَ القلب تخدعه الخادعون عنى ، ومن ذا الذى لا يخدَعُ بشاب متعلمٍ مهذبٍ من ذوى المناصبِ الكبيرةِ والرتبِ العالية ، وكيفما كان الأمرُ فقد تم عقدُ الزواج بيننا فاغتبطت به واغتبط بى بُرهةً من الزمان حسِبتها دائمةً لا انقطاع لها حتى يفرِّقَ بيننا الموت ، وكنتُ امرأةً أجمعَ فى نفسى جميع ما يَمُتُّ به النساء إلى الرجال، فما خنتُه ولا ضقتُ ذَرْعا به ، ولا قطبتُ فى وجهه مرةً ، ولا أتلفْتُ له مالا ،

ولا نقضت له عهداً ، فجازانى بالاحسان سوءا ، وكفر بنعمة الله بعد الايمان ، وخان ودى ، ونقض عهدى لا لذنبٍ جنيته ، أو وَصْمَةٍ يَصِمنى بها ، ولكنه رجلٌ ملولٌ متبرِّم ، ولا تغضبْ يا سيدى إن قلت لك إن قلبَ الرجلِ متقلبٌ متلونٌ يسرِع إلى البغض كما يسرع إلى الحب، وإن هذه المرأةَ التى تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثالَ بخفةِ عقلها وضعفِ قلبِها أوثقُ منه عقداً ، وأمتن وداً ، وأوفى عهداً ، ولو وفى الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرّق بين قلبيهما إلا ريبُ المنون ، قلت أنا لا أغضب لشىء إلا للانسانية أن يخفرَ ذمامها ، وينقض عهدها ، ثم ماذا تم بعد ذلك ؟ قالت مات أبى كما تعلم وخلّف لى مالا أمكنت منه زوجى فأتلفه بين الخمر والقمْر ، فكنتُ أُغضِى على ذلك رحمةً به وشفقةً عليه واستبقاء لودِّه ، حتى إذا صَفِرتْ يدى وأقفر رَبعى أحسست منه مَللا كان يدعوه إلى سوء عشرتى وتعذيبِ جسمى ونفسى ، وكان كثيراً

ما يتهكمُ بى ويقول إننى لا أحِبُّ المرأةَ الجاهلةَ التى لا تفهمنى ولا أفهمها ، وآونةً كان يُعرّضُ بى قائلا إن الرجل السعيدَ هو الذى يرزَق زوجةً متعلمةً تقرأُ له الجرائدَ والمجلاتِ ، وتتبسط معه فى الشؤون الاجتماعية والسياسية ، بل يتجاوز التعريضَ أحياناً إلى التصريح فيقول كلما دخل علىّ متأففاً متذمراً ، ليت لى زوجةً كفلانة فانها تحسِن الرقصَ والغناء والتوقيعُ على الآلات الموسيقيةِ فكنت أشكُّ فى سلامة عقله وأقول فى نفسى كيف يفضل الزوجةَ المتبذّلةَ المستهتَرة على الحييّة المحتشِمة ، ووالله ما تمنيت مرةً أن أكونَ على الصفة التى يحبّها ويرضاها مع ما كنت أبذل فى رضاه من ذات اليدِ وذاتِ النفس ، وبعد فما زال الملل يدِبُّ فى نفسه دبيبَ الصهباء فى الأعضاء حتى تحول إلى بغضاء شديدةٍ فما كان يلحظنى إلا شزْراً ، ولا يدخل المنزلَ إلا لتناولِ غرَضٍ أو قضاء حاجةٍ ثم يخرج لشأنه ، فكنت أحتمل كلّ هذا بقلبٍ صبور ، وجنان وقور ، حتى عرَض له

يمد ذلك أن نقل إلى مَنصِب أرقى من منصبه فى بعض بلاد الأقاليم فسافر وحده وتركنى فى المنزل وحيدة لا مؤنس لى غير طفلتى فلبثت أترقب كتاباً منه يدعونى فيه إلى اللحاق به فما أرسل كتاباً ولا رسولا ولا نفقة ، فاستكتبت إليه الكتابَ بعد الكتاب فما أسلس قيادُه ، ولا طاوع عناده فسافرت إليه مخاطرةً بنفسى غير مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه معه ، فما نزلت من القطار حتى قيض الله لى من وقفنى على حقيقة أمره وأعلمنى أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضُه فى المسائل الاجتماعية والسياسية وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على القطع الموسيقية فداخلنى من الهم ما الله به عليم ، وجزعت ولكن أىُّ ساعةِ مَجزع ، ولا أظن إلا أن العدل الالٓهى سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التى أرقتها فى هذا السبيل حساباً غيرَ يسير

وكأنه شعرَ بمكانى فجاء إلى يتهددنى ويتوعدنى فتوسلتُ

إليه ببكاء طفلتِه التى كنتُ أحملُها على يدى وذكرتُه بالعهود والمواثيقِ التى تعاقدنا عليها وذهبتُ فى استعطافه واستدنائه كلَّ مذهبٍ فكنتُ كأنني أخاطِبُ رَكوداً صماء[1] أو أستنزلُ أبوداً عصماء[2] ، ثم طردنى وأمر مَنْ حملنى إلى المحطة فعدت من حيثُ أتيت

فما وصلتُ إلى المنزل حتى خلعتُ ملابسى ولبستُ هذه الثيابَ وجئتك متنكرةً فى ذِمام الليلِ لأنى وحيدةٌ فى هذا العالمَ لا قريبٌ لى ولا حميم، ولأنى أعلم كرمَك وهمتَك وما بينك وبين ذلك الرجلِ من الود والاتصالِ عسى أن ترى لى رأياً فى التفريق بينى وبينه على أجدُ فى قضاء الحريةِ منفذاً كسَمِّ الخِياط أرتشفُ منه ما أتبلغُ به أنا وطفلتى حتى يبلغَ الكتابُ أجَله

فأحزنني من أمر تلك الفتاةِ البائسةِ ما أحزنني، ووعدتُها

---

(١) الركود من الركود وهو الثبات والسكون . والصخرة الصماء الصلبة المصمتة

(٢) أبدت البهيمة توحشت ، العصماء من الظباء التى فى ذراعيها بياض وسائرها أسود

بالنظر فى أمرها بعد أن هوّنتُ عليها بعضَ أحزانها ولواعجِها ، فعاديتْ إلى منزلها وعدتُ إلى مضجعى أفكرُ فى هذه الحادثةِ الغريبةِ وقد اكتنفنى همانِ ، همّ تلك البائسةِ التى لم أر فى تاريخِ شقاء النساء قلباً أشقى من قلبها، ولا نجماً أنحسَ من نجمها ، وهمّ ذلك الصديقِ الذى ربحته سنين عدةً وخسرتُه فى ساعةٍ واحدة ، فقد كنتُ أغبطُ نفسى عليه فأصبحتُ أعزّيها عنه ، وكنتُ أحسَبه إنساناً فاذا هو ذئبٌ عَمَلّس(١) تَسْتُرُه الصورةُ البشريةُ وتُواريه البشاشةُ والابتسام

هذا ما قصّه على ذلك الصديقُ الكريمُ ، ثم لم أعُدْ أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاةِ المسكينةِ ولا ما تم من أمرها مع زوجِها حتى جاءنى منه أمسِ ذلك الكتابُ بعد مرور عامٍ على تلك القصةِ الغريبة ، وهذا نصه : —

---

(١) العملس السريع

سيدى :

يهمنى كثيراً أن أرى بين كتبِ التهنئةِ التى تردُ إلىّ كتاباً منك لأسرَّ بمشاركتك إياى فى سرورى وهنائى

إنك لا بدّ تذكرُ تلك القصةَ التى كنتُ قصصتُها عليك منذُ عامٍ فى شأن تلك الفتاةِ البائسةِ التى خانها زوجُها «فلان» وغدر بها وهجرها إلى أخرى غيرِها بعد ماجردها مما كانتْ تملكُ يدُها وما كان من أمر مجيئها عندى وبثّ شكواها إلىّ وربما كنتَ لا تعلمُ بما كان من أمرها بعد ذلك ، فاعلم أنها دفعتْ زوجَها إلى موقفِ القضاء فضاق بأمرها ذَرعاً فطلقها وكنتُ أفكرُ فى ذلك التاريخ كما تعلمُ فى الزواج من زَوجٍ صالحةٍ أجدُ السعادةَ فى العيش بجانبها وما كنتُ لأجدَ زوجةً أشرفَ نفساً ولا أكرمَ عُنْصُراً ولا أذكى قلباً منها ، فتزوجتُها فأمتعتُ نفسى بخير النساء ، وأنقذتُ الانسانيةَ المعذبةَ من شِقوتها وبلائها ، وأبشرُك أن الله قد انتقم لهذه الفتاةِ المظلومةِ من ذلك الرجلِ الظالم

انتقاماً شديداً ، فقد حدثني من يعلم دخيلةَ أمرِه أنه يُعانى اليومَ من زوجهِ الجديدةِ الموتَ الأحمرَ، والشقاءَ الأكبرَ، وأنها امرأةٌ قد أخذت التربيةُ الحديثةُ من نفسها مأخذاً عظيماً لحولتها إلى فتاةٍ غربيةٍ فى جميع شؤونها وأطوارِها ، والرجلُ المصريُّ شرقيٌّ بفطرته كائناً من كان، أما غربيتُه فهى متكلَّفةٌ متعملَّةٌ يدورُ بها لسانُه ، ولا أثر لها فى نفسه ، فهو يُقاسى من تلك المرأةِ الخرْقاءِ ، أضعافَ ما كانتْ تُقاسيه منه أشرفُ النساء ، والسلام

في سبيل الاحسان

الاحسانُ شيءٌ جميلٌ وأجملُ منه أن يَحُلَّ محلَّه ، ويُصيبَ موضعَه.

الاحسانُ في مصرَ كثيرٌ ، ووصولُه إلى مُستحِقِّه وصاحبِ الحاجة إليه قليلٌ ، فلو أضاف المحسنُ إلى إحسانه إصابةَ الموضع فيه ، لما سمع سامعٌ في ظُلمة الليلِ شَكاةَ بائس ولا أنّة محزون .

ليس الاحسانُ هو العَطاء كما يظنُّ عامةُ الناس ، فالمطاء قد يكون نِفاقا ورِياء ، وقد يكونُ أُحبولةَ ينصبِها المعطى لاصطياد النفوسِ وامتلاكِ الأعناق ، وقد يكون رأسَ مالٍ يتّجرُ فيه صاحبه ليبذلَ قليلا ويربح كثيراً

إنما الاحسان عاطفةٌ كريمةٌ من عواطف النفس تتألم

لمناظرِ البؤس ومصارعِ الشقاء ، فلو أن جميعَ ما يبذلُه الناسُ من المال ويسمونه إحسانا صادرٌ عن تلك العاطفةِ الشريفةِ لما تجاوز محلّه ، ولا فارق موضِعَه

فوضى الاحسان

الاحسانُ في مِصرَ فوضى لا نظامَ له ، يناله مَنْ لا يستحقُّه، ويحرمُ منه مستحقُّه ، فلا بؤساً يرفعُ ، ولا فقراً يدفعُ ، فمثله كمثل السّحابِ الذى يقولُ فيه أبو العلاء : —

ولو أن السحابَ همى بعقل لما أروى مع النخل القَتادا[1]

الاحسانُ في مصرَ أن يَدخَل صاحب المالِ ضريحاً من أضرحةِ المقبورين فيضعَ في صندوق النذورِ قبضةً من الفِضة أو الذهبِ ربما يتناولها مَن هو أرغدُ منه عيشاً، وأنعم بالا ، أو يُهدِي ما يسميه نذْراً من نَعم وشاءٍ الى دفينٍ في قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكهِ بها ذلك الدودُ الذى يأكل لحمه ، والسوسَ الذى ينخر عظمَه ، وما أهدى.

(١) القتاد شجر صلب له شوك لا فائدة منه

شاتَه ولا بقرتَه لو يعلمُ إلا إلى « وزارة الأوقاف » وكان خيراً له أن يُهديها إلى جاره الفقيرِ الذي يبيتُ ليله طاويا يتشهى ظِلفاً[١] يمسكُ رمَقَه ، أو عرقوبا يطفىء لوعتَه

وأعظمُ ما يتقربُ به محسننا إلى الله ويحسَبُ أنه بلغ من البِرّ والمعروف غايتَيهما أن يُنفِقَ بضعةَ آلافٍ من الدنانير في بناء مسجدٍ للصلاة في بلد مملوءٍ بالمساجد ، حافلٍ بالمعابد ، وفي البلد كثيرٌ من البائسين وذوى الحاجات، يَنشُدون مواطنَ الصِّلاتِ ، لا أماكن الصلّوات ، أو يبنىَ بِنْيةَ ضخمةً فخمةً مرفوعةَ القباب ، فسيحةَ الرِّحابِ ، مموَّهةَ الجوانبِ والأركان ، مُذهبةَ السقوفِ والُجدران ، يسميها « سبيلا » ولا يَهُولَنّك هذا الاسمُ الضخمُ فكلُّ ما في الأمر أن السبيلَ مكانٌ يشتملُ على حَوض من الماء ربما لا يكونُ بينه وبين ماء النهرِ إلا بضعُ خطواتٍ ، على أن الماء كالهواء ، ملءُ الارض والسماء ، أو يقفَ الضِّياعَ

(١) ظلف البقرة ظفرها

الواسعةَ من الأرض لتُنفقَ غلّتُها على أقوام من ذوى البِطالةِ والجهالةِ نظيرَ انقطاعِهم لتلاوة الآيات ، وترديدِ الصلوات ، وقراءةِ الأحزاب والأوراد ، وهو يحسَبُ أنه أحسَن إليهم ، ولو عرف موضعَ الإحسانِ لأحسن إليهم بقَطْعِ ذلك الاحسانِ عنهم علهم يتعلمون صناعةً أو مِهْنةً يرتزقون منها رزقاً شريفاً ، فان كان يظنُّ أنه يعمَلُ فى ذلك عملا يُقرِّبُه إلى الله فَلْيعلمْ أن الله تعالى أجلُّ من أن يعبأ بعبادة قومٍ يتخذون عبادتَه سلماً إلى طعام يطعمونه ، أو درهمٍ يتناولونه ، أو يفتحَ أبوابَ منزلِه لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخَ الطُّرُقِ ، ولو أنصفوهم لَسمّوهم قطّاعَ الطرُقِ ، ولا فرقَ بين الفريقَين إلا أن هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعِصىّ ، وأولئك يتسلحون بالسُبَحِ والمساويك ، ثم يسقطون على المنازل سقوطَ الجَرادِ على المزارعِ فلا يتركون صادحاً ولا باغماً ، ولا خُفاً ولا حافراً ، ولا

شيئاً مما تُنْبِتُ الأرضُ من بَقْلِها وقِثّائها وفُومِها وعدَسِها وبصلِها إلاَّ أتَوا عليه

أسوأ الاحسان

لم أر مالا أضيعَ ولا عملا أخيبَ ولا إحساناً أسوأَ من الاحسان إلى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الأرضَ ويقلبونها ظهراً لبطن ويَجْثُمون في مفارقِ الطرقِ وزوايا الدروبِ وعلى أبواب الأضْرحةِ والمزارات يُصِمّون الأسماعَ بأصواتهم المزعجةِ ، ويقْذفون النواظرَ بمناظرهم المستبشعةِ ، ويزاحمون بمناكبهم الفارسَ والراجلَ ، والجالسَ والقائم ، فلو أن نجماً هوى إلى الأرض لهوَوا على أثره ، أو طائراً طار إلى الجوّ لكانوا قوادمَه وخوافيَه[1]

وإن شئتَ أن تعرِفَ المتسولَ معرفةً حقيقيةً لِتعرفَ هل يستحقُّ عطفَك وحنانك وهل ما تُسديه إليه من المعروفِ تسديه إلى صاحبِ حاجةٍ فاعلم أنه في الأعمّ الأغلب من أحواله رجلٌ لا زوجةَ له ولا ولدَ يُنفِقُ عليهما ، ولا

(١) القوادم الريشات التي في مقدم الجناح والخوافي التي إذا ضم الطائر جناحيه خفيت

مسكنَ له يحتاجُ إلى مُؤنٍ ومرَافِقَ، ولا شهوة له في مطعمٍ أو مشربٍ أو ملبسٍ، حتى لو علم أن الانقطاعَ عن ذلك الخسيسِ من الطعام، والقذرِ من الشراب، لا يقعدُه عن السعي في سبيله لانقطع عنه، وهو لو شاء أن يتزوجَ أو يتخذ له مأوًى يأوي إليه لفعل، ولوجد في حرفته متسعاً لذلك، ولكنه الحرصُ قد أفسد قلبه وأمات نفسه، فهو يتوسل بأنواع الحِيَلِ وصنوفِ الكيْدِ ليجمع مالا لا فائدة له من جمعه، ولا نيةَ له في إصلاح شأنِه به إذا اجتمع عنده منه ما يقومُ له بذلك، بل ليدفنه في باطن الأرض حتى يُدفن معه، أو لينظمه في سلْك مُرقَّعتِه حتى يرثه الغاسل من بعده، ولقد يبلغُ به الحرصُ الدنيء والشرهُ السافلُ أن يحمل في سبيل المال ما لا يستطيعُ مجاهدٌ أن يحمل في سبيل الله، فيتعمد قطع يدِه أو ساقِه أو إتلاف عينيه أو إحداهما ليستعطفَ القلوب عليه، وكثيراً ما يحسدُ صاحبَه إذا رآه أكثرَ منه دمامةً وأعظم تشويهاً، كما يحكى أن شحّاذاً

مقطوعَ الساقِ قد وضع مكانها أُخرى من الخشبِ تقابل مع آخرَ كفيفِ البصرِ فتنافسا في مصيبتَيهما أيتهما أقذى للأعين وأقتل للنفوس وأجلبُ للرحمة والشفقة ، فقال الأولُ للثاني لقد وهبَك اللهُ نعمةَ العمَى ومنحك بسلب ناظرَيك أفضلَ حُبالةٍ لاصطياد القلوب ، واستفراغِ الجيوب ، فقال له صاحبُه وأين يبلُغ العمى من هذه القدَمِ الضخْمةِ الثقيلةِ التي تجلبُ في كلّ عام وزنَها ذهباً ؟

إن أكبرَ جريمةٍ يجرِمُها الإنسانُ إلى الإنسانية أن يُساعِدَ هؤلاء المتسولين بمالِه على الاستمرار في هذه الخطةِ الدنيئةِ فيُغرِي كلّ من شعر في نفسه بالميل إلى البطالة وإيثارِ الراحةِ بالسعي على آثارهم ، والاحترافِ بحرفتهم ، فكأنه قطعَ من جسم الانسانيةِ عضواً كاملا ، لو لم يقطعْه لكان عضواً عاملا ، وكأنه هدم بعمله هذا جميعَ المساعي الشريفةِ التي بذلها الأنبياء والحكماء قروناً عديدةً لاصلاح المجتمعِ

الانسانى وتهذيبِ أخلاقه وتخليصِه من آفات الجمودِ والخمول، فهل رأيتَ معروفا أقبحَ من هذا المعروفِ، وإحساناً أسوأَ من هذا الاحسان ؟؟

تنظيم الاحسان

ليستْ كميةُ المالِ التى يُنفِقها المحسنون فى سبيل الاحسانِ مما يستهان به، فلو قال قائلٌ إنها تبلغُ فى مصرَ وحدَها كلَّ عام مليوناً من الذهب لما أخطأ التقدير

سألتُ رجلا من وُجوه الريفيين المعروفين بالبرّ والاحسان عن كمية ما يُنفِقُه كلَّ عام فى هذا السبيلِ فأطلعنى على جريدة حسابِه فرأيتُها هكذا : —

جنيه

١٠ ولائم لمشايخ الطرق

٦٠ ليالى فى موالدِ البيومى والعفيفى والدشطوطى

٧٢ مرتبات قراءةِ القرآن والدلائلِ والصلوات فى مَسجدِه ومَنزِله

٣٠	هبات لجماعة الطوافين فى البلاد الذين يَسْتَجْدون باسم المجدِ القديم والشرفِ الداثر
١٨	صدقات للمتسولين على تقدير خمسةِ قروش يومياً تقريباً
١٠	توضع فى صناديق الأضرحة
٤٠	ثمن خُبز ولحم وملابس تُوزع فى المواسم الدينية
٢٤٠	المجموع

فهذه أربعون ومائتا جنيه يُنفِقُها فى سبيل الاحسان رجلٌ واحدٌ من متوسطى الثروةِ فى عام واحد، وفى مصر مئاتٌ مثلُه وعشراتٌ يزيدون عليه وآلافٌ يقِلون عنه، فلا غرابةَ فى أن يقدرَ هذا النوع من الاحسان بمليون جنيه يُنفِقُه مُنفِقوه على غير شيء سوى إغراء الكسلانِ بكسله، وحملِ العاملِ على ترك عملِه، وفى اعتقادى لو أن هذا المقدارَ حل من الاحسان محلّه، وأصاب منه موضعه، وأُنفِقَ فى سبيل الخيرِ النافعة، ووجوهِ البرِّ الحقيقيةِ، لارتقى بالأمة

المصريةِ إلى ذروةِ الكمالِ، ولكان له الأثرُ الجليلُ في وصولها إلى ما تتطلعُ إليه من هناء العيش وسعادةِ الحياة

لذلك أقترحُ في تنظيم الاحسانِ اقتراحاً نافعاً وأدعو الكاتبين الذين لا مصلحةَ لهم في إثارة الخواطرِ وتهييجِ النفوسِ وضربِ الناسِ بعضهم ببعض أن يُساعِدوني بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه في هذا المقترح المفيد :

أقترحُ أن يقومَ جماعةٌ من سراة الأمةِ ووُجوهِها وأصحابِ الرأيِ فيها بتأليف مُجتمَع في القاهرة يسمى « مُجتمَعَ الاحسان » ويكون له في كل مدينةٍ من مدائن الأقاليم فرعٌ تابعٌ له

أما أعمالُه التي أُحِبُّ أن يقومَ بها بالاتحاد مع فُروعِه فهي ثلاثة : —

١ — استخدامُ فريقٍ من مَهَرةِ الكتابِ وفُصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفرادِ الأمةِ بكلِّ واسطةٍ من وسائط النشرِ وبكل وسيلةٍ من وسائل التأثيرِ معنى الاحسان ،

وما هو الغرضُ منه ، وما هي أفضلُ وجوهِه ، وأي أنواعه أجمعُ لخيرَي الدنيا والآخرة

ب — بذلُ الجهدِ في حمل الناسِ على اعتبار مُجتمعِ الاحسانِ هذا بيتَ مالٍ لهم أو وكالةً عامةً عنهم تتولى جمعَ الصدقات منهم وتوزيعَها على مُستحقيها ، وحسبُها أن تأخذ من كل فردٍ في كل عام مجموعَ ما يحسن به عادةً في ذلك العام، فلا يكونُ بعد ذلك مأخوذاً بشيء من الاحسان أمامَ ربه وأمامَ أمتهِ أكثرَ مما قدمه لهذا المجتمع

ج — إنفاقُ مايجتمع من المال على تربيةِ اليتامى الذين لا كاسبَ لهم ، والقيام بأودِ العاجزين عن الكسب ، وتفقدُ شؤونِ الذين نكبهم الدهرُ وتنكر لهم بعد العِزّ والنعمةِ وصيانةُ ماء وجوهِهم أن تُراق على تراب الأعتاب، والانفاق على تعليم من يتوسمُ فيهم الذكاء والفِطنة ويرجى أن تَنتفِعَ بهم الأمةُ في مستقبلها من أبناء الفقراء ، إلى أمثالِ هذه الأعمالِ الخيريةِ الشريفةِ التي لا يتحققُ الاحسانُ

بدونها ، ولا ينصرفُ معناه إلا إليها

أنا أعتقدُ اعتقاداً لا رَيبَ فيه أنَّ من يخطو الخطوةَ الأولى فى سبيل هذا العملِ الجليلِ ومن يضعُ الحجرَ الأولَ فى بناء مجتمع الاحسان ، هو أفضلُ عاملٍ فى الوجود وأشرفُ إنسان

أدب المناظرة

أنا لا أقولُ إلا ما أعتقدُ ، ولا أعتقدُ إلا ما أسمعُ صَداه من جوانب نفسى ، فربما خالفتُ الناسَ فى أشياء يعلمون منها غيرَ ما أعلم ، ومعذرتى إليهم فى ذلك أن الحقّ أولى بالمجاملة منهم ، وأن فى رأسى عقلا أجلّه عن أن أنزل به إلى أن يكون سَيقة[1] للمقول ، وريشةً فى مهاب الأغراض والأهواء

فهل يجمُلُ بعد ذلك بأحدٍ من الناس أن يَرميَنى بجارحةٍ من القوْل أو صاعقةٍ من الغضب لأنى خالفتُ رأيَه أو ذهبتُ غيرَ مذهبِه أو أنْ يرى أنّ له من الحق فى حملى على مذهبه ، أكثرَ مما يكونُ لى من الحق فى حمله على مذهبى

(١) السيقة ما يساق سوقا ومنه إنما ابن آدم سيقة يسوقه الله

لا بأسَ أن يُؤيدَ الانسانُ مذهبَه بالحجةِ والبُرهان ، ولا بأسَ أن ينقضَ أدلةَ خَصمِه ويُزيفَها بما يعتقدُ أنه مبطلٌ لها ، ولا ملامةَ عليه فى أن يتذرعَ بكل ما يعرفُ من الوسائل إلى نشر الحقيقةِ التى يعتقدُها إلا وسيلةً واحدةً لا أُحِبها له ولا أعتقدُ أنها تنفعُه أو تُغْنِى عنه شيئاً ، وهى وسيلةُ الشتم والسباب

إن لِلأخلاصِ المتكلم تأثيراً عظيما فى قوّة حُجتِه وحلولِ كلامِه المحلّ الأعظمَ من القلوب والأفهام، والشاتمُ يعلمُ عنه الناسُ جميعاً أنه غيرُ مخلصٍ فيما يقول، فعبثاً يُحاوِلُ أن يحملَ الناسَ على رأيه ، أو يُقنِعَهم بصدقه ، وإن كان أصدقَ الصادقين

أتدرى لِمَ يسبُّ الانسانُ مُناظِرَه ؟ لأنه جاهلٌ وعاجزٌ معاً ، أما جهلُه فلأنه يذهبُ فى وادٍ غيرِ وادى مناظرِه وهو يظنُّ أنه فى واديه ، ولأنه ينتقلُ من موضوعِ المناظرةِ إلى البحثِ فى شؤون المُناظِرِ وأطواره وصفاتهِ

وطبائعِه كأنَّ كلَّ مبحثٍ عنده مبحثٌ «فسيولوجى»، وأما عجزُه فلأنه لو عرَف إلى مُناظرِه سبيلا غيرَ هذا السبيلِ لَسلكه ، وكفى نفسَه مؤونةَ ازدراءِ الناسِ إياه وحماها الدخولَ فى مأزقٍ هو فيه من الخاسرين مُحِقاً كان أم مبطلا

لا يجوزُ بحالٍ من الأحوال أن يَكون الغرضُ من المناظرةِ شيئاً غيرَ خدمة الحقيقةِ وتأييدها ، وأحسَبُ أنْ لو سلك الكتابُ هذا المسلكَ فى مباحثهم لاتفقوا على مسائلَ كثيرةٍ هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم، وما اختلفوا فيها إلا لأنهم فيما بينهم مختلفون، يسمعُ أحدُهم الكلمةَ من صاحبه ويعتقدُ أنها كلمةُ حقٍّ لا ريبَ فيها ولكن يبغضُه فيبغضُ الحقّ من أجله فينهضُ للرد عليه بِحُجج واهيةٍ وأساليبَ ضعيفةٍ وإن كان هو قويّا فى ذاته ، لأن القلمَ لا يقوَى إلا إذا استمد قوتَه من القلب ، فاذا عَيَّ بالحجج والبراهين لجأ إلى المراوغةِ والمهاترة، فيقولُ لمناظره مثلا: إنك جاهلٌ لا يُعتَدُّ

برأيك ، أو إنك مضطربُ الرأيِ لا ثباتَ لك تقولُ اليوم غيرَ ماقلتَ بالأمس، وهنالك يقول له الناسُ رويداً لا تخلطْ في كلامك ، ولا تراوغْ في مناظرتِك ، ولا شأن لك بعلم صاحبِك أو جهلِه ، فانه يقولُ شيئاً فان كان صحيحاً فسَلِّمْ به ، أو باطلا فبينْ لنا وجهَ بُطلانهِ ، وهَبْه قولا لا تعلمُ قائلَه ، ولا شأن لك باضطراب صاحبِه وثباته ، فربما كان بالأمس على رأيٍ تبين له خطؤه اليوم ، والمرء يُخطِئ مرةً ويُصيب ، فاذا ضاق بمُناظرِه وبالناس ذَرعاً فرّ إلى أضعف الوسائلِ وأوهنِها فسبّ مناظرَه وشتمه ، وذهب في التمثيل به كلَّ مذهب ، فيُسجّلُ على نفسه الفِرارَ من تلك المعركةِ والخذلانِ في ذلك المَيدان

على أن أكثرَ الناسِ متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه ، فان لكل شيء جهتَين ، جهة مدح وجهة ذم ، فاما أن تتساويا ، أو تكبرَ إحداهما الاخرى ، فان كان الأول فلا معنى للاختلاف ، وإن كان الثاني وجب على

المختلفين أن يعترفَ كلٌّ منهما لصاحبه ببعض الحق ، لا أن يكونَ كلٌّ منهما من سلسلة الخلافِ في طرَفها الأخير

كان يقعُ بين ملكٍ من الملوك ووزيرِه خلافٌ في مسائلَ كثيرةٍ حتى يشتدَّ النزاعُ بينهما وحتى لا يسلسَ أحدهما لصاحبه في طرَفٍ مما يخالفُه فيه ، فحضر حِوارَهما أحدُ الحكماء في إحدى الليالى وهما يتناظران في المرآة ، يعلُو بها الملكُ إلى مصافِّ الملائكة ، ويهبِطُ بها الوزيرُ إلى منزلة الشياطين ، ويسردُ كلٌّ منهما على مذهبه أدلتَه ، فلما علا صوتُهما واشتد لجاجُهما خرج ذلك الحكيمُ وغاب عن المجلس ساعةً ثم عاد وبين أثوابه لَوحٌ على أحد وجهَيه صورةُ فتاةٍ حسناءَ ، وعلى الآخرِ صورةُ عجوزٍ شوهاء ، فقطع عليهما حديثَهما وقال لهما أُحِبُّ أن أعرضَ عليكما هذه الصورة ليُعطينى كلٌّ منكما رأيه فيها ، ثم عرض على الملك صورة الفتاةِ الحسناء فامتدحها ورجع إلى مكان الوزير وقد قلب اللوحَ خلسة من حيث لا يشعرُ واحدٌ منهما بما يفعلُ وعرض

عليه صورة العجوز الشمطاء فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمُّها ذماً قبيحاً ، فهاج غيظ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفسادِ الذَّوق وقد ظن أنه يذمُّ الصورةَ التي رآها هو، فلما عادا إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديدِ استوقفهما الحكيمُ وأراهما اللوحَ من جهتَيه فسكن ثائرهما وضحِكا ضحِكاً كثيراً ، ثم قال لهما هذا ما أنتم فيه منذُ الليلة ، وما أحضرتُ إليكم هذا اللوح إلا لأضربَه لكما مثلاً لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتُما تختلفان فيه لو أنكما تنظران إلى المسائل التي تختلفان فيها من جهتيها ، فشكرَا له همته ، وأثنيا على فضلِه وحكْمته ، وانتفعا بحيلته انتفاعاً كثيراً ، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلا

الاحسان فى الزواج

ورد إلىّ فى البريد هذا الـكتابُ بهذا التوقيع : —

حضرة السيد الفاضل

ضمني وجماعةً من الأصدقاء مجلسٌ جرى فيه الحديثُ عن صديقٍ لنا عرَف امرأةً من البغايا فأخذتْه الرأفةُ بها فتزوجها وكان القومُ ما بين مُستحِسنٍ لهذا العملِ ومُستهجِنٍ له وطالتْ مدة الجدلِ بيننا ساعاتٍ ولم يستطِعْ أحدُ الفريقَين أن يقنَع الآخر برأيه فاتفق رأيُنا جميعاً على أن نكتُبَ إليك بذلك علك تلقى على هذا الموضوعِ نظرةً من نظراتك الصادقةِ والسلام

ف . س

أيها السائل الـكريم :

إن كان باعثُ الرجل على الزواج بهذه البَغِيِّ شهوةً يريدُ

قضاءها من امرأةٍ يعشقُها ولا يرى له سبيلا إلى طول استمتاعِه بها والاستئثارِ بحظّه منها إلا هذا السبيلَ كما هو شأنُ الذين يتزوجون من البغايا فقد أخطأ خطأً جمّاً لأن من كان هذا شأنُه لا يعنيه إلا أمرُ نفسِه ولا يشغله من شؤون تلك المرأةِ إلا الشأنُ الذى يرتبِطُ بشهوته، ويتعلقُ بلذته ، وآية ذلك أنه لا ينظرُ بعد اتصاله بها فى إصلاحها ولا يحاولُ أن ينزعَ من بين جنبيها ملكةَ الفساد الراسخةَ فى نفسها ، ولا يداخلها مداخلةَ المؤدّبِ المهذب الذى يصورُ فى نظرها معيشةَ الفساد بصورة تنفرُ منها وتشمئز لها ، بل لا يكفيها مؤونةَ العيش ولا يرفهها ولا يقلبها فى الرغد والنعمةِ إلا اذا شعر بأن فى قلبه بقيةً من الشغف بها ، فاذا أقفر قلبه من حبها وعلم أن فراقها لا يهيج له وجداً ، ورجوعَها إلى عيشها السالفِ لا يثيرُ منه غيرةً ، فارقها فراقاً هادئاً مطمئناً لايمازجُه حزنٌ على فسادها ، ولا يخالطُه أسفٌ على سقوطها ، وهنالك تعود تلك

المسكينةُ إلى عُشها الذى طارتْ منه وقد أمسكتْ بين جوانحِها من الحِقْد والمُوجِدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالمٌ به

فالرجل الذى يتزوجُ من البَغِيِّ قضاءً لشهوته وإيثاراً للذته، لا ينفعها ولا يحسنُ إليها، لأنهُ لا يهذّبُ نفسها، ولا يفى لها بما عاهدها عليه من البقاء معها، والاستمرار على عشرتها، بل يسئ إليها بسوء تصرفِه معها فيبغِّضُ إليها الصلاح ويحبب إليها الفساد، وعندى أنه فى عمله فاسقٌ لا متزوجٌ، لأنه لو لم ير أن الزواج وسيلةٌ من وسائل الاستئثار والتوسع فى الاستمتاع ما سمى مهراً ولا عقد عقداً

فان كان حقاً ما تقول من أن باعثَه إلى ذلك الرحمةُ والرأفة والحنان والشفقة فقد أحسن كلَّ الأحسان، ولا أحسب أن بين أعماله الصالحةِ عملاً هو أفضل عند الله ذُخراً، وأعظمُ أجراً، من هذا العمل الصالح

العِرْضُ أثمنُ من الحياةِ فان كان من يمنح الحياةَ فاقدَها شريفاً فأشرف منه من يرد العرضَ الضال إلى صاحبه المفجوع فيه

ليت الرجالَ يتفقون جميعاً على أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كلَّ امرأة ساقها فقرُها وعدْمها أو فقدُ عائلها إلى البِغاء ، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل أن تضيق بهنَّ حلقاتُ العيش فيسقطْن

لِمَ لا يكونُ بابا من أبواب الاحسانِ أن يتفقدَ المحسنون من الرجال الفقيراتِ من النساء فيتزوجوا منهن أو يُزَوّجوهن من أولادهم وأقربائهم وإن لم يكنّ من ذوات الجمال أو ذواتِ النسَب ، لأنه إحسانٌ ، والاحسانُ لا يجمُلُ إلا اذا أصاب موضعَه من الشدةِ ومكانَه من الشقاء

لو عرَف المحسنون معنى الاحسانِ لَعرفوا أن إنفاقَ الأموال على بناء التكايا والزوايا وتوزيعَه على المتسولين والمتكففين ووقْفَه على القارئين والذاكرين لا يَدَّخِرُ لهم

من المثوبة والأجرِ عند الله ما يدخره لهم الاحسانُ إلى النساء ، بالعصمة من البغاء

البِغاء للبغىّ شقاءٌ ما جناه عليها إلا الرجلُ ، فجديرٌ به أن يغرَمَ ما أتلف ، ويُصلحَ ما أفسد

يُهاجِمُ الرجلُ المرأةَ ويُعِدُّ لمهاجمتها ما شاء اللهُ أن يعِدَّه من وعدٍ كاذب ، وقولٍ خالب ، وسحرٍ جاذب ، حتى إذا خدَعها عن نفسها ، وغلبها على أمرِها ، وسلبها أثمنَ ما تملِكُ يدُها ، نفض يدَه منها ، وفارقها فراقا لا لقاء بينهما من بعده

هنالك تجلسُ فى كِسْر بيتها جِلسةَ الكئيب الحزين مُسْبلةً دمعَها على خدّها ، مُلقيةً رأسَها على كفها ، تَفلى أناملُها التراب ، لا تدرى أينَ تذهبُ ، ولا ماذا تصنعُ ، ولا كيف تعيش ؟

تطلبُ العيشَ من طريق الزواج فلا تجدُ من يتزوجُها ،

لأن الرجلَ يُسمّيها ساقطةً ، وتطلبُه من طريق العمل فلا تجدُ ما تُحسِنهُ منه ، لأن الرجلَ أهمل شأنَها ، فلم يُعلمها من العلم ما تستعينُ به على ضائقة العيش ، وتطلبُه من طريق التسوّل فلا تجدُه ، لأن الرجلَ يُؤْثِر أن يمنحَها القنطارَ حراما ، على أن يمنحها الدرهمَ حلالا ، فلا تجد لها بداً من أن تطلبَهُ من طريق البغاء

فها أنت ذا ترى أن شقاء المرأة الساقطةِ روايةٌ من الروايات المحزنة ، وأن الرجلَ هو الذى يمثلُ جميع أدوارها ، ويظهرُ فى كل فصل من فصولها ، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل ، فانا لا نزالُ نعتقدُ أن الرجل غريمُ المرأة ، وأن حقاً عليه أن يؤدىَ دَيْنَه ، ويغرمَ أَرشَ[1] جنايته

إنْ أَبَى الرجلُ أن يتزوجَ المرأة بغيًّا فليحلْ بينها وبين البغاء ، ولا سبيل له إلى ذلك إلا إذا اعتبر الزواجَ بابا من

(١) الارش دية الجراحات

أبواب الإحسانِ ، أى أنه يتزوجُها لها أكثرَ مما يتزوجُها لنفسه ، وأحقُّ النساء بالاحسان أولئك اللواتى سلبهن اللهُ نعمةَ الجمال والمال ، وحليةَ الحسَبِ والنسب ، فإن أبى إلا أن يتزوجَ من المرأة السعيدة ، فليذكرْ أنه هو الذى أخذ الشقيةَ من يدها ، وساقها بنفسه إلى مواطن الشقاء ، ورماها بيده فى هُوَّةِ الفسق والبِغاء

لا همجية فى الاسلام(١)

أيها المسلمون : إن كنتم تعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين إلا ليموتوا ذبحاً بالسيوف وقصعاً بالرماح ، وحرْقا بالنيران ، فقد أسأتم بربكم ظنا ، وأنكرتم عليه حكمتَه فى أفعاله ، وتدبيرَه فى شؤونه وأعماله، وأنزلتموه منزلةَ العابث اللاعب الذى يبنى البناء ليهدمَه، ويزرعُ الزرعَ ليحرقَه ، ويَخيطُ الثوب ليمزقَه ، وينظمُ العِقدَ ليبدّدَه

لم يزل اللهُ سبحانه وتعالى مذ كان الانسانُ نُطْفةً فى رَحِم أمّه يتعهده بعطفه وحنانه ، ويمدُّه برحمته وإحسانه، ويُرسِلُ إليه فى ذلك السجنِ المظلِم الهواءَ من منافذه ، والغذاءَ من مجاريه ، ويذودُ عنه آفاتِ الحياة وغوائلها نُطْفَةً فعلَقةً فمُضْغَةً فجنيناً فبشراً سوياً

(١) كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين فى ولاية أطنه من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم اياهم وتمثيلهم بهم فى عام ١٩٠٩ م

إن إلهاً هذا شأنه مع عبده وهذه رحمتُه به وإحسانُه اليه مُحالٌ عليه أن يأمر بسلبه الرُّوحَ التى وهبه إياها ، أو يرضَى بسفْكِ دمِه الذى أمده به ليجرىَ فى شرايينه وعروقِه لا ليسيلَ بين تلال الرمال ، وفوق شعاف الجبال

فى أى كتاب من كتب الله وفى أيّة سُنّة من سُنَنِ أنبيائه ورُسله ، قرأتم جوازَ أن يعمدَ الرجلُ إلى الرجل ، الآمنِ فى سِرْبِهِ ، القابع فى كِسْرِ بيته ، فينزع نفسَه من بين جنبيه ، ويفجع فيه أهلَه وقومَه ، لأنه لا يدينُ بدينه ، ولا يذهب مذهبَه فى عقائده

لو جاز لكل إنسان أن يقتلَ كلَّ من يُخالفُه فى رأيه ومذهبه لَأقفرت البلادُ من ساكنيها ، وأصبح ظهرُ الأرضِ أعرى من سَراة أديم

إن وجودَ الاختلاف بين الناس فى المذاهب والأديان والطبائع والغرائزِ سنّةٌ من سنن الكون ، لا يمكن تحويلُها ولا تبديلُها ، حتى لو لم يبقَ على ظهر الأرضِ إلا

رجلٌ واحدٌ لجرد من نفسه رجلا آخرَ يُخاصِمُه وينازعُه ،
ولو شاء ربك لجعل الناسَ أُمَّةً واحدةً

إن الحياةَ فى هذا العالمَ كالحرارة لا تنتج إلا من التحاكّ بين جسمَين مختلفين ، فمحاولةُ توحيدِ المذاهب والأديان محاولةُ القضاء على هذا العالمَ وسلبِه رُوحَه ونظامَهُ

أيها المسلمون : ليس ما كان يجرى فى صدر الاسلام من محاربة المسلمين المسيحيين كان مُراداً به التشفى والانتقام منهم ، أو القضاء عليهم ، وإنما كان لحماية الدعوةِ الاسلامية أن يعترضَها فى طريقها معترضٌ أو يحولَ بينها وبين انتشارها فى مشارق الأرض ومغاربِها حائل ، أى أن القتال كان ذَوْداً ودفاعا ، لا تشفياً وانتقاماً

وآيةُ ذلك أن السّريّة من الجيش ما كانت تخطو خطوةً واحدةً فى سبيلها الذى تذهبُ فيه حتى يصلَ إليها أمرُ الخليفةِ القائِم أن لا تزعجَ الرهبانَ فى أديرتهم، والقساوسة فى صوامعهم ، وأن لا تحاربَ إلا من يقاومُها ، ولا تقاتلَ

إلا من يقفُ فى سبيلها ، ولقد كان أحرى أن تُسفَكَ دماء رؤساءِ الدينِ المسيحى وتسلبَ أرواحُهم لو أنَّ غرضَ المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقامَ منهم ، والقضاء عليهم

لو أنكم قضيتُم على كل من يتدينُ بدينٍ غيرِ دينكم ، حتى أصبحت رُقعَةُ الأرض خالصةً لكم ، لانقسمتم على أنفسكم مذاهبَ وشيَعاً ، ولتقاتلتم على مذاهبكم تقاتلَ أرباب الأديان على أديانهم ، حتى لا يبقى على وجه الأرض مذهبٌ ولا مُتَمَذْهِب

أيها المسلمون : ما جاء الإسلامُ إلا ليقضىَ على مثل هذه الهمجيةِ الوحشيةِ التى تزعمون أنها الإسلام

ما جاء الاسلامُ إلا لِيَسْتَلَّ من القلوب أضغانَها وأحقادَها ثم يملؤها بعد ذلك حكمةً ورحمة ، فيعيش الناسُ فى سعادة وهناءة ، وما هذه القطراتُ من الدماء التى أرافها فى هذا السبيل إلا بمثابة العملِ الجراحىِّ الذى يتذرعُ به الطبيبُ الى شفاء المريض

عذرتكم لو أن هؤلاء الذين تريقون دماءهم كانوا ظالمين لكم فى شأن من شؤون حياتكم ، أو ذاهبين فى معاشرتكم والكون معكم مذاهبَ سوء تخافون مَغَبَّتَهَا ، وتخشَوْن عاقبتَها ، أمّا والقومُ فى ظلالكم والكون تحت أجنحتكم أضعفُ من أن يعدوا اليكم يدَ سوء ، أو يبتدروكم ببادرة شر ، فلا عذر لكم

عذرتكم بعضَ العذر لو لم تقتلوا الأطفالَ الذين لا يسألهم اللهُ عن دين ولا مذهبٍ قبل أن يبلغوا سنّ الحُلُمِ ، والنساء الضعيفات اللواتى لا يحسنّ فى الحياة أخذاً ولا رداً ، والشيوخَ الهالكين الزاحفين وحدهم إلى القبور قبل أن تزحَفوا إليهم ، وتتعجلوا قضاء الله فيهم

أمّا وقد أخذتُم البرىء بجريرة المذنب فأنتم مجرمون لا مجاهدون ، وسفاكون لا محاربون

من أيّة صخرةٍ من الصخور أو هَضْبةٍ من الهضبات نَحَتُّمْ هذه القلوبَ التى تنطوى عليها جوانِحُكم ، والتى

لا تروعُها أنّاتُ الثكالى ، ولا تحركُها رنّاتُ الأيامى

من أى نوع من أنواع الأحجار صيغَتْ هذه العيونُ التى تستطيعون أن تروا بها منظرَ الطفلِ الصغير والنار تأكلُ أطرافَه وتمشى فى أحشائه على مَرْأى ومسمعٍ من أمّه وأمُّه عاجزةٌ عن معونته لأن النارَ لم تتركْ لها يداً تحركُها ، ولا قدَما تمشى عليها

لا أستطيع أن أهنئكم بهذا الظفر والانتصارِ لأنى أعتقدُ أن قتلَ الضعفاء جُبْنٌ ومَعجزةٌ ، وأن سفكَ الدماء بغير ذنب ولا جريرة وَحْشيةٌ أحرى أن يُعزّى فيها صاحبُها ، لا أن يُهنأ بها

أيها المسلمون : اقتلوا المسيحيين ما شئتُم وشاءت لكم شراستُكم ووحشيتُكم ، ولكن حذارِ أن تذكروا اسمَ الله على هذه الذبائحِ البشرية ، فاللهُ سبحانه وتعالى أجلُّ من أن يأمرَ بقتل الأبرياء ، أو يرضى باستضعاف الضعفاء ، فهو أحكمُ الحاكمين ، وأرحمُ الراحمين

البخيل

سألنى سائلٌ ماذا يستفيدُ الانسانُ من بخله حتى على نفسهِ وأىّ غرضٍ يرمى اليه من ذلك،فأجبتُه بهذا الجواب:

البخلُ إحدى الملكات النفسية ، والملكةُ صفةٌ راسخة فى النفس تصدرُ عنها آثارُها عفواً بدون رَوية ولا اختيار ، فكما لا يُسئَلُ المسرفُ عن سبب إسرافه ، والغاضبُ عن غايته من غضبهِ ، والحاسدُ عن غرضه من حسده ، كذلك لا يُسئل البخيلُ عما يستفيدُه من بخله وحرصِه ، فكثيراً ما تَعرض لأرباب هذه الملكاتِ عوارضُ تنزعُ بهم إلى الرغبة عن التخلى عنها حيناً فلا يجدون إلى ذلك سبيلا لمكان تلك الملكات من نفوسهم ونزولها منها منزلةً لا تزعجُها الرغَبات ، ولا تزعزعها الارادات ، وربما عرض للبخيل ما يدفعُه الى بذل شىء من ماله فاذا وضع يدَه فى كيسه

وحاول القبضَ على شيء مما فيه أحس كأنّ تياراً كهربائياً قد سرى من نفسه إلى يده فتشنجتْ أعصابها وتصلبتْ أناملها وأعيت على الالتواء والانثناء فأخرجها صِفراً كما أدخلها ، وبوده أن لا يفعلَ لولا أن للغريزة قوةً فوق قوة الارادة وسلطانا تخضعُ له الرغباتُ وتنقادُ إليه العقولُ إلا إذا كان وراءها وازعٌ من القانون يزعُها ، فانه يكسرُ شِرتها أحيانا ، وإن لم ينتزعْها انتزاعا

ويحكى أن شحيحاً تحركتْ فى قلبه يوماً الشفقةُ على ابنته الجائعةِ العارية فأراد نفسَه على أن يبذل لها شيئاً من ماله فتأبت عليه فأذن لوكيله أن يختلسَ لها من ماله مايسدُّ خَلّتها من حيثُ لا يُعلِمَه بذلك ولا يدعُه ينتبهُ لشيء منه علماً بأنه لا يستطيعُ أن يكون كما يريد

فالوجهُ فى السؤال أن يقالَ ما هى الأسبابُ التى غرستْ ملكةَ البُخلِ فى نفس البخيل ، فيكون الجوابُ عن ذلك إن الأسبابَ تختلفُ باختلاف الأشخاص

وأطوارهم وأخلاقِهم وتربيتهم ، ونحن نذكرُ أهم تلك الأسبابِ من حيثُ ذاتُها بقطع النظرِ عن افتراق ما يفترقُ منها واجتماعِ ما يجتمع : —

الأول — الوراثة — وهى وإن كانتْ سبباً ضعيفاً لما يعرض للأخلاق الموروثة أحياناً من التغير والانقلابِ بعاشرة المتصفين بأضدادها والتأثرِ بمخالطتهم إلا أنها كثيراً ما تنمو وتتجسمُ إذا أُغفِلتْ ولم يعترضها ما يسدُّ سبيلَها ويقفُ فى طريق نمائها

الثانى — التربية — إذا نشأ الطفلُ بين أهلٍ أشحاء ولم يكنْ فى فِطرته ما يقاومُ سلطانَ التربية على نفسه أخذ إخذَهم فى الحرص وتخلقَ فيه بأخلاقهم كما يتخلقُ بها فى العقائد والعاداتِ من حيثُ لا يفكرُ فى استحسان أو استهجان كأنما هى عدوى الأمراض التى تسرى إلى الانسان من حيثُ لا يدرى بها ولا يشعرُ بسريانها ، ويُحكى أن رجلاً دخل منزلاً يعرفُ أهله بالشّح والحرص فرأى

طفلاً صغيراً فى يده ليمونةً صغيرةً فطلب إليه أن يعطيَه إياها فأجابه الطفل « إن يدَكَ لا تَسَعُها »

الثالث — سوء الظن بالله — ذلك أنَّ المتدينَ إذا أخذتْ عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذَها رسخ فى قلبه الايمانُ بأن لله سبحانه وتعالى عيناً ساهرةً على عباده الضعفاء فهو أرحمُ من أن يغفلَ شأنَهم ويكلَهم إلى أنفسهم ويسلمَهم لصروف الليالى وعادياتِ الأيام، فلا يلجُّ به الحرصُ على الجمع ، ولا يزعجُه الخوفُ من البذل ، وعلى العكس منه ضعيفُ الايمان، ضعيفُ الثقة بواهب الأرزاق، ومقسِم الحظوظ، والجدود ، فهو لسوء ظنه به لا يزالُ الخوفُ من الفقر نُصبَ عينَيه حتى يصيرَ البخلُ مَلَكَةً راسخةً فيه

الرابع — النكبات — كثيراً ما تحلُّ بالانسان نكباتٌ تصهرَ قلبَه وتزعجُ غريزتَه من مستقرها ، ومن ذلك النكبات التى يكون مرجعُها قلةَ المال: كأنْ يقعَ الرجل فى خصومة يرى أنه لولا ضيقُ ذات يده لما وقع فى أمثالها

فكلما تمثلتْ له نكبتُه لج به الحرصُ وأغرق فى المنع حتى يصيرَ ذلك غريزةً فيه وخُلقاً ثابتاً له ، ومن ذلك جديدُ النعمة الذىَ ذاق مرارةَ الفقر حِقْبةً من الزمان وكابد منه ما كابد من الآلام والأوجاع فانه مهما حسُنَتْ حالُه وانتعشتْ نَفْسُهُ وفاضتْ خزائنُه بالفضة والذهب لاتذهبُ من فِه تلك المرارةُ ولا تضيعُ من ذاكرته آلامُها، فلايزال يتملك قلبَه وسواسٌ مقلقٌ يخيِّل إليه ما لا يتخيل، ويُريه مالا يرى، كمن تمثل له خيالُ الشيطان مرةً فى أبشعِ صورةٍ وأفظع شكلٍ فهاله منظرُه ، وذهب الخوف منه برشده ، فلا يزال يراه فى كل مكان وزمان ، وفى حالَتى الأمن والخوف، والوَحشةِ والأُنس .

الخامس — اللؤم — فإن النفسَ إذا خَبُثَتْ طينتُها ولؤم طبعُها كان من أخص صفاتها الحقدُ على الوجود بأجمعه وبغضُ الخير للناس قاطبةً فكيف يمنحُهم من ذات يده ما يزيدُه ألماً على ألم ، وحسرةً فوق حسرة ،

وهو لو استطاع أن يمنع عنهم سارية السماء ويعترض دونهم نابتة الأرض لفعل

السادسة — سقوط الهمة — إذا نشأ الانسانُ عالىَ الهمة طَمُوحا إلى المعالى محباً للذكر الحسن والثناء الجميل سهُلَ عليه أن يبذلَ فى سبيل ذلك كلّ ما يستطيعُ بذلَه من ذات يده أو ذاتِ نفسه ، وحبُّ المجد أسال الذهبَ من خزائن الأغنياء ، وصير نفوسَ الشجعان نهباً مقسما بين شفَرات السيوف،وأسنّة الرماح،طلباً لسعادة الحياة بالذكر، وسعادةِ الممات بالخلود ، فمن لساقط الهمة ضعيفِ النفس بدافعٍ يدفعُه إلى بذل المال على مكانته الراسخة فى قلبه ، وامتزاج حبه بلحمه ودمِه ، أيدفعه حبّ الثناء وهو لا يشعرُ بلذته ، أم خوفُ المذمة وهو لا يتألم منها ، ولا يحس بمرارتها ، أم سعادةُ الحياة وسعادة الممات ، وهو لا يفهمُ للسعادة معنى غيرَ ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الحطيئة من المكارم بلقمةٍ يمضغُها ، وحُلّة يلبسُها

السابع ـــ فساد المجتمع الانسانى — ذلك أن كثيراً من الناس قد بلغ بهم حبُّ المال والتعبدُ له أن صاروا يعظمون صاحبَه لا لفائدة يرجونها ، أو خير يطمعون فيه ، بل لأنه ذُو مالٍ وذو المال فى نظرهم أحقُّ الناسِ بالمحبة والإكرام والإجلال والإعظام ، وإن لم يحصلوا منه على طائل ، فلو أنهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعةً واحدةً لأصبحوا من عباده المقربين ، فمن ذا الذى لا يُحِبُّ من البخلاء أن ينالَ هذه المنزلةَ فى نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها إلا الحرصُ على ما فى يده، وهو عملٌ لا يتكلفُه ولا يتعملُ له، بل هو أشهى الأشياء اليه، وأكثرُها ملاءمةً لِفطرته ، ليزدادَ شرَفا وعِزاً ، كلما ازداد بالحرص ثراءً ووفْراً ، ومن هنا قال أحدُ البخلاء لأولاده : يا بَنىَّ لَأَنْ يعلمَ الناسُ أن عند أحدكم مائةَ ألف درهم أعظمُ له فى أعينهم من أن يقسمَها فيهم، وقال رجلٌ لآخر: يا بخيلُ، فقال له لا أحرمنى اللهُ بركةَ هذا الاسم ، فانى لا أكونُ بخيلا إلا إذا كنتُ غنياً ، فسم لى المال ولقبْنى بما تشاء

هذه هى أهمُّ الأسبابِ التى تألفتْ منها رذيلةُ البخل ، فان أغفلْنا النظرَ اليها وسلمنا للسائل صحةَ سؤالِه عمايستفيدُه البخيلُ من بخلِه حتى على نفسه ، وفرضنا البخيل مختاراً فيما يفعلُ غيرَ مُساقٍ الى هذا الموردِ الوبيلِ بسائق الغريزةِ الفاسدةِ كان منالُ النجم أقربَ من تطبيق حالِه هذه على قاعدةٍ من قواعدِ العقل، لأن اللهَ تعالى خلق الانسانَ وركَّبَ فيه رغَباتٍ وشهواتٍ مختلفةً بعضُها نفسىٌّ والآخرُ جسدىٌّ، فهو لا يزالُ يتطلبها ما لم يعجزْ عنها ، فصاحبُ المال الكثيرِ الذى يقنعُ بالشَّملةِ والمضغةِ ، والجرعةِ والظُّلة، ويحملُ فى كل لحظةٍ أشدَّ الآلام من مُقاومة نزواتِ نفسه ونزعاتِها إلى ميولها ورغباتِها، لا يمكنُ أن يُحمِلَ حالَه على محمل العجز، لأنه قادر، ولا على الزهد ، لأنه ما زهد فيما لا ينفعُ فيزهدَ فيما ينفع ، ولا على الخوف من الفقر ، لأن عندَه من المال ما يُفني الأعمار ، فهيهاتَ أن يُفنيَه عمرٌ واحد ، ولا على الرغبةِ

فى سعادة الذريةِ ، لأن محبةَ الأبِ لولده لايمكن أن تزيد على رغبته فى أن يراه شريكا له فى سعادتِه ، فأما أن يشقَى هو فى حياته ، ليَسعدَ ولدُه بعد مماته ، فما لا يقبلُه العقلُ ، ولا يدخُلُ فى دائرة من دوائر الفهم ، فلم يبقَ لنا إلا أن نتوسلَ إلى علماء النفسِ أن يأذنوا لنا بالتوسع فى تفسير معنى الجنون، حتى لا يكونَ مقصوراً على المُعَرْبِدين والهاذين، بل يكون شاملا للعابثين الذين لا يدرون ما يأخذون وما يدعون ، والذين يجلبون لأنفسهم بإرادتهم واختيارِهم آلاماً نفسيةً هى أشدُّ مما يجلبه المجانينُ على أنفسهم بمناطحة الجدران، ومطاردةِ الصبيان ، كما نتوسلُ إلى علماء الشرائع أن يضعوا قانونا لاستخراج المالِ من خزائن المقترين ، كما وضعوا قانوناً لحفظ المال فى صناديق المبذرين ، فان تبذيرَ المال يضرُّ قوماً وينفعُ أقواما ، أما حبسُه فيضرُّ صاحبَه ، ويضرُّ معه الناسَ أجمعين

البعوض والانسان

جلستُ ليلةَ أمسِ الى منضدتى وعلقتُ قلمى بين أصابعى ، وأنشأتُ أفكرُ فى الموضوع الذى يَجْمُلُ بى أن أكتبَ فيه، وتلك عادتى التى يعرِفُها عنى كثيرٌ من خُلطائى وعشرائى أننى لا أميلُ إلى الكتابة فى بَياض النهار ، ولا أُحِبُّ أن أخُطَّ حرفا على ما أُحِب وأرتضِى إلا فى ظلام الليلِ وهدوئه

ولا يَظن المولَعون باكتناه الحقائقِ واستشفافِ الضمائرِ من إخواننا الفضوليين أننى أريدُ بذلك مُراعاةَ النظيرِ بين سَوادِ المِدادِ وسوادِ الظلام ،أو أننى أترقبُ طلوعَ النجم لأتسلقَ أشعتَه إلى سماء الخيال ، فكلُّ ذلك لم يكن ، وليس فى الناس من هو أدْرَى بدخيلة

أمرى منى ، وكلُّ ما فى المسئلة أن هذه عادتى ، وتلك طريقتى ، وكفى

لم أ .كد أفرغ من التفكير فى الموضوع حتى شعَرتُ بطنين البَعُوض فى أُذنى ، ثم أحسست بلذعاته فى يدى ، فتفرق من ذهنى ما كان مجتمعاً ، وتجمَّع من همى ما كان مفترقا ، ولم أر بداً من إلقاء القلم وإعدادِ العُدّة لمقاومة هذا الزائرِ الثقيل

طاردتُه بالمِذبّة فما أجدَى ذلك نفعاً لأنه على الطيران أقوى منى على المطاردةِ ، وفتحتُ النوافذَ لِاخرجَ ما كان داخلا ، فدخل ما كان خارجا ، وحاولتُ قتلَه فوجدتُه مبعثَراً ، ولو كان مجتمعاً فى دائرةٍ واحدةٍ لَهلك بضرْبةٍ واحدة ، ولم أر فى حياتى أمةً ينفعُها تفرقُها ويؤذيها تجمُّعُها غيرَ أمة البعوض ، فما أضعف هذا الانسانَ وما أضل عقلَه فى اغتراره بقوته ، واعتدادِه بنفسه ، واعتقادِه أن فى يده زمامَ الكائنات يُصرّفها كيف يشاء ، ويسيّرُها كما يريد ، وأنه لو أراد

أن يَذهبَ بنظام هذا الوجود، ويأتىَ لهُ بنظامٍ جديد، لما كان بينه وبين ذلك إلا أن يُرسلَ أشعةَ عقلِه دفعةً واحدةً، ويشحذَ سيفَ ذكائه، ويبتعثَ عزيمتَه، ويقتدحَ فِكرتَه

يزعمُ ذلك وهو يعلمُ أنه أضعفُ من أن يحتالَ لنفسه فى مدافعة أصغرِ الحيوانِ جسما وعقلا، وأدناها قيمةً وشأناً، بَيْدَ أنه يعلمُ ذلك بلسانه وفى فلتات وهمِه، ولو علمه علماً يتغلغلُ فى نفسه، ويتمثلُ فى سُوَيْداءِ قلبه لكفكف من غُلوائه، وخفّض من كبريائه، وعَلِم عِلْمَ اليقين أن الانسان العاقلَ والحيوانَ الملهمَ والنباتَ النامىَ والجمادَ الجامدَ سواءٌ بين يدَى القوةِ الالهية الكبرى، التى لا ينفعُ معها حَوْلٌ ولا قوة

علمتُ أنى عَييتُ بأمر هذا الحيوانِ، فَلُذْتُ بجانب الصبر، والصبرُ كما يعلمُ معشرُ الصابرين حُجّةُ العاجز، وحيلةُ الضعيف، وأيسرُ ما يستطيع أن يدفعَ به دافعٌ عن نفسه ملامةَ اللائمين، وفضولَ المتطفلين، وقلتُ فى نفسى

لو كان البعوضُ يفهم ما أقول لقصصتُ عليه قصتى ، وشرحتُ له عذرى ، وسألته أن يمنحَنى ساعةً واحدة أقومُ فيها بكتابة رسالتى هذه ، ثم هو بعد ذلك فى حِلٍّ من جسمى ودمى ، ينزِل منهما حيثُ يشاء ، ويمتصُّ منهما ما يشاء ، ولـكنه ويا للأسف لا يسمعُ شكاتى ، ولا يَرحمُ ضَراعتى ، ولا يفهمُ معنى الرحمة ، ولا يعرِفُ قيمةَ المُرُوءة، لأنه ليس بانسان

أحسبُ أن لذعاتِ البعوض قد أخذتْ مأخذَها من عقلى وفهمى، وأنى قد بدأت أهذى هذيانَ المحموم ، فمن أين لى أن لو كان البعوضُ إنساناً كان يسمع شكاتى،ويكشف ظلامتى ، أو أنه يفهم معنى الرحمة ، ويعرف قيمة المروءة ، ومتى كان الانسان أحسنَ حالا من البعوضِ وأرحمُ منه قلبَا وأشرف غايةَ ، فأتمنى أن لو كان مكانَه، بل ومن أين لى أن هذا الذى أحسَبُه بعوضاً ليس بانسان قد تقمَّص جسمَ البعوض وتمثل لى فى صُورته الضئيلةِ وجناحِه الرفيق ، وأيّة غرابةٍ

فى أن أتخيلَ ذلك ما دام الانسانُ والبعوضُ سواءٌ فى حبِّ الشر، والميلِ إلى الأذى ، وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها فى جانب الجواهرِ الذاتية ، والأجزاءِ المقوّمةِ للماهية .

أية قيمةٍ لما يمتصُّه البعوضُ من جسم الانسان مجتمعاً فى جانبِ ما يمتصه القاتلُ من جسم المقتولِ منفرداً

إن البعوضَ فى امتصاصه الدمَ من الجسم أقلُّ من القاتل ضرراً ، وأشرفُ غايةً ، وأجلُّ مقصِداً ، لأنه ان آذى الجسمَ فقد أبقى على الحياة ، ولأنه يطلبُ عيشهَ ، الذى يحيا به وهذا طريقهُ الطبيعىُّ الذى لا يعرِفُ له طريقاً سواه ، ولا يستطيعُ أن يرى لنفسه غيرَه ، ولو استطاع لعافتْ نفسُه أن يكون كالانسان يتطوعُ للشر ، ويتعبدُ بالضر

إنى وجدتُ بين الإنسان والبعوضِ شبهاً قريباً فى صفاتٍ كثيرةٍ ، أنا ذاكرٌ لك طرفاً منها ، وتاركٌ لفطنتك الباقى : —

البعوضُ يمتصُّ من الدم فوق ما يستطيعُ احتماله ، فلا يزال يشرَبُ حتى يمتلىء فينفجر، فهو يطلبُ الحياةَ من طريق الموت، ويفتشُ عن النجاة فى مكامن الهلاك ، وهو أشبهُ شيء بشارب الخمرِ يتناولُ الكأسَ الأولى منها، لأنه يرى فيها وجهَ سرورهِ وصورةَ سعادتهِ ، فتطمعُه الأولى فى الثانية ، والثانيةُ فى الثالثة ، ثم لا يزال يلحُّ بالشراب على نفسه حتى يتلفها ويُودىَ بها ، من حيثُ يظن أنه يُنعشُها، ويجلبُ إليها سرورَها وهناءها

البعوضُ سيءُ التصرفِ فى شؤون حياته، لأنه لا يسقُطُ على الجسم إلا بعد أن يَدُلّ على نفسه بطَنينه وضوضائه ، فيأخذ الجالِسُ منه حِذْرَه ويدفعه عن مطلبه ، أو يفتك به قبل بلوغه إليه، فمثلهُ فى ذلك كمثل بعض الجهلة من أصحاب المطالبِ السياسية يطلبون المآربَ النافعةَ المفيدةَ لأنفسهم ولأمتهم غير أنهم لا يكتُمونها ، ولا يُحسِنون الاحتفاظ بها فى صدورهم ، ولا يبتغون الوسيلةَ إليها إلا بين الصُّراخ

والضجيج ، ولا يمسكون بالحلْقة الأولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقَين بذكرها ، ويُشْهِدوا الملأَ الأعلى والأدنى عليها ، وهنالك يُدرِكُ عدوُّهم مقصِدَهم ، فيعُدّ له عُدّته ، ويتلمّس وجهَ الحيلة فى افساده عليهم هادئاً ساكناً من حيثُ لا يشعُرون

البعوضُ خفيفٌ فى وطأته ، ثقيل فى لذعته ، فهو كذلك الصاحبِ الذى يسرُّكَ منظَرُه ، ويسوءكَ مخبره ، يلقاك بابتسامةٍ هى العَذْبُ الزُّلال ، رقةً وصفاء ، والسحرُ الحلالُ ، جمالاً وبهاء ، وبين جنبيَه فى مكان القلبِ صخرةٌ لا تَنفذها أشعةُ الحب ، ولا يتسربُ إليها سلسبيلُ الوفاء ، يقولُ لك إنى أُحِبُّكَ لِيغلبَك على قلبك ، ويملكَ عليك نفسك ، فإن تم له ما أراد سلبك مالَك إن كنتَ من ذوى المال ، وجاهَك ، ان كنتَ من ذوى الجاه ، فإن لم تكنْ هذا ولا ذاك أغراك بالسير فى طريقٍ يُسْقِط

مروءتَك، ويثلمُ شرفَك، فإن فاته ما يَشفى به داء بِطنته لا يفوتُه ما يُطفىء به نارَ حِقْدِه ومَوْجِدَتِه

لا يزال البعوضُ ملحا فى مهاجمتى، فلا طاقة لى بكتابةِ سطرٍ واحدٍ أكثرَ مما كتبتُ والسلام

الجزع

يا صاحبَ النظرات :

لى صديقٌ سقط فى امتحان (البكالوريا) هذه السنة فأثّر فيه ذلك السقوطُ تأثيراً كبيراً فهو لا ينفَك باكياً متألماً حتى أصبحنا نخافُ عليه الجنون ، وكلما عزّيناه عن مُصابهِ يقولُ كيف أستطيعُ معاشرةَ إخوانى ومعارفى وكيف أستطيعُ مقابلةَ والدى وأهلى فهل لك أيها السيد أن تعالجَ نفسَه بنظرةٍ من نظراتك التى طالما عالجتَ بها قلوب المحزونين ؟

(حقوق)

ليستْ المسئلةُ مسئلةَ صديقِك وحدَه بل مسئلةَ الساقطين أجمعين ، فإن المرء لا يكادُ يتناول نظرُه منهم فى هذه الأيام إلاّ وجوهاً قد نسجَ الحزنُ عليهاغبرةَ سوداء،

وجفونًا تحارُ فيها مدامعها حيرةَ الزئبقِ الرجْراج حتى ليَخيل إليك أن نازلةً من نوازل القضاء قد نزلتْ بهم ، فزلزلتْ أقدامَهم ، أو فاجعةً من فواجع الدهرِ قد دارتْ عليهم دائرتُها ، فأثكلتْهم ذخائر نفوسِهم ، وجواهرَ عقولهم ، وأقامت بينهم وبين سعادة العيش وهنائه سدًا لا تنفذُه المعاولُ ، ولا تنالُ من أيْده الزلازل

خفضْ عليك قليلاً أيها الطالبُ فالأمر أهونُ مما تظنّ وأصغرُ مما تقدِّر ، واعلمْ وما أحسبُك إلا عالما أنك لم تسقُطْ من قمةِ جبلٍ شامخ إلى سَفْحٍ متحجرٍ فتبكى على شَظِيّةٍ طارتْ من شظايا رأسك ، ولم يَهْوِ بك القضاء إلى هُوّةٍ عميقة لا خلاص لك منها أبدَ الدهر

إنك قد سعيتَ إلى غرض فان كنتَ هيأت له أسبابَهُ ، وأعددتَ له عُدّتَه ، و بذلتَ له من ذات نفسِك ما يبذلُ مثله الباذلون فى مثله ، فقد أعذرتَ إلى الله وإلى الناس وإلى نفسك فَحَرِىٌّ لك أن لا تحزن على مُصاب لم

يكن عملا من أعمال يديك ، ولا جناية من جنايات نفسك عليك ، وإن كنت قصرت في تلمس أسبابه ، ومشيت في سبيله مشية الظالع المتقاعس ، فاحزنك على فوات غرض كان جديراً بك أن تترقب فواته قبل وقت فواته ؟ وما بكاؤك على مصاب كان خيراً لك أن تعلم وقوعه قبل يوم وقوعه ؟

مالك تبكي بكاء الواثق بمواتاة الأيام، ومطاوعة الاقدار، وهل تستطيع أن تبرز لنا صورة العهد الذي أخذته على الدهر أن يكون لك كما تحب وتشتهي ، وعلى الفلك أن لا يدور إلا بسعدك ، ولا يجري إلا بجدك ، وعلى القلم أن لا يكتب في لوحه إلا ما دللته عليه ، وأوحيت به إليه ؟

لا تجعل لليأس سبيلا إلى نفسك ، فلعل الأمل يعوض عليك في غدك ، ما خسرت في أمسك ، وامض لشأنك ولا تلتفت إلى ما وراءك فان تم لك في عامك المقبل من طلبتك ما أردت فذاك ، أولا ، فما فقدت إذ فقدت إلا ورقة

كانَ كلُّ ما تستفيدُه منها أن تشترىَ بها قَيْداً لرجْلِك ، وغُلا لِعُنقِك ، ثم ترتبطُ فى سجن من سجون الحكومة بجانب رئيسٍ من الرؤساء المدلين بأنفسهم ، يسومُك من الذل والخَسْف مالا يحتمله الأسراء فى سجون الآسرين

إن اعتدادَك بهذه الورقةِ هذا الاعتدادَ كلّه وإكبارَك إياها هذا الاكبارَ العظيمَ ، دليلٌ على أنك كنت تريدأن تجعلها مُنتهى أملك ، وغاية همتِك ، وأنك لا ترى بعدها مزيداً من الكمال لمستزيد ، فان صدقتْ فراستى فيك ، فاعلم أن الله قد خار لك فى هذا المصير ، وساق اليك من الخير مالا تعرفُ السبيلَ اليه ، وأنه ماخيب رجاءك فى هذا الكمال الموهومِ إلا لتطلُبَ لنفسك كمالا معلوماً ، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبةَ فى صفحات الأوراق ، إلا لتسعى وراء الشهادة المكتوبة فى صفحات القلوب

إن كنت تبكى على الشرف فبابُ الشرف مفتوحٌ بين يديك لاشأن للحكومة فيه ، ولا حاجب لها عليه ،

وما هو إلا أن تجدَّ في التزيد من العلم والمعرفةِ ، واستكمال ما ينقصك من الفضائل النفسية ، فاذا أنتَ شريفٌ في نفسك وفي نفوس الخاصة من الناس، وإذا أنت في منزلةٍ يحسدُك عليها كثيرٌ من أرباب الشهادات والمناصب ، ولا حيا اللهُ شرفاً يحيا بورقةٍ ويموتُ بأخرى ، ولا مجداً يأتي به سطرٌ ويذهبُ به سطر ، وإن كنتَ تبكي على العيش ففي أيِّ كتابٍ من كتبِ الله المنزلة ، ورأتَ أن أرزاقهَ وقفٌ على الموظفين ، وحبائس على المستخدَمين ، وأنه لا يأمر بصَرْفِ درهمٍ واحد من خزائنه إلا إذا جاءته سفتجةٌ بتوقيع أمير ، أو إشارة وزير

أيها الطالبُ : قلْ لأبيك وأخيك وأهلِك وأصدقائك ومعارفك بلا خجلٍ ولا استحياء ، إن الذي وهبني عقلي لم يسلبْنيه ، وإن الذي صوّر لي أعضائي لم يَحُلْ بيني وبين الذّهاب بها في ما خُلِقتْ له، وإن الذي خلقني سوف يهدين، انه الرزاقُ ذو القُوّةِ المَتين

النبوغ

من العجزِ أن يَزْدَرِيَ المرءُ نفسه فلا يُقيمُ لها وزناً ، وأن ينظرَ إلى من هو فوقه من الناس نظرَ الحيوان الأعجم إلى الحيوانِ الناطق ، وعندى أن من يخطىء فى تقديرِ قيمتِه مُستعلياً ، خيرٌ ممن يخطىء فى تقديرها متدلياً ، فإن الرجل إذا صغرتْ نفسُه فى عين نفسِه يأبى لها من أعماله وأطواره إلا ما يشاكلُ منزلَتها عنده ، فتراه صغيراً فى علمه ، صغيراً فى أدبه ، صغيراً فى مُروءته وهمته ، صغيراً فى مُيوله وأهوائه ، صغيراً فى جميع شؤونه وأعماله ، فإن عَظُمَتْ نفسُه عظمَ بجانبها كلُّ ما كان صغيراً فى جانب النفسِ الصغيرة

ولقد سأل أحدُ الأئمةِ العظماء ولدَه وكان نجيباً أيةَ غايةٍ تطلُبُ فى حياتِك يا بُنَيَّ ؟ وأيَّ رجلٍ من عظماء الرجال تُحِبُّ

أن تكونه ؟ فأجابه أُحِبُّ أن أكونَ مثلك ، فقال ويْحك يا بنيّ لقد صغرت نفسُك ، وسقطت همتك فَلْتبكِ على عقلك البواكى ، لقد قدّرتُ لنفسى يا بُنىّ فى مبدإ نشأتى أن أكون كعلىّ بن أبى طالب ، فما زلتُ أجِدُّ وأكدحُ حتى بلغتُ المنزلةَ التى تراها ، وبينى وبين علىٍّ ما تعلم من الشأو البعيد والمدَى الشاسعِ ، فهل يسرُّك وقد طلبتَ منزلتى أن يكونَ ما بينك وبينى من المدى مثلُ ما بينى وبين علىّ ؟؟

كثيراً ما يُخطىء الناسُ فى التفريق بين التواضع وصِغر النفس ، وبين الكبرِ وعُلوِّ الهمة ، فيحسبونَ المتذللَ المتملقَ الدنىء متواضعاً ، ويُسمّون الرجلَ إذا ترفع بنفسه عن الدنايا ، وعرف حقيقةَ منزلِته من المجتمع الانسانى متكبراً ، وما التواضعُ إلا الأدبُ ولا الكبرُ إلا سوءِ الأدب ، فالرجلُ الذى يلقاك مبتسما متهللاً ، ويُقْبِلُ عليك بوجهه ، ويصغى إليك إذا حدثته ، ويزورك مهنئاً ومعزياً ،

ليس صغيرَ النفس كما يظنون بل هو عظيمها ، لأنه وجد التواضعَ أليقَ بِعَظمةِ نفسه فتواضع ، والأدبَ أرفعَ لشأنه فتأدب

فتًى كان عذبَ الرُّوح لا من غضاضة
ولكنّ كبراً أن يقالَ به كبر

فاذا بلغ الذلُّ بالرجل ذى الفضل أن يُنكِّسَ رأسه للكبراء ويتهافت على أيديهم وأقدامهم لَثما وتقبيلا ، ويتبذّلَ بمخالطة السُّوقةِ والغوغاء بلا ضرورةٍ ولاسبب ، ويكثرَ من شتم نفسه وتحقيرِها ، ورميِها بالجهل والغباوة ، ويبصبِصَ برأسه وهو سائر فى طريقه بَصْبَصَةَ الكلب بذنبه ، ويجلسَ فى مدارج الطرق وعلى أفواه الدروب جلسةَ البائس المسكين فاعلمْ أنهُ صغيرُ النفسِ ساقطُ الهمة ، لامتواضع ولا متأدب

إن عُلوّ الهمةِ إذا لم يُخالطه كبرٌ يزرى به ويدعو صاحبَه إلى التنطع وسوء العشرة كان أحسنَ ذريعةٍ تتذرعُ بها

الانسانُ إلى النُّبوغ فى هذه الحياة ، وليس فى الناس من هو أحوج إلى علوّ الهمة من طالب العلم ، لأن حاجةَ الأمةِ إلى نُبوغه أكثرَ من حاجتها إلى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين ، وهل الصانعون والمحترفون إلا حسنةٌ من حسناته، وأثرٌ من آثاره ، بل هو البحرُ الزاخرُ الذى تستقى منه الجداولُ والغدران

فياطالبَ العلمِ كُنْ عالىَ الهمة ، ولا يكن نظرُكَ فى تاريخ عظماء الرجال نظراً يبعثُ فى قلبك الرهبةَ والهيبةَ فتتضاءل وتتصاغر كما يفعلُ الجبان المستطارُ حينما يسمع قصةً من قصص الحروب ، أو خُرافةً من خرافات الجانّ ، وحَذارِ أن علكَ اليأسُ عليك قوتَك وشجاعتَك فتستسلمَ استسلامَ العاجزِ الضعيف وتقولُ من لى بسُلَّم أصعدُ عليها إلى السماء حتى أصلَ إلى قبة الفلكِ فأجالسَ فيها عظماء الرجال

ياطالبَ العلمِ أنت لا تحتاجُ فى بلوغك الغايةَ التى بلغها

النابغون من قبلك إلى خلقٍ غير خلقك ، وجوّ غيرِ جوّك، وسماء وأرضٍ غيرِ سمائك وأرضِك ، وعقلٍ وأداةٍ غيرِ عقلك وأداتِك ،ولكنك في حاجة إلى نفسٍ عاليةٍ كنفوسهم، وهمةٍ عالية كهممهم ، وأملٍ أوسعَ من رُقعة الأرض ، وأرحبَ من صدر الحليم ، ولا يَقْعُدَنّ بك عن ذلك ما يهمسُ به حاسدوك في خلواتهم من وصفك بالوقاحة أو بالسماجة ، فنعم الخلقُ هي ان كانت السبيلَ إلى بلوغ الغاية، فامض على وجهك وَدَعْهُم في غيِّهم يعمهون

جَناحانِ عظيمان يطيرُ بهما المتعلمُ إلى سماء المجد والشرف ، علوُّ الهمةِ ، والفهمُ في العلم ، أما علوُّ الهمة فقد عرفتَهُ ، وأما الفهمُ في العلم ، فإليك الكلمة الآتية : —

العلمُ علمان،علمٌ محفوظٌ وعلمٌ مفهوم، أما العلم المحفوظْ فيستوى صاحبُه فيه مع الكتاب المرقوم ، ولا فرق بين أن تسمعَ من الحافظ كلمةً ، أو تقرأ في الكتاب صفحةً ، فإن أشكل عليك شيء مما تسمع ، فانظُرْ إنْ نطقَ الكتابْ

بشرح مُشكلاتِه ، نطق الحافظُ بتفسير كلماتِه

الحافظُ يحفظُ ما يسمع لأنه قويُّ الذاكرة ، وقوّة الذاكرة قدرٌ مشترك بين الذكيّ والغبيّ والنابهِ والخامل ، لأن الحافظةَ مَلَكةٌ مستقلةٌ بنفسها عن بقية المَلَكات ، وإنك لترى الشيخَ الفانيَ الذى لايميزُ بين الطفولة والهرَم ، والذى يبكى على الحلوَى بكاءَ الطفلِ عليها، ويرتعد فرقاً حينما يسمعُ ابنته تُخيف طفلَها بأسماء الجن والشياطين، يسردُ لك من تواريخ شبيبته وكهولتِه ما لو دوّنتَهُ لكان تاريخاً صحيحاً ضخماً مملوءاً بالغرائب والنوادر ، وقيل لأحد العلماء إن فلاناً حفِظ متنَ البخاريّ ، فقال لقد زادتْ نسخةٌ فى البلد

ذلك هو السرُّ العظيمُ فى كثرة المتعامين وقلةِ العاملين، لأن من فهم معلوماً من المعلومات حقّ الفهمِ أشربته رُوحُه، وخالط لحمه ودمَه ، ووصل من قلبه إلى سُويدائه ، وكان إحدى غرائزه ، فلا يرى له بدّاً من العمل به رَضِيَ أم أبى

لولا أن العلْمِ الدينيّ قد أصبح اليوم علماً محفوظاً لما وجدتَ

فى العلماء من يجمعُ بين اعتقاد الوحدانية وبين التردد على أبواب الأحياء والأموات فى مزاراتهم وفى مقابرهم يسألهمُ المعونةَ والمساعدةَ على قضاء الله وقدره ، ولا وجدتَ بين الذين يحفظون قولَه تعالى « قُلْ لا أَمْلِكُ لنفسى نفعاً ولا ضَرّاً » من يسند النفعَ والضررَ إلى كل من سال لعابُهُ ، وتمزق إهابهُ ، ولا وجدتَ فى الناس كثيراً من ضعفاء العزيمةِ الذين يحفظون ما ورد على ألسنة الانبياء والحكماء من مدح الفضائلِ وذمّ الرذائل ، ثم لا تجد فرقاً بينهم وبين العامةِ فى ارتكاب المنكرات ، والنُّفورِ من الصالحات

لو كان العلمُ المحفوظ علماً وهو على ما نشاهدُ ونعلم من سوء الأثرِ وقلة الجدْوَى ما ورد مدحُ العلمِ فى كتابٍ ولا سنةٍ ، ولا قدّسه كاتبٌ ، أو ترنم بمدحه شاعر ، فاذا سمعت ذكرَ العلم فاعلمْ أنه العلمُ المفهوم لا المحفوظ ، وإذا أردتَ أن تُلقّبَ بالعالمِ فلا تلقبْ به من يحفظُ ، بل من يفهمُ ما يحفظ وآيةُ فهم المعلوم تأثرُ العالمِ به ، وظهورُه فى حركاته وسكناته

وترقرفه فى شمائله ترقرقَ الصهباء فى وجه شاربها، ولا تثقْ بالحافظ فيما ينقل اليك ، فربما مر بالمعلوم مُحَرّفا فأخذه على عَلاته ، وأقبحُ ما عرفنا من أطواره أنه يَجمعُ فى حافظته بين النقيض ونقيضِه ، والغثِّ والثمين ، والجيدِ والزائف ، فكأن ذاكرتَه حانوتُ عطار اختلطتْ فيها الأدويةُ الشافيةُ ، بالعقاقيرِ السامّةِ

وجملةُ الأمرِ أن الحافظَ البحتَ لا رأىَ له فى مَبحث فَيسئلُ عن مذهب ، ولا أثرَ لمعلوماته فى نفسه فيُقتدَى به ، ولا ذوقَ له فى الفهم فيُعتمد على شرحه وتأويلِه

أما العلمُ المفهومُ فهو الواسطة التى إذا جمعَ المتعلمُ بينها وبين علوّ الهمةِ طار إلى المجد بِجَنَاحين ، وكان له سبيلٌ مختصرٌ إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين ، والعلمُ سلسلةٌ طويلةٌ طرَفاها فى يدى آدمَ أبى البشر وإسرافيل صاحب الصُّور[١] ومسائله حلقاتٌ يصنع كلٌّ نابغةٍ من النوابغ

(١) المراد أن العلوم لا يتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها ما دامت العقول تفكر فالعمل دائب فيها من ابتداء الدنيا إلى انتهائها

في كل عصرٍ من العصور واحدةً منها، ولن يبلغَ المتعلمُ درجةَ النبوغ إلا إذا وضعَ في العلم الذي مارسه مسألةً، أو كشف حقيقةً، أو أصلح هفوةً، أو اخترع طريقةً، ولن يَسلسَ له ذلك إلا إذا كان علمهُ مفهوماً لا محفوظاً، ولا يكونُ مفهوماً إلا إذا أخلص المتعلم إليه، وتعبّد له، وأنسَ به أُنسَ العاشقِ بمعشوقهِ، ولم ينظرْ إليه نظرَ التاجر لسِلْعته، والمحترفِ لحرفته، فالتاجرُ يجمعُ من السلع ما يَنفَق سوقه، لا ما يغلو جوهره، والمحترفُ لا يهمه من حرفته إلا لقمةَ الخبزِ وجرعةَ الماء، أحسن أم أساء

لا يزور العلمُ قلباً مشغولا بترقُّبِ المناصبِ وحسابِ الرواتب، وسوق الآمال، وراء الأموال، كما لا يزور قلباً مقسما بين تصفيفِ الطرَّة، وصقلِ الغرّة، وحسنِ القوام، وجمال الهِنْدام، وطولِ الهيام، بالكأسَين كأسِ المدام وكأس الغرام

البائسات

زرتُ منذُ أيام حاكمَ بلدةٍ فى منزله فرأيتُ بين يديه فتاةً فى الثانية عشرة من عمرها بائسةً عليلةً ، تشكو ألماً فى عُنقها ، وجُرحاً فى ذراعها ؛ وَهماً فى نفسها وتُدِير فى الحاضرين عيونًا حائرةً مضطربةً كأنما هى مركّبةٌ على زئبق رَجْراج ، فسألت ما شأنُها ، فعلمتُ أن أهلها زوّجوها وهى فى هذه السن وعلى هذه السّذاجةِ من رجل وحشىّ الخلْقِ والخُلقِ ثم زفوها إليه فحاول أن يفترشَها وهى على حالة لا نستطيعُ معها أن تلم بفراشٍ فامتنعتْ عليه ، فأراد اغتصابَها فعجز ، فضربها هذا الضربَ الذى رأينا آثاره فى جسمها ، ففرتْ منه إلى منزلِ أهلها فنَقِموا منها هذا الإباء الذى سمّوْه بلادةً وغفلةً وأعادوها إلى منزل زوجها

كما يعاد المجرمُ الفارّ من سجنه إليه مرة أخرى ، وهنالك عاد زوجُها إلى عادته معها ، فعادتْ هي إلى فرارها ، فعاد أهلُها إلى قسوتهم وجبروتهم ، فلما أعياها الأمرُ خرجتْ إلى الطريق العامّة هائمةً على وجهها لا تعرفُ لها مذهباً ولا مُستقراً حتى رُفع أمرُها إلى ذلك الحاكم فأمر باستدعائها وآواها في منزله ليخلّصها من ذلك الموقفِ الذي كانتْ فيه بين ذراعيْ وجبْهةِ الأسد ، وما فرغ من هذه القصة حتى رُفِعتْ إليه حادثةٌ اخرى تشبه الحادثةَ الأولى من جميع وجوهها إلا أن الزوجَ في هذه المرةِ خدع زوجَه عن نفسها وسقاها مخدّراً فعقرها كما عقر شقيُّ ثمود ناقتَه من قبل

إن المرأةَ المصريةَ شقيةٌ بائسةٌ ، ولا سبب لشقائها وبؤسِها إلا جهلُها وضُعفُ مداركها

إنها لا تحْسِنُ عملا ، ولا تعرفُ بابَ مرتزق ، ولا تجدُ بين يديها سِلعةً تتّجرُ بها وتقتاتُ منها إلا قلب الرجل ، فان استطاعتْ أن تمتلكهُ عاشت عيشا رغداً ، أوْ لاَ ، فلا

مَفرّ لها من الشقاء من المهدِ إلى اللحد

ودونَ امتلاكها هذا القلبَ المقاسىَ المتحجرَ أهوالٌ عِظامٌ وعقباتٌ جسام لو كلّفَ الرجلُ نفسه على ما به من قوة وأيْدٍ وسَعةِ حيلةٍ أن يجتازَ واحدةً منها لَسقط بين اليأس والاستسلام

متى بلغت الفتاةُ سنّ الزواج سواءاً كان ذلك على تقدير الطبيعةِ أو على تقدير أولئك الجهلاء أولياء أمرِ تينك الفتاتين استثقل أهلها ظِلّها وبَرِموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة ، والقَوْمة والقَعدة ، ورأوا أنها عالة عليهم وأن لا حق لها فى العيش فى منزل لا يستفيدُ من عملها شيئاً ووَدّوا لو طلع عليهم وجهُ الخاطب أىّ خاطب كان يحملُ فى جبينه آيةَ البشرى بالخلاص منها

وإن قوماً هذا مبلغُ عقولهم من الفهم ، وقلوبِهم من القسوة ، وهذه منزلة فلذاتِ أكبادهم من نفوسهم، لا يمكن بحال من الأحوال أن يفاوضوها فى اختيار الزوج ، أو يُحسنوا الاختيارَ لها حين يختارون

فاذا دخلتْ هذا المنزلَ الجديدَ الذى لاتعرفُه ، ولا تعرفُ شأناً من شؤون أهله دخلتْ فى دور الجهاد العظيم بينها و بين قلب الرجل

فان كانت ذاتَ جمالٍ أو مالٍ فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلامَ الهجر وفجائعَ التطليق ، وإلا فهى تقاسى كل صباح ومساء فى الحصول على الحسن المجلوب ، والجمالِ المصنوع ، آلاماً جثمانيةً تطفىء نورَ شبيبتها ، وتذبلُ زهرةَ حياتها ، وتلاقى فى سبيل مُصانعةِ الزوج ومداراتهِ والبكاء فى موضعِ الابتسام إن ابتسم ، والابتسام فى موضع البكاء إن بكى ، ما يحملُ أخلاقَها فضاء مملوءاً بالكذب والكيد ، والخبث والرِّياء ، وهى فوق ذلك تنتظرَ من فم زوجها فى كل ساعةٍ كلمةَ الطلاق ، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الاعدام

ليست كلمةُ الاعدام من قبيل الاستعمالِ المجازىِّ . فما أنسَ لا أنسى ليلة زرتُ فيها صديقا لى فرأَيت عند باب منزله امرأةً بائسةً ليس وراء ما بها من الهم غاية ، وكأنما هى الخلال رقةً وذُبولا ، ووراءها صِبيةٌ ثلاثٌ يدورون

حولها و يُجاذبونها طرَفَ ردائها ، فتُسبِلَ فضلَ مِئزرِها على مآقيها المقرّحةِ رأفةً بهم أن يلموا ببعض شأنها فيبكوا لبكائها ، فسألتها عن شأنها فأخبرتنى أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكما من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و « الادارة » تماطلها فى إنفاذه ، فجاءت إلى هذا الصديق تستعين به على أمرها ، ثم أخذت تشرح من حالها وحالِ أطفالها فى مقاساة الشدة ، ومعالجة القوت ما أسالَ شؤونَنا ، وصعّد زفراتِنا ، وأمسكنا له أكبادَنا خشيةَ أن تَصدّعا

خففْتُ أنا وصديقى شيئاً من آلامها فانصرفتْ ، وفى صباح تلك الليلةِ سمعنا أن امرأةً فقيرةً ماتت بحمى دماغية فسألنا عنها فعلمنا أنها صاحبتُنا بالأمس وأنها ماتت شهيدةَ الزوجية الفاسدة

أيها الرجل : إن كنت تعتقدُ أن المرأة إنسان مثلك وهبها اللهُ مداركَ مثلَ مداركِك ، واستعداداً مثل استعدادك ، فعلّمْها كيف تأكلُ لقمتَها من حرفةٍ غير

هذه الحرفةِ النكِدَةِ ، وإلا فأحسِنْ إليها وارحمها كما ترْحَمُ كلبَك وشاتك

إن كنتَ زوجاً فلا تطردْها من منزلك بعد أن تقضِيَ مأربَك منها كما تصنعُ بنعلك التى تلبسُها ، وإن كنتَ أباً فهذه فِلذةُ كبدِك فلا تضِقْ بها ذَرعاً ، ولا تُلقِ بها فى جُحْرِ وحشٍ ضارٍ يأكلُ لحمها ، ويمتصُّ دمَها ، ثم يُلقى إليك بعظامِها

ويأيها المحسنون : والله لا أعرفُ لكم باباً فى الإحسان تنفذون منه إلى عفو الله ورحمتِهِ أوْسعَ من بابِ الإحسان إلى المرأة

علِّموها لتجعلوا منها مدرسةً يتعلمُ فيها أولادُكم قبل المدرسة ، وأدِّبوها لينشأ فى حِجْرِها المستقبلُ العظيم . للوطن الكريم

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى